الاسقف ألكسندر
(سِمِنوف ـ تيان ـ شانسكي)

القديس يوحنا كرونشتادت

(١٨٢٩ ـ ١٩٠٨)

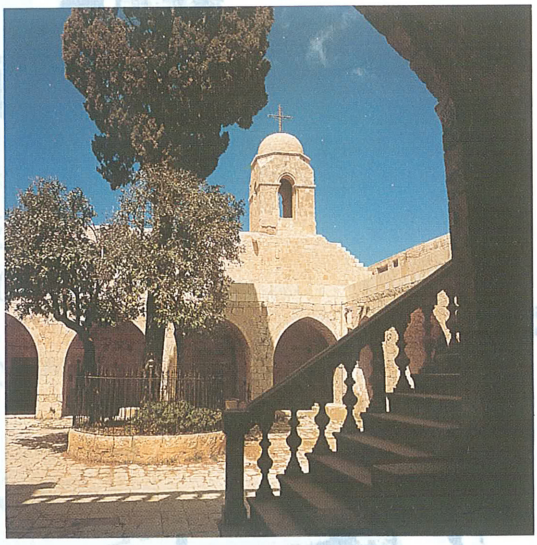

تعريب الشماس
سلوان موسي

١٩٩٨

دير سيدة البلمند البطريركي

القديس يوحنا كرونشتادت

عرِّب هذا الكتاب عن نص النسخة الإنكليزية:

Bishop Alexander, Father John of Cronstadt, A life, St. Vladimir s Seminary Press, New York, 1979.

Επισ. Αλεξάνδρου,΄Αγιος Ιωάννης της Κρονστάνδης, Ιερά Μονή Παρακλήτου,΄Ορωπος Αττικής, 6η έκδοση, 1994.
(μετάφραση από τα ρωσσικά).

الغلاف الخارجي: منظر داخلي للدير وقبته

الاخراج الفني والاشراف على الطباعة: مؤسسة التنضيد التصويري "دبس"

دمشق ٢٢١٦٥٩٣.٢٢٣٠٩٦٥

© منشورات دير سيدة البلمند البطريركي

طبعة أولى ١٩٩٨/٩

© جميع الحقوق محفوظة لدير سيدة البلمند البطريركي

البلمند ١٩٩٨

ص. ب ١٠٠ الكورة . طرابلس . لبنان

إهداء وشكر

لا كلام لنا نضيفه حين يتكلم القديس يوحنا كرونشتادت! ولذا سنترك له أن يخاطبنا في هذه الصفحات التالية، لأنه كان كلمة ناطقة لمنطق الروح، ولسان حاله كان تعبيراً عن خلجات النعمة ومشيئة الروح القدس الساكن فيه.

النسك في جوهره هو أداة لاقتناء الروح القدس. وفرادة النسك في تقليدنا الأرثوذكسي هي صفاؤه. فلكونه "فن" العلاقة مع الروح القدس هو ممكن في "كل مكان". آباء كبار، باسيليوس الكبير، فم الذهب، غريغوريوس بالاماس وعديدون سواهم، ذاقوا من النسك طعم النعمة الإلهية ثم عاشوا مع الناس محافظين عليها. وإن كان للأديار فرادتها المغرية، كجبل سيناء دائم يتعشق السماء، أو كمحل للغمام الإلهي ولانسكاب الكلمة، أو كخدر العرس الإلهي - الإنساني، فإن الروح المالئ الكل كنز الصالحات لاينحصر فيها، وهنا أو هناك.

القديس يوحنا كرونشتادت أحب الله، فسعى اليه بالفضائل المسيحية عفوياً، فأحب "السماويات" وتعالى عن "الدنيويات"، عاين ا في مجده وحبه، حينذاك رأى الإنسان واكتشف القريب فقطف إذ ذاك من النسك ثماره.

كيف نقرأ حياة قديس؟ هذا الكتاب ليس سنكساراً بالمعنى المعتاد، بل قراءة متفاعلة مع حياة القديس وواعية لها، لأنها تصير حركةً للاقتداء لا بل مشاركةً وشوقاً ومنهلاً للنعمة. هذه القراءة، للكتاب الذي أمامنا، كانت السبب الأول لنشره. لا يحتوي الكتاب على أقوال القديس وحسب، وهي ندىً ألهي، بل على فن مطالعتها وعيشها أيضاً. لذلك جاء هذا الكتاب سنكساراً جديداً في لونه، أي كتاب أخلاق مسيحية.

من هو الكاهن؟! الجوابُ صعبٌ!! لذلك استعنا بهذا الكتاب، ليقدم الجواب.

يا لعظمة الكهنوت!! يا لرهبته!! يا لمسؤوليته!! فمن يستحقه؟! لا يعزّي في الأمر إلاّ الرحمة الإلهية. فليكن لنا هذا السنكسار الصغير كـ «رفيق الكاهن» و«دليل الراعي». هذا الجواب كان السبب الثاني لنشر هذا الكتاب.

نهدي هذا الكتاب، أولاً، إلى أحبتنا، الذين اختاروا أن يرموا بذواتهم في هذه المحرقة المطهِّرة، بين يدي الله وعلى نار الروح، في بوتقة الخدمات الإلهية والحياة الرعائية؛ الذين طلبوا أن يَمْثُلوا يوماً ما أمام منبر المسيح أطهاراً، وقد خرجوا من هذه البوتقة المقدسة «مكملين السعيَ وحافظين الإيمان ليوضع لهم إكليل البرّ الذي سيهبه لهم، في ذلك اليوم، الديان العادل وليس لهم فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً». إلى طلاب كلية اللاهوت في البلمند. نهديه لهم رفيقاً ودليلاً.

ونهديه، ثانياً، إلى كل متزوج يحيا في وسط الناس، كاهناً كان أم مؤمناً، ليتعلم منه فنّ العشرة مع الروح القدس حيثما كان، وكيف ينهل من النعمة من خلال حب القريب والإنسان؛ داعين له أن يشارك قديسنا في غمرة أسرار الكنيسة ونورها وحياتها، ويصير كائناً مصلّياً، ليتورجيّاً، حيّاً فاعلاً في خدمته أياً تكن.

كلمة الشكر والامتنان نرفعها إلى مولانا صاحب الغبطة البطريرك إغناطيوس الرابع، الكلي الطوبى والجزيل الاحترام، الذي يرعى هذا الدير المقدس والمعهد اللاهوتي بمحبة نادرة وسهر وتفانٍ، سائلين الله أن يمده بالسنين العديدة.

أخيراً، نشكر قدس الشماس سلوان الذي منَّ علينا بهذه الترجمة، كما نشكر معه جميع الأحبة الذين ساهموا في إخراج هذا الكنز الروحي إلى يدي القرّاء.

ختاماً، نسأل عذراء البلمند القائدة والقديس يوحنا الذي أحبها حباً خالصاً أن يضرعا إلى السيد من أجلنا ومن أجل الجميع ويسألاه أن يرسل لكنيستهِ خداماً.

الناشر

عيد رقاد السيدة، دير سيّدة البلمند البطريركيّ ١٩٩٨

المقدّمة

إنّ كتاباً يتحدّث عن الأب يوحنا كرونشتادت ـ بالنسبة إلى المؤمنين الأرثوذكس ـ لا يحتاج أبداً إلى مقدمة. الاحترام والمحبّة، صلوات التضرّع والإيمان بقدرته العجائبيّة أحاطت به منذ كان على قيد الحياة، وصارت أكثر انتشاراً وبروزاً بعد رُقاده سنة ١٩٠٨، وهي تؤلّف القرائن الأكيدة لإعلان قداسته التي حصلت واكتملت في ضمير الكنيسة.

أمّا الذين لم يسمعوا قطّ عن راعي كرونشتادت هذا، فيحتاجون لمثل هذه المقدمة. فكلُّ ما تناول الأبَ يوحنا، من كتابات ومقالاتٍ، قد أبرز على نحو خاصّ قدرتَه العجائبيّة، وسطّر الطابع الاستثنائي "لحضوره" في روسيّا قبل أحداث ثورة ١٩١٧.

الأب يوحنا هو، إلى جانب قداسته الشخصيّة وقدرة صلواته العجائبيّة، قبل كل شيء ابن التقليد الارثوذكسي، ابن الإيمان والحياة في الكنيسة الأرثوذكسية. بهذا المعنى، يبقى شاهداً للتقليد الحقيقي، مبشّراً أساسيّاً بالإيمان والعقيدة والحياة الروحيّة الأرثوذكسيّة. وفي الوقت الذي تعيش فيه الكنيسة التجربة في هذا الدهر فإنّ شهادته تأخذ طابعاً استثنائياً.

مثل هذه المقدمة نجدها في كتاب الأسقف الكسندر(سمنوف ـ تيان ـ شانسكي). هذا ليس جدولاً آخرَ لعجائب الأب يوحنا، ولا أيضاً مديحاً أو تعظيماتٍ، بل محاولة ـ وهي الأولى على حد علمي ـ للكشف عن جذور خدمة الأب يوحنا ومنابعها وشهادته، ولإبراز رسالته الروحية. لهذا السبب لا أستطيع أن أفكّر بمقدمة أفضل لأجل لقاء روحي بهذا الكاهن العظيم القديس .

كلمات قليلة في الكاتب: الأسقف ألكسندر هو الآن في السابعة والثمانين من عمره. وقد كان نفسه شاهداً للفترة التي سبقت الثورة الروسية، تلك الفترة

التي لا نستطيع أن نقول سوى أنّ الأب يوحنا أُرسل لها خصّيصاً، كمنبّه، كعلامة، كنبوءة.

الأسقف ألكسندر وليد أسرة روسية عريقة، وجدّه هو المكتشف الكبير لجبال تيان ـ شان في روسية الآسيويّة. بدأ حياته كضابط في الحرس الإمبراطوري الروسي أثناء الأعوام ١٩١٤ـ ١٩١٨، نُفي بعد الثورة البولشفيّة وقرّر، سنة ١٩٣٥، أن يخدم الكنيسة. أكمل دراسته اللاهوتيّة في معهد القديس سرجيوس اللاهوتي في باريس ورُسم كاهناً وصار، في ما بعد، أسقفاً مساعداً في الكنيسة الروسيّة، في المنفى، التابعة للبطريركية المسكونية في أوروبا الغربيّة. فهو أيضاً، إلى كونه راعياً، كاتب، مُربٍّ ولاهوتي. مقالاته الروحية، مواعظه (باللغة الروسية)، وتعليمه العقائدي (باللغة الفرنسية) هي مساهمة قيّمة على صعيد اللاهوت الأرثوذكسي في القرن العشرين. ولكنّ أفضل كتبه على الاطلاق هو ـ دون أدنى شكّ ـ هذا الكتاب عن حياة الأب يوحنا كرونشتادت، حيث يضيء نور الأب يوحنا وتتألّق روحه. وهو ليس كتاباً عنه فقط، الأحرى أنّه لقاء به.

المتقدّم في الكهنة ألكسندر شميمن

عميد معهد القديس فلاديمير اللاهوتي الأرثوذكسي

في تعريب هذا الكتاب

ورد النص الأصليّ للكتاب باللغة الروسيّة وطبع في نيويورك سنة ١٩٥٥. حتى ذلك الحين لم تكن قداسة الأب يوحنا كرونشتادت قد أُعلنت رسميّاً بعد. مجمع الكنيسة الروسيّة خارج الحدود أعلن قداسته في ١ نوفبر سنة ١٩٦٤. وتلاه إعلان آخر في احتفالات الذكرى الألفيّة لمعموديّة روسية أتى، هذه المرة، من الكنيسة الروسية نفسها بعد طول انتظار. حصل ذلك في زاغورسك سنة ١٩٨٨، وقد ورد اسم الأب يوحنا ضمن مجموعة من الأسماء أعلنت قداستها حينها.

هذا التعريب اعتمد، بشكل أساسي، نصَّ الترجمة الانكليزية الصادر سنة ١٩٧٩ عن منشورات معهد القدّيس فلاديمير اللاهوتي الأرثوذكسي في نيويورك. وقد بذلنا جهدنا حتى نبقى أُمناء على هذا النصّ، إلاّ أننا اعتمدنا في أماكن مختلفة من الكتاب نصّ الترجمة اليونانيّة في طبعته السادسة، الصادر سنة ١٩٩٤ عن دير المعزي، أوروبو، اليونان، وذلك لضبط المعنى من جهة، ولوضوح العبارة ولسلاسة الإنشاء على ما تبيّن لنا من خلال الترجمة اليونانية، من جهة أخرى.

المعرّب الشماس سلوان

القديس يوحنا كرونشتادت

(١٨٢٩ - ١٩٠٨)

الطروبارية

لقد ظهر مثالَك ذكيَّ الرائحة للكهنة،
وعمّت تعاليمك المحيية أرجاء روسيا.
إذ استنشقتَ عبير المسيح كل حين،
وحفظت وصاياه على الدوام،
وأغنيتَ بعجائبك الجميع،
وتمرّست في الإحسان ومحبة البشر.
فافرحي يا كرونشتادت واعتزّي يا فخر الكنائس،
لأننا نكرّمك أيّها الأب البار يوحنا ونقيم تذكارك.

القنداق

لقد ندّيتَ الكنيسةَ أيها الأب يوحنا
ساقياً إياها بالمنّ الحامل الحياة،
وسلكت كملاك متجسّد
مرشداً إلى المسيح المتقدّمين إليك،
هادياً إياهم بقوة أقوالك وعجائبك،
لذلك نهتف: إفرحْ أيها الأب المثلث الغبطة.

القدّيس يوحنّا كرونشتادت
(١٨٢٩ ـ ١٩٥٨)

الفصل الأول

من الميلاد إلى الكهنوت

- ١ -

إنّ المكان الذي ولد فيه الأب يوحنا كرونشتادت والمحيط الذي رأى فيه النور يسترعيان، منذ البداية، الإنتباهَ. فإنّ المقاطعة كانت تبعد مئات الفراسخ عن مراكز الحياة المدنية الروسية، وكانت البيئة فقيرة وفي غاية التواضع. وقد يتساءل أحدهم، على الرغم منه: "لماذا ولد في هذا المكان القفر؟" مهما يكن من شأن، فإنّ مكان ولادته جعل البعض يتذكر لومونوسوف(Lomonosov)[1] ، كما أنّ فقر البيئة ينقل إلى الذهن تلك المغارة التي ولد فيها ذاك الذي صار الأب يوحنا خادماً أميناً له. ليس من مجال للمصادفة في حياة الإنسان، ولكنّ عناية الله، في احترامها لنا، هي صعبة الإدراك عادة، في تلك الحوادث التي قد تبدو لنا عرضية.

ولد إيفان إيليتش سرجييف (Ivan Ilyich Sergiev) ـ وصار معروفاً في ما بعد في العالم الأرثوذكسي كلّه كمتقدّم في الكهنة في كرونشتادت باسم يوحنا ـ في قرية سورو (Suro) في مقاطعة بينيغا (Pinega) في إقليم أرخنجلسك (Archangelsk). تقع القرية عند مجمع نهري سورا (Sura) وبينيغا (Pinega)، وهو رافد على الضفة اليمنى لنهر دفينا (Dvina)، على بعد خمسماية فرسخ من البحر الأبيض. على مقربة من القرية تلال كبيرة، صخور مرمر بيضاء ومغاور، وغابات ملأى بكثير من العصافير والحيوانات.... المنظر الطبيعي خلاّب وساحر، إلاّ أنّ القرية نفسها وكلّ ما صنعته يد الإنسان كان فقيراً وهزيلاً: بيوت خشبيّة

١ـ كاتب وعالم روسي كبير.

متواضعة، كنيستان قديمتان، الأولى لدخول السيّدة والأخرى للقدّيس نيقولاوس – وكانت أوانيها المقدسة من النجاس – بالإضافة إلى البيت الذي ولد فيه الأب يوحنا، وهو لا يشبه حتى كوخ فلاح، بل هو عبارة عن سقيفة خربة.

"وهكذا، فإننا نرى، من جهة، تلك الطبيعة ذات جمال ساحر وعُذريّة بقيت بعيدة عن أيدي البشر، ومن جهة أخرى، فقر الإنسان الشديد"، كما كتب الأب المتوحّد مخائيل، كاتب سيرة الأب يوحنا[٢]. وهو يتابع قوله فيقول: "هذه هي خلفيّة الانطباعات الأولى التي كوّنها سرجييف".

ليس صعباً على المرء أن يرى، في تضاد الغنى الطبيعي والفقر الإنساني، تجلّي العناية الإلهية في تهيئة الميول والرغبات التي تحركت في نفس الراعي المستقبلي. أساس هذه الميول ضعف الإنسان من جهة، وعظمة الخالق من جهة أخرى.

إيليا مخائيلوفيتش سرجييف، وهو والد الأب يوحنا، كان قارئاً للمزامير في كنيسة القرية، ولم يكن على قدر كبير من العلم. وأمه ثيودورا فلاسييفنا، هي أيضاً، لم تكن على قدر أفضل من زوجها. في هذه الناحية قليلة هي المعلومات التي نعرفها عن الوالد، إلاّ أننا نعرف أنّ جدَّ الأب يوحنا كان كاهناً، كما كان، على هذه الحال، عدد كبير من أجداده طيلة ثلاثمائة وخمسين عاماً [٣].

عاشت والدة الأب يوحنا عمراً أطول نسبياً من عمر زوجها (توفيت سنة ١٨٧١، وشهدت تألق شهرة ولدها[٤]). يبدو عليها، من بعض الصور الفوتوغرافية، الوجه الروسي التقليدي: عريض، جميل، إلى بعض الصرامة في الجانب السفلي منه وهي خاصّة الروس الذين يقطنون المناطق الشمالية.

مرة، عندما كان الأب يوحنا لا يزال في ريعان شبابه، فتك به مرض ثقيل، فأصّر عليه الأطباء أن يحلَّ صومه، فأبى أن يفعل إلاّ إذا سمحت والدته بذلك. أما هي فلم تعطه موافقتها إذ لم تعتد قط مثل تلك المساومات.

٢ـ وردت في كتاب الأب متوحد مخائيل عن الأب يوحنا.

٣ـ عظة الأب يوحنا في تكريس كنيسة سورو، كما ورد في كتاب الاب المتوحد مخائيل.

٤ـ من كتاب زوبين (Zubin) ، حول الأب يوحنا كرونشتادت.

ولد الأب يوحنا في الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٢٩، (حسب التقويم القديم)، في عيد القديس البار يوحنا ريلسكي البلغاري (Rilsky)، فسمّي على اسمه. "المولود الحديث كان ضعيفاً ومنحرف الصحة، ما دفع والديه إلى الإعتقاد أنّه لن يبصر نور الفجر، لذلك تلّقى المعمودية المقدّسة في ليلة مولده"[٥]. وكانت له أختان.

-٢-

لا نعرف الكثير عن طفولة الأب يوحنا، نستثني منها فقط بعض الدلائل الجوهريّة والشواهد على ميوله الروحية.

في وسط ضيق الحياة القروية وشروط المعيشة فيها، كانت الكنيسة هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الولد أن يعبّر عن حيويّته. هناك وجد الكلمات والأنغام والألوان، وبطريقة أخرى، وجد العناصر الأساسيّة التي تعطي نَفْسَ الإنسان إمكانَ التعبير عن نفسها. كان الوالد يصطحب ابنه معه باستمرار إلى الخدم الالهيّة، أمّا في البيت فقد كان يحدثه عن المسيح والقدّيسين.

باستطاعتنا الجزم أنّه، حتّى ثورة أكتوبر، كانت طريقة الحياة في أواسط رجال الكهنوت في المناطق الريفية الروسية متشابهة على نحو كبير. لذلك من المناسب التوقف قليلاً عند طفولة رجل آخر ذي شأن، وإن كان من جيل لاحق، نعني به المتقدّم في الكهنة سرجيي بولغاكوف الذي اشتهر في البدء كمفكر وأستاذ في السياسة الاقتصادية، ولاحقاً ككاهن ولاهوتي مبتكر. كلماته ستساعدنا، دون شك، على تكوين صورة أوضح للمحيط الذي قضى فيه الأب يوحنا ريعان شبابه.

" كنا نحبّ الكنيسة كأمّ، كوطن، كالله. كم كانت تلهمنا، كانت لنا مكان تقديس ومصدر حيوية وجمال. لم يكن لدينا ما هو أبهى وأفضل".

ويتابع وصف طريقة حياة عائلته، وكان ربّ الأسرة كاهناً قروياً، فيقول:

٥- B.B. Glinsky, Historical Messenger, 1909

"كان التيبيكون[٦] مرشداً للأصوام والأعياد والخدم الإلهيّة والصلوات فكان من البديهي بالنسبة لنا، كقانون طبيعي، أن نتّبع أيّام الصوم، وخاصّة الصوم الأربعيني الصارم. كنا نعيش أيام الصوم ويوم الفصح، كُلاً حسب طبيعته، بطريقة احتفالية خاصّة. كم كانت غنيّة، عميقة ونقيّة أيام طفولتنا تلك! كيف كانت نفوسنا مستنيرة بتلك الأنوار السماويّة!.... وكل حياتنا، التي ضبط التيبيكون إيقاعها، اشتركت فيها حياة الطبيعة التي شكّلت لها إطارها... وكانت عبارة عن ظُلّة سماوية تمتد على سطح الأرض وكانت، في الحقيقة، تنفذ إلى النفوس إلى الأبد[٧]".

ما لا شكّ فيه أنّ طفولة فانيا[٨] انقضت بالشكل عينه، تحت ظلّ الكنيسة، وبشكل أوسع في أرجاء مساحات الطبيعة الواسعة... كلّ ذلك ساهم في جعل الطفل هادئاً، مفكّراً ومتأمّلاً، ولكن على مقدار كبير من قوّة الملاحظة. وقد ورد في بعض سيره الذاتيّة أنّه، منذ نعومة أظافره، أحب أن يراقب حياة الطبيعة، وبشكل خاص الحياة النباتيّة، فنلمس منه ناحيتها مشاعر رقيقة. يقول في إحدى محاضراته: "كلّ نبتة، كلّ زهرة تبدو وكأنّها تهمس في مَسامعنا: هنا هو الله! ادرسوا بنية النباتات المثيرة للدهشة وابلغوا منها إلى الاعتراف بالله".

ولدينا معلومات تفيدنا عن الطبيعة المتعاطفة مع الآخرين للطفل يوحنا، والتي شجّعت عدداً من أبناء القرية على الطلب إليه أن يصلي من أجلهم. إلى تلك الفترة تنتمي هذه القصة التي انتهت نهاية سعيدة وقد أوردتها الأم تايسيّيا (Taisiya) الرئيسة الشهيرة لدير لوشينسكي (Leuchinsky)، وكانت ابنة روحيّة للأب يوحنا، وصديقة أيضاً. وهي على ما يبدو أوردت القصة كما جاءت على لسان الأب يوحنا: "مرة، في إحدى الليالي، شاهد فانيا ضوءاً غيرَ طبيعيّ في غرفته، حدّق في الضوء فرأى ملاكاً مجلّلاً بمجده السماوي. اضطرب الطفل الصغير، لكنّ الملاك طمأنه بقوله إنّه ملاكه الحارس".

٦- كتاب ليتورجي مهمته ضبط الخدمة الكنسية على مدار السنة.

٧- الأستاذ سرجيوس بولغاكوف، مدوّنات من السيرة الذاتية.

٨- تصغير محبب لإسم أيفان.

في هذا السياق من الحديث، تجدر الإشارة إلى أنّ الكنيسة الأرثوذكسية لا تشجّع "الأعمال الرؤيوية" ، وينـدر أن نعثر على حوادث رؤيا، خصوصاً بين الأطفال، في سير القديسين وحياة الأبرار: لذلك، فهي تحتلُّ مكاناً خاصّاً .

-٣-

وحان الوقت ليتعلم الصبي القراءة. فلنترك له القلم في الحديث عن تلك المرحلة :

"عندما بلغت السادسة من عمري، ابتاع لي والدي كتاباً لأتعلّم مبادئ القراءة، وابتدأت والدتي مهمّة تلقيني الأحرف. محاولة القراءة كانت مهمة شاقة بالنسبة لي، وولّد ذلك في نفسي حزناً كبيراً. كان تعلّم القراءة في تلك الأيام مختلفاً عما هو عليه في هذه الأيام، ولفترة طويلة لم أكن أستطيع فهم الدروس. لكني كنت ألجأ إلى الصلاة، ولفرط حزني من جرّاء فشلي، كنت أصلّي إلى الله بحرارة سائلاً إياه أن يمنحني الفهم. وأتذكر كيف، لوهلة من الزمن، سَقط وشاح عن ذهني وابتدأت أفهم الدروس".

وعندما بلغ الصبيّ العاشرة من عمره، سنة ١٨٣٩، أُرسل إلى مدرسة الرعيّة في أرخنجلسك، وهناك واجهته من جديد صعوبات الدراسة. ويتابع الأب يوحنا قوله: "كان معاش والدي زهيداً، لذلك كانت معيشتنا صعبة للغاية. وأدركت الصعوبة الماديّة التي يواجهها والديّ، لذلك بدا لي جلّياً أنَّ عدم قدرتي على التحصيل المدرسي كارثة حقيقيّة. قلّما شغلني هاجس التعلّم بالنسبة للمستقبل، بل بالأكثر كانت معاناتي تدور حول واقع كان فيه والدي ينفق آخر مدخراته عليّ دون جدوى".

"ولّما كنت وحيداً أثناء إقامتي في أرخنجلسك، مقطوعاً عن أهلي، كان عليّ أن أواجه هذه الصعوبات منفرداً. لم أجد بين زملائي في الصف معيناً وأنا لم أطلب مساعدة أحدهم: كانوا جميعاً أكثر موهبة مني، وأنا كنت آخرهم في الصف. حينئذ التجأت إلى الإله العليّ، فحصل تغيير داخل نفسي.... وقعت على

ركبتيَّ وابتدأت أصلي بحرارة. لا أذكر كم مرّ عليّ من الزمن وأنا في هذه الوضعيّة. وفجأة، وكأنّ غشاءً أُسقط عن عينيّ، استيقظ ذهني وتصورت أمامي الأستاذ والدرس، وبدأت أفهم ما كان يتحدّث عنه. خفّ عني العبء، وشعرت روحي بالراحة والفرح. لم أخلد يوماً إلى النوم مرتاحاً كما حصل معي في تلك الليلة. وعندما بزغ الفجر، قفزت من سريري وتناولت كتبي ويا للفرح! ... كنت أقرأ بسهولة وأفهم كلّ شيء...".

"تحسن وضعي في الصّف. كنت أفهم كلّ شيء وأتذكّره، وفي وقت قليل أحرزت تقدّماً ملحوظاً بحيث ما عدت الأخير في الصف. ومع مرور الوقت كنت أزداد إجتهاداً، فلم أُنهِ دراستي إلاّ وقد صرت أفضل الطلاّب، وأُرسلت على هذا الأساس إلى المدرسة الإكليريكيّة وكنت على رأس المتخرّجين منها سنة ١٨٥١. وأرسلت لاحقاً إلى الأكاديميّة اللاهوتيّة في بطرسبرج بمنحة حكومية".

إنّ هذين الحدثين، كما وصفهما لنا الأب يوحنا كرونشتادت نفسه، إذ هزم بجدّة صلاته صعوباته الدراسية، لهما شبهٌ أكيد في حادث مماثل من حياة الشاب برثولوماوس الذي صار، في ما بعد، القديس الروسي الكبير سرجيوس رادونسكي.

لقد أوردنا تقريباً المقاطع بكاملها كما جاءت في سيرته الذاتيّة، حيث ورد الحديث عن قوّة صلاته في طفولته، وذلك لأنَّ الحدث المشار إليه كانت له انعكاسات أساسيّة على حياته الصلاتيّة، بالإضافة إلى أنّه يدرك ملياً الأهمية الكبيرة لهذا الحدث أيضاً.

-٤-

كما رأينا، إنَّ الصبيَّ إيفان سرجييف منذ عام ١٨٣٩، وهو ابن عشرة أعوام، ابتدأ يعيش معظم وقته بعيداً عن بيته الأبويّ. في البَدء كان في مدرسة الرعيّة في أرخنجلسك وفي ما بعد في المدرسة الإكليريكيّة. في تلك الأيام، بغياب القطار، لم يكن التنقّل بين سورا وأرخنجلسك سهلاً على الإطلاق. لا بدّ أنّ عبور تلك المسافات قد ترك لدى الصبي انطباعات عميقة. في الصيف كان يعود

إلى بيته لقضاء العطلة فكان يعبر القسم الأعظم من الطريق، أي بضع مئات من الفراسخ، حافي النعلين للتوفير ولعدم استهلاك جزمته التي كان يحملها على ذراعيه أو على ظهره... كان يتقدّم وسط الجبال، الأودية، دون أن يصادف وجه إنسان...

لا بدَ أنّ هذه الرحلات قوّت محبته للطبيعة ومقدرته على معاينة الله من خلالها، بالإضافة إلى عادة الصلاة الدائمة. وهي، إلى ذلك ودون أدنى شكّ، مدّتهُ بالصحة والثبات والإرادة.

وبسبب الفقر المدقع لمدرسة الرعيّة، ولّما كان أغلب الطلاب شديدي الفقر، كان عليهم التفتيش في الدوائر الحكومية عمّا يلزمهم من أدوات الكتابة، الأمر الذي دفع بالصبي يوحنا إلى التفكير مراراً بفقر والديه، وقد ترك في نفسه حزناً أليماً.

قليلة هي المعلومات المتوفّرة عن الأب يوحنا كرونشتادت أثناء إقامته في الإكليريكيّة. المعروف أنّه كان يدرس بجدّ كبير وصار أوّلاً في نهاية الدراسة، وكان في الوقت عينه رئيساً لجوقة الأبرشيّة، وهذه الجوقة، وفق ما أورده كاتب سيرة حياة الأب يوحنا، كادت أن تقضي عليه هو نفسه، لأنها كانت تتألّف من "أسوأ الفوضويين والسكارى من طلاب الإكليريكيّة". على كل الأحوال، لم تكن هذه تجربته الوحيدة، فحسب بعض المصادر، لم يكن المستوى الخُلُقيّ في إكليريكيّات ذلك الزمان دوماً مثالياً. يتضح لنا من خلال مدوّنات الأب يوحنا أنّه كابد معارك روحيّة قاسية مع التجارب، تلك التجارب التي كان مصدرها العالم الخارجي. وإذا ما كتب له النجاح في تلك المعارك، فإنّ الأمر يعود إلى الطيبة والصلاح اللذين تشرّبهما أثناء أعوام الطفولة من خلال تربية والديه. وقد عبّر عن ذلك بقوله:

"على قدر ما أستطيع التذكّر، فإنه منذ أعوام طفولتي المبكّرة، منذ الرابعة من عمري أو السادسة، غرس والداي فيّ عادة الصلاة، وبمثالهما جعلا مني ولداً لله".

بالإضافة إلى التربية البيتيّة، فإنّ الإنجيل كان دعامة أخرى لذلك الطالب اليافع، خصوصاً مذ بدأ يقرأ بحريّة وسهولة. مرّة قال للأم الرئيسة تايسيّيا:

"أتعرفين ما الذي ثبّت أساس عودتي إلى الله، وما الذي ندّى قلبي بالحب نحوه، وأنا لازلت بعد في طفولتي؟ كان الإنجيل الشريف. كان والدي يملك كتاب العهد الجديد باللغة السلافونية وكنت أعشق قراءة هذا الكتاب المدهش خلال أيام عطلتي المدرسيّة حينما أعود إلى البيت. أسلوبه وبساطته جعلاه في متناول منطقي الطفولي. قرأت الأناجيل، فرحت بها ووجدتها عزاءً لا بديل عنه. هذا الإنجيل كان بحوزتي في الأكاديميّة. وأستطيع القول إنّه كان رفيق طفولتي ومعلّمي ومرشدي ومعزّيَّ، وإني اعتدته منذ سنيّ المبكّرة".

-٥-

دخل إيفان سرجييف أكاديمية بطرسبرج اللاهوتيّة سنة ١٨٥١، وفي السنة عينها رقد والده وقد بلغ الثامنة والأربعين من عمره، فوقعت عليه مسؤوليّة إعالة والدته وأُختيه. فحاولت إدارة الأكاديميّة مساعدته. وإذ عُرف بخلقه الحسن وخطّه الجميل، عرضت عليه الإدارة منصب كاتب في مركز إدارة الأكاديميّة، على أن يكون معاشه الشهري تسعة روبلات. قَبِل هذا المنصب بامتنان كبير، ومنذ ذلك الحين صار يرسل معاشه إلى عائلته.

وعلى ما يبدو فإنّ منصبه هذا لم يكن مثقلاً بالأعمال الكثيرة. جميع الذين كتبوا سيرته يجمعون على التعبير عن رضى إيفان بمنصبه هذا، سيّما وأنه ثمّن غالياً الوقت الحرّ والوحدة اللذين وجدهما أثناء مزاولته العمل، فكان يستغلّ الوقت في الصلاة وقراءة الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة. وقد أحبَّ بشكل خاص القدّيس يوحنا الذهبي الفم. ويخبرنا عن ذلك الأب المتوحّد مخائيل:

"حصل له مرة، أثناء أعوام الدراسة، أنّه ابتاع تفسير إنجيل متى للقديس يوحنا الذهبي الفم. كان فرحه لا يُعبّر عنه. بدا له الأمر وكأنه يحمل في ذراعه كنز الكنوز".

هناك شهادات مختلفة تحدّثنا عن محبة الطالب إيفان سرجييف للجلوس في حديقة الأكاديميّة والصلاة هناك. عادةُ الصلاة تحت قبة السماء رافقته طيلة حياته وكانت علامة مميّزة له.

كان ينضم إلى زملائه الطلاب في مناقشة مواضيع هامة، لكن لم يكن له أصدقاء حقيقيون وبقي دوماً وحيداً صامتاً. من بين المواضيع التي كانت على بساط بحثه رغبته في أن يصير مبشّراً رسوليّاً في أقصى المسكونة، وكانت أفكاره تحدثه بشكل رئيس عن الصين.

خلال سنته الدراسية الرابعة في الأكاديميّة، عاش أزمة نفسية، عبارة عن كآبة قصوى دون أن يكون لها أساس ظاهري. ويخبرنا الأب المتوحّد مخائيل عن الأب يوحنا أنّه واجه هذه الأزمة بالصلاة بشكل رئيس. ورويداً رويداً تجاوز الأزمة إلى غير رجعة.

-٦-

بشكل عام، نستطيع القول إن دراسته، على رغم كلّ الجهد الذي بذله، انتهت بنجاح معتدل غير باهر. ومهما يكن من الأمر، فإنّ مؤلفاته تُظهر لنا فكراً لاهوتياً واضحاً دوماً. يعود ذلك، على الأرجح، إلى قضائه الوقت في الأكاديميّة. يحدثنا بكثير من الامتنان عن المعرفة التي اكتسبها أثناء إقامته هناك فيقول:

"رغم ضعفي الجسدي، فقد أنهيت مراحل الدراسة الثلاث ــ الابتدائية، الثانوية والإكليريكيّة ــ وطوّرت قوى نفسية ثلاثاً: العقل والقلب والإرادة. الأكاديميّة، كمرحلة تربوية عليا، لها عليّ فضل كبير. فاللاهوت، الفلسفة، التاريخ ومواد أخرى كنّا ندرسها باستفاضة وعمق، نقّت أفقي ووسّعته وصرتُ بنعمة الله، أدخل إلى عمق النظرية اللاهوتيّة وصلبها. وإذ كنت قد قرأت الكتاب المقدس والعديد من أعمال الذهبي الفم وفيلاريت (موسكو) وغيرهما من كبار رجال الكنيسة، صرت أشعر بميلي نحو الكهنوت وتضرّعت إلى الله أن يهبني نعمة الكهنوت ورعاية الخراف الناطقة".

ويحدثنا الأب يوحنا عن عطشه للمعرفة الدينية في بدء مذكراته التي كتبها تحت عنوان "حياتي في المسيح":

"يا ربيّ، لقد غمرتني بغنى حقيقتك التي كشفتها لي... عرفتُ كلمتك... عرفتُ حبك... لقد علّمتني القوانين التي تتحكم بالمنطق البشري وبالفلسفة، وبعلم الكلام... قد كشفتَ لي أسرار الطبيعة ونواميسها... لقد عرّفتني بأمم مختلفة ومشاهير الناس... أدخلتني إلى هذا العلم الرفيع، علم معرفة الذات والاقتراب منك. باختصار، عرفتُ الكثير الكثير، وأمامي أيضاً الكثير لأعرفه. لديّ الكثير من الكتب. قرأتُها وأعدتُ قراءتها ومازلتُ غير راضٍ، غير قانع. مازالت روحي عطشى إلى المعرفة، مازال قلبي جائعاً رغم تحصيلي كل تلك المعارف العقلية، فإنّ قلبي مازال ينتظر الملء! لكن متى سيتحقق هذا الملء؟ سيتمُّ ذلك عندما "بالبرّ أنظر وجهك، أشبع إذا استيقظت بشبهك(مز ١٦(١٧) : ١٥)".

من هذه الكلمات نتيقّن أنّه في أساس ما يطمح إليه الأب يوحنا يكمن عطشه الدائم إلى الاتحاد بالله. طموحه هذا لم يمنعه من تنمية مواهبه العقليّة . كان يبحث عن نموّ متجانس، شاكراً الله على كلّ المعارف التي اقتناها.

-٧-

من الصعب تحديد المواضيع التي كانت أقرب إلى قلب الأب يوحنا من بين تلك التي تعلّمها في الأكاديميّة. من المعروف أنّه كان يصغي إلى المحاضرات بانتباه وأنّه كثيراً ما كان يصفّق بحماس ولكن بشكل أساسي حين كان الأمر يتعلق بشواهد آبائيّة.

برامج الدروس الأكاديميّة في ذلك الوقت كانت واسعة وشملت، بالإضافة إلى اللاهوت، الفلسفةَ والتاريخَ واللغاتِ القديمةَ والآداب والفيزياء والرياضيات واللغات الحديثة. لم يزدر الأب يوحنا، في حديثه لاحقاً عن خلق الكون، معطيات علوم عصره، وعلى سبيل المثال، علم الفلك.

من بين مشاهير الأساتذة الذين علّموا في الأكاديميّة في تلك الحقبة، الناظر

ودكتور القانون الكنسي الأسقف يوحنا سوكولوف، الذي صار في ما بعد عميداً للأكاديميّة اللاهوتيّة في كازان (Kazan). وأيضاً نذكر الأسقف الدكتور كيرلس نوموف الذي صار لاحقاً من عداد البعثة الروسيّة في أورشليم، وعلّم الأخلاق واللاهوت الرعائي. ونوّه بشكل خاص بالأب المتوحّد نيكانور بروفكوفسكي الذي صار لاحقاً أسقفاً على خِرسون، وعَلّم اللاهوت المقارن، ومن المشكوك فيه إذا ما كان ثيوفان غوفوروف علّم بينما كان الأب يوحنا طالباً. ومن المعلوم أنّ اسمه مدرج على لائحة نُظّار الأكاديميّة منذ عام ١٨٥٥، وصار لاحقاً مشهوراً كأسقف فيشا (Visha) ثيوفان الحبيس.

بالرغم من هذه الشخصيّات الأكاديميّة الشهيرة واتساع المناهج التعليميّة فإنّه، على حدّ قول الأستاذ بونوماريف: "منذ سنة ١٨١٤، كانت تسيطر على الأكاديميّة الروح السكولاستيّة ونفوذ مكاريوس بولغاكوف". والطالب إيفان سرجييف واجه مع هذا العميد، أي بولغاكوف، في مادة العقائد، والأستاذ لوتشيتسكي في مادة المنطق وعلم الجمال والأخلاق، صعوبات متنوّعة أثناء فترة الامتحانات.

تخرّج الأب يوحنا من الأكاديميّة سنة ١٨٥٥ حاملاً إجازة في اللاهوت وكان في الدرجة الخامسة والثلاثين من بين الخرّيجين التسعة والثلاثين في السنة الأكاديميّة الحادية والعشرين من تاريخ الأكاديميّة. بقي على صلة صداقة قوية مع الأكاديميّة، وكان يزورها باستمرار وقد كتب أحد أساتذتها المتقدّم في الكهنة أ. برونزوف في رثاء الأب يوحنا ما يلي: "أتذكر بأيّة بساطة كان الأب يوحنا يتصرّف أثناء زياراته للأكاديميّة، وبأية مشاعر كان يستعيد، في مكتب الناظر، ذكرى أيام دراسته فيها.... كان يعتبر نفسه محظوظاً لكونه درس في الأكاديميّة". وحسب كلمات الكاتب نفسه، نرى أيّة مشاعر كانت تقابل زيارة الأب يوحنا: "أتذكر أنّه، منذ ظهوره داخل الأكاديميّة، كان الطلاب يلتفّون حوله، يحملونه ويدخلون به إلى قاعة المحاضرات أو إلى صالة الطعام داعين إياه لمشاركتهم وجبة الغداء".

وينهي برونزوف رثاءه على الوجه التالي:" أَوَ ليس من حق الأكاديميّة أن تفتخر، وكثيراً جداً، بأنّه كان لها شرف تخريج كوكب كنيسة المسيح هذا الذي

انتخبته لاحقاً عضو شرف؟ إنّ نور الأب يوحنا كان ساطعاً إلى ذلك الحد الذي بات معه الشعب، في كلّ مرة يُقلّد فيها أحد الآباء جائزةً، يهتف: "هوذا أب يوحنا آخر".

الفصل الثاني

بداية الحياة الكهنوتية

-١-

أثناء السنة الدراسية الأخيرة في الأكاديميّة تخلّى إيفان سرجييف عن حلمه أن يصير مبشّراً رسوليّاً بين الوثنيّين. فقد أدرك أنّ شعبه كان بحاجة قصوى إلى نور الإنجيل.

ونضج أخيراً قراره في الحياة والعمل في روسيّا حين عُرض عليه تعينه كاهناً في كاتدرائية كرونشتادت للقديس أندراوس الرسول، المدعوّ أولاً. فقد كان على القيّم على الكاتدرائية، المتقدّم في الكهنة قسطنطين نسفستسكي، أن يتقاعد نظراً لتقدّمه في السن، كما أنّ تقاليد ذلك الزمان قضت، أنّ الرجل الذي يقبل أن يتخذ ابنته زوجة له، سيكون الخلَف المرحّب به. وإيفان سرجييف قَبِل العرض وتزوّج ابنة المتقدّم في الكهنة واسمها أليصابات قنسطنتينوفنا .

وما دفعه الى قبول ذلك الوضع واتخاذ القرار، كان ذاك الذي يرى كل شيء، بعبارة أخرى، كان الدافع تحقيق إرادة الله. فقد حدث له مرّة، أثناء إقامته في الأكاديميّة، أنّه رأى في الحلم كاتدرائية كبيرة، وشاهد نفسه داخلاً إلى الهيكل من الباب الشمالي وخارجاً بعد ذلك من الباب الجنوبي. وعندما زار ايفإنّ سرجييف كاتدرائية كرونشتادت للمرّة الأولى، عرف فيها حالاً الكنيسة التي شاهدها في الحلم. ساعتها أدرك أنّ الله نفسه قد دبّر له أن يعمل في هذا المكان.

في الحادي عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٥٥ شُرطن شمّاساً، وفي اليوم التالي سيم كاهناً. حصلت السيامة في كاتدرائيّة القديسين بطرس وبولس في مدينة بطرسبرج بوضع يد الأسقف خريستوفورس فينيتسكي .

-٢-

قال الأب يوحنا، في أول عظة ألقاها في كاتدرائية القديس أندراوس في كرونشتادت عند استلامه مسؤوليّاته:

"أعي جيداً عمق المهمّة الملقاة على عاتقي والواجبات المرتبطة بها . أشعر بضعفي وعدم استحقاقي في إتمام أسمى خدمة على وجه الأرض... لكنّني أعرف أنّ ما يمنحني القوة والاستحقاق بشكل من الأشكال إنّما هو المحبة نحو المسيح وكلّ البشر. المحبّة هي قوّة عظيمة تصيّر الضعيف قويّاً والصغير كبيراً. هذه هي ميزة المحبّة النقيّة، المحبّة الإنجيلية. عسى الله، الذي هو ملء المحبة، أن يهبني لمسة من محبّته ويضرمها ناراً في داخلي بنعمة الروح القدس".

وفي سياق حديثه، شرح أنّ المسيح "هو رئيس الكهنة الوحيد، الأوّل والأخير. هو نفسه يتمّم بواسطتنا الخدمة الكهنوتيّة... أي إنسان زائل يستطيع أن يبلغ إلى علو نعمة الكهنوت وقداستها؟".

وينهي عظته بجذبه الانتباه إلى قوّة الروح القدس: "إنّه روح محبة الله التي لا نهاية لها، الحاضر في كل الصلوات والمتمّم سائر الخدمة الكنسيّة".

هذه العظة تظهر لنا، بشكل جليّ، كيف فهم الأب يوحنا كرونشتادت واجباته الكهنوتيّة، وفيها نجد مخطّط ما سيكون عليه نشاطه المستقبلي.

أقواله هذه مقتطفات من سيرته الذاتيّة التي يوضح في نهايتها كيف ابتدأ ـ على وجه التدقيق ـ التحقيق العملي لغاية الكهنوت:

"منذ الأيّام الأولى لهذه الخدمة السامية في الكنيسة، قطعت على نفسي عهداً أن أكون صادقاً على قدر المستطاع في عملي الكهنوتي وفي إتمامي الخدمة الليتورجيّة، وأن أحرص بشكل صارم على نفسي وعلى حياتي الداخليّة،

ووضعتُ نصب عيني تحقيق هذا الهدف. بادىء بدء، باشرت قراءة العهدين القديم والجديد والتعلّم منهما. تلمذت نفسي عليهما ووجدت فيهما كلّ الإفادة لي، كإنسان وككاهن وكعضو في المجتمع. بعدها، صرت أحتفظ بمذكّرة يوميّة أُسجّل فيها ما أخوضه من معارك مع أفكاري السيّئة وشهواتي، وما كانت عليه مشاعر توبتي، صلواتي السرّية إلى الله، مشاعري بالامتنان لخلاصي من التجربة والحزن والمصائب. كنت أعظ في الكنيسة، أيام الآحاد والأعياد، مستخدماً كلمات وتعابير من صياغتي أو من عظات المطران غريغوريوس. بالإضافة إلى التعليم الديني، عمدت منذ البداية إلى الاعتناء بالفقراء. ولما كنت أنا نفسي فقيراً في وقت سابق، أخذت على عاتقي تنفيذ تصوّري في تأسيس بيتٍ للعمّال الفقراء في كرونشتادت، وبعون الله وُفّقت إلى تحقيقه!"

أما كاتب سيرته الأب المتوحّد مخائيل، وهو أستاذ مساعد في أكاذيميّة بطرسبرج اللاهوتيّة، فيعدّد لنا الوسائل الأساسيّة التي اعتمدها الأب يوحنا في سبيل تقدّمه الذاتي:

١- الوجود في البيت قدر المستطاع.
٢- دراسة الكتاب المقدس وإعادة دراسته.
٣- قراءة كتب حول الخدم الإلهيّة.
٤- زيادة الصلاة الشخصيّة وخاصّة السهرانات بذكر دائم لاسم يسوع ، بتعبير آخر ممارسة "صلاة يسوع".
٥- تتميم الواجبات الرعائيّة بضمير حيّ.

لم يكتف الأب يوحنا بهذا البرنامج، فحسب ما أورده المتقدّم في الكهنة سرجيوس تسفريكوف، "أضاف إلى هذه الوسائل التي ابتكرها، ليقوى في الروح، مهمّة إقامة القداس الإلهي كلّ يوم".

لم تكن حاجته إلى إقامة القداس الإلهي يوميّاً واضحة منذ البداية، ولم يكن في مقدوره إتمام رغبته المباركة هذه: " لم أكن أُقيم القدّاس الإلهيّ يوميّاً في سنتي الأولى من الخدمة ولهذا السبب صرت ضعيفاً في الروح... في وقت لاحق، صرت

أشترك في الأسرار الطاهرة كلّ يوم".

أمّا من جهة البرنامج الذي وضعه لنفسه، فقد اضطر في وقت قصير إلى عدم الالتزام ببنده الأول، أي قضاء ما استطاع من الوقت في البيت، إذ لم يكن يتبقّى له، بعد إتمامه عمله الرعائي، سوى ساعات قليلة مسائيّة يقضيها في البيت.

وتجب الاشارة هنا إلى أنّ الأب يوحنا قرّر، بعد زواجه، أن يعيش زواجه بتولاً وأقنع زوجته أن تكون أختاً له. وحسب بعض المعلومات المتوفّرة، فإنّ زوجته لم تقبل هذا الوضع في الحال، واشتكت إلى السلطات الكنسيّة ولكنّها، في وقت لاحق، قبلت بالأمر وصارت للأب يوحنا مثال الصديق المضحّي والمساعد وهي كانت دوماً تدعوه " الأخ يوحنا "[٩].

-٣-

بقي الأب يوحنا في داخله أميناً لذاته وللأهداف التي سعى إليها، لذا اضطُرّ عاجلاً أن يغيّر أسلوب معيشته الذي بدا للجميع منطقياً وعادياً حتى ذلك الحين... اتخذت حياته منحىً جديداً بحيث صار يدعى "الغريب الأطوار" أو "المتباله لأجل المسيح". كان مرّات كثيرة أضحوكة الناس، الذين كانوا يهزأون به ويعيّرونه علناً بأنّه مجنون. وبلغ به الأمر حدّ تحرير تقارير تدينه من قبل المسؤولين عنه مباشرة، حتى إنّ السلطات الكنسيّة العليا أمرت بالتحقيق في شأنه. في تلك الفترة فاق عددُ أعدائه عدَدَ أصدقائه.

وقد حصل كلّ ذلك بسبب فكرة خطرت له من بين أفكاره السامية، وقد عبّر عنها لاحقاً بالشكل التالي: " كل شيء في حياة الإنسان المسيحي ينبغي أن يكون مختلفاً، يجب أن تكون له أفكار مختلفة ـ مقدسة، رغائب وميول مختلفة ـ سماويّة وغير دنسة، أفراح مختلفة ـ سامية وإلهيّة، غنى مختلف ـ نفسي وطاهر، كلمات وأحاديث مختلفة ـ سماويّة، أصدقاء مختلفون ـ أصدقاء الروح وليس الجسد".

---

٩ ـ وردت عند شوستين (O.V. Schustin) وعند الأب المتوحد مثوديوس وعند الأب المتوحد مخائيل.

بالإضافة إلى مبادئه الروحيّة، فإنّ العنصر الخارجي الذي دعاه إلى هذا التغيّر في حياته إنّما هو رعيته الناطقة التي دُعِي لرعايتها، أي مجمل سكان كرونشتادت.

-٤-

تقع كرونشتادت على جزيرة كوتلين (Kotlin) في الخليج الفنلندي. كانت في تلك الأيّام قاعدة عسكريّة بحريّة - إذ هي تحمي مدخل عاصمة الشمال الروسي بطرسبرج - وكانت أحد مراكز البحريّة الروسيّة. ليس هذا وحسب، بل أيضاً، لأسباب مختلفة، كانت المكان الذي أقصت إليه الإدارة التنفيذية العديد من المحكوم عليهم، من المتسولين والمومسين والمجرمين وأغلبهم من الطبقات الدّنيا.

هكذا اجتمع في كرونشتادت عدد كبير من هؤلاء الأشخاص وقد عرفوا "بالمستوطنين" وعاشوا أوضاعاً صعبة للغاية في ضواحي المدينة في أكواخ خربة أو زرائب.

ويستشهد الأب المتوحّد مخائيل بكلمات الكاتب كنوغلوف فيقول: "كانت هذه الأماكن رهيبة إلى حد كبير. هناك توجد الظلمة والقذارة والخطيئة.... حتى ابنة سبع سنوات يمكن أن تكون متهتكة وسارقة".

كان هؤلاء يعيشون من التسول والسرقة، ونادراً بواسطة عمل منتظم. لم يكن من الآمن التجوّل في طرقات المدينة وشوارعها ليلاً.

أدرك الأب يوحنا على الفور أنّ هؤلاء أيضاً قسم من الرعيّة التي ائتمنه الله عليها، وعليه أن يقدم حساباً عنها أمام الديّان العادل... فلم يفقد شجاعته أمام "قذارتهم الماديّة والخُلُقيّة". ولا بد أنّ تعاطفه الأول كان ناحية الطفولة البريئة، ضحيّة الأوضاع الرهيبة في البيئة التي عاشوا فيها.

مهما يكن من أمر، فإنّ الأب يوحنا استطاع أن يقيم جسر اتصال بهذه البيئة من خلال الأولاد. أحب الأولاد دوماً بشكل خاص - على الأرجح لأن صورة الله كانت

فيهم أكثر وضوحاً منها عند الكبار ـ رغم أنّهم لم يكونوا بريئين في ما كانوا يفعلونه؛ لكن على المرء أن يلاحظ صدقهم وبراءَتهم من الحقد.

قد يتساءل أحدهم: "أليس هناك ارتباط بين محبة الأب يوحنا للأولاد وفكره اللاهوتي الرئيس المتعلّق بصورة الله في الإنسان؟" قد نجد الجواب عن ذلك في مقطع من عظة ألقاها الأب يوحنا: "الآن نستطيع أن نرى أجزاء فقط من إبداع صورة الله الأولى في الناس... نستطيع أن نميّز هذا الإبداع بشكلٍ خاص عند الطفولة البريئة وعند قديسي الله".

هكذا بدأ الأب يوحنا بإظهار لطفه أوّلاً تجاه أولاد الفقراء في كرونشتادت، وفي مرتبة ثانيّة أتى إليه البالغون. ومع مرور الزمن، اعتاد حضوره الكبار والصغار على حد سواء، فصار يحدّثهم خارج المدينة، في المروج المحيطة بها. كان الأولاد يتحلّقون حوله، أما الكبار فكانوا يجلسون أو يبقون واقفين... وما هو إلاّ وقت قصير حتى صار الفقراء يدعونه إلى منازلهم. إلا أنّ هذه الخطوة لم تحصل فوراً في البدء، إذ كانت هذه الجموع تقاوم مبادرته وتنظر إليه مشكّكة به، متحاشيّة محاولاته الاتّصال بها.

في أكثر الأوصاف عن حياة الأب يوحنا، نجد هذه الحادثة النموذجيّة لرجلٍ حرفيّ، نوردها بشكل مختصر: "عدت مرة إلى منزلي ثملاً... شاهدت كاهناً شاباً جالساً على كرسي حاضناً ابني الصغير ويتحدّث إليه بشكل لطيف. كنت أرغب في أن أشتمه وأقول له: "لأجل ماذا أنت متسكّع هنا؟" لكنّ نظرات الكاهن الهادئة والجدية منعتني. كانت تنظر مباشرة في قلبي... وعندها بدأ يتحدث. لا أستطيع أن أسرد كلّ ما قاله. قال إنّ الفردوس داخل بيتي لإنّه حيث يوجد الأولاد هناك يوجد الفردوس. وأردف قائلاً: من الجائر استبدال هذا الفردوس بالتسكّع داخل الحانات. لم يتّهمني على الإطلاق بل عذرني في كلّ شيء، لكني لم أكن أهتمّ بالأعذار. بعدما غادر المنزل، جلست صامتاً... لم يكن باستطاعتي البكاء، رغم أنّ روحي كانت وكأنّها تبكي. نظرت إليّ زوجتي بشيء من الدهش... ومنذ ذلك الحين عدت لأكون، مرّة أخرى، كائناً بشريّاً".

هناك حادثة أخرى: ترمّل تاجر وبقي له ابنه الصغير. إلا أنّ الحزن قاده إلى السكر... فبدأت أحوال تجارته تنقلب إلى الأسوء.. ودون أن يعي نفسه صار شرّاب خمر. صادف مرة الأب يوحنا في الشارع، فأعلمه هذا الأخير أنّه كان قاصداً زيارته. حينما بلغا البيت، عمد الأب يوحنا إلى إقناعه بالتوقّف عن معاقرة الخمر وعدم التسكّع في الشوارع: " كنتَ في ما مضى كائناً بشريّاً ـ إفعل ذلك مرّة أخرى!" هذا ما قاله له الأب يوحنا. بهذه الكلمات نهض واقفاً، لبس البطرشيل وهيّأ نفسه للصلاة. "والآن، على سبيل انطلاقة جديدة، لنصلِّ معاً". وشرع بالصلاة باكياً لأجله. يقول التاجر: "بعدها باركني وولدي، ووعدنا بزيارة أخرى، ثم مضى... شعرت وكأنني أستيقظ من حلم ثقيل استغرق طويلاً، حتى أنّ مسكننا صار لي أحبَّ منه في السابق. حضنت ولدي ودموع التوبة تذرّف من عيني... تحسّنت أحوال تجارتي خلال سنة وعدت لأكون كائناً بشريّاً من جديد".

كان الأب يوحنا، منذ بداية عمله الرعائي، يتجاوز حدود رعيته إلى أشخاص لم يكونوا ينتمون إليها. كثيراً ما ترددت هذه الحادثة على أيدي الذين اهتموا بكتابة سيرة حياته .

شابة يافعة غمرها الحزن الشديد لأسباب مختلفة فراحت تخطّط للانتحار. فقدت والدتها ووجدت نفسها وحيدة في الكون. في أحد الأيام، لسبب من الأسباب، صودف وجودها في كرونشتادت. جلست على أحد المقاعد في الحديقة العامة. وبينما هي مستغرقة في أفكارها السوداء، اقترب منها كاهن تجهله وجلس على الطرف الآخر من المقعد. وتقول الفتاة: "كنت أرغب في النهوض والرحيل، لكنّ ذلك الكاهن منعني قائلاً: "أنا آسف، لكني لا أستطيع أن أرى مزاجك السيِّئ، وكوني كاهناً، أشعر بوجوب التحدّث إليك... حدثيني عن حزنك، قد يغدق الله عليك بالراحة والعزاء من خلالي أنا الخاطىء". رحت أبكي بمرارة، ولم أستطع أن أُعبّر عن شيء سوى شعوري بعدم السعادة وتفاهة العالم. فأجابني الكاهن: "لا تستطيع حكمة الله أن تخلق أموراً تافهة". فلم تستطع الفتاة أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك وفتحت قلبها للأب يوحنا، ونقلت بعدها أنه حدّثها بصدق ومحبة أبويّة... وهو لم يفصح لها عن اسمه. إلاّ أن أنسباءها، عند سماعهم ما

جرى، أخبروها أنّ هذا الكاهن لا بدّ من أن يكون الأب يوحنا.

أمّا اهتمامه الروحي بفقراء كرونشتادت، الذين تعهّدهم منذ بداية عمله الرعائي، فما كان ليأتي ثمره لو أنّ الأب يوحنا لم ينتبه لحاجاتهم الماديّة أيضاً. وهذا السبب عينه، هذا الهم الذي حمله في قلبه والذي اتخذ أبعاداً مختلفة، حمل الكثيرين على نعته بالمجنون وعلى معاداته في وقت لاحق. منذ البداية كان الأب يوحنا يساعد من مدخوله المحتاجين، لدرجة أنّه لم يبقَ معه ما يكفي حاجات بيته الأساسيّة. وبناء عليه، لمّا أصبح مدرِّساً للتعليم الدينيّ، لم يكن أمين الصندوق يعطيه معاشه، بل كان ينقده لزوجته. بعض كتّاب سيرته الذاتية يفيد أنّ هذا الأمر كان وفقاً لإرادته، أمّا بعضهم الآخر فكان يفيد عكس ذلك.

بعض هؤلاء يذكر كم مرّة عاد الأب يوحنا حافي القدمين، لأنّه سبق له أن صادف فقيراً فأعطاه حذاءه.

لم تقتصر مساعدة الأب يوحنا على نواحٍ ماديّة بسيطة، فهو كثيراً ما كان يشتري للفقراء تلك الأغراض التي هم بأمسّ الحاجة إليها مثل هؤلاء المقعدين الذين ما كان أحد ليهتم بهم، فكان يُحضِرُ لهم الطعام والطبيب، ويبتاع لهم الأدوية.

بدا تصرفه هذا خارجاً على المألوف، وكان تحلّق الفقراء حوله، وتعقّبهم إياه، يثيران اشمئزاز البعض.

السلطات وذوو النفوذ ما كانوا ليسرّوا بملاحقة الأب يوحنا إيّاهم من أجل حاجات الفقراء ومساعدتهم.

ما كان يكترث أبداً للسخرية والهزء بل كان يتابع طريقه. وعندما كان الناس يبادرونه كأنّه مجنون، كان جوابه الوحيد: "ليكن الأمر كذلك! فليعتقدوني مجنوناً!" وكان يبادر زوجته التي لم تفهمه في البداية، بالقول: "ليزا، هناك الكثير من العائلات السعيدة، وهي موجودة بأعداد كافية من دوننا نحن... أما أنا وأنت فلنكرس ذاتَيْنا لخدمة الله".

الفصل الثالث

الأعمال الإجتماعية والخيريّة

-١-

أدرك الأب يوحنا أنّ مساعدة فقراء كرونشتادت لا يمكن أن تتحقّق بصدقاته وحدها. لا شكّ في أنّه وعى حقيقة بعض النقد الذي وُجّه إليه، وبشكل خاص، أنّ تصرّفه شجّع أعمال التسوّل.

رغم كَلّ الجهود والمساعي التي بذلها، لم يستطع تنظيم عمليّة مساعدة جذريّة إلاّ بعد سبعة عشر عاماً من بداية عمله الرعائي. لأجل هذا الغرض، كان لا بد من وجود أشخاص يوفّرون المال أيضاً. ولكن الأب يوحنا، تمشياً منه مع التقليد المسيحي القديم، لم يحصر تفكيره فقط في من هم بحاجة إلى المساعدة، بل شمل هؤلاء الذين سيقدّمون المساعدة أيضاً. فهو يدرك جيداً أنّه ليس هناك أمر أنبل من أن يتعاضد الناس بعضهم مع بعض ويتعاونون في سبيل مساعدة الآخرين.

إذا ما قرأنا الدعوات التي وجّهها الأب يوحنا لسكان كرونشتادت، يتبيّن لنا جلياً أنّه كان يعتبرهم وفقراء المدينة مجتمعاً مسيحيّاً واحداً. وقد نُشرت هذه الدعوات سنة ١٨٧٢ في جريدة "كرونشتادت للأنباء". وإليكم بعض الفقرات النموذجية من ندائه الأوّل:

"من الذي لا يعلم بجموع الفقراء في كرونشتادت؟ إنّهم رجال، نساء وأولاد من مختلف الأعمار، من الطبقة الدنيا. أسباب فقرهم المدقع كثيرة. منها فقر منذ الولادة، منها فقر المنشأ في ميتم، منها فقر تأتّى من حوادث كالحريق أو

السرقة، منها الصرف من العمل أو العجز عن العمل بسبب المرض أو التقدّم في السن، ومنها أيضاً الكسل والضعف من جراء إدمان الكحول، وأخيراً وبشكل أساسي، نقص الأدوات والمعدات الأساسيّة للمباشرة بالعمل كالثياب اللائقة والأدوات والآلات. إلى هذه الأسباب يجب أيضاً إضافة الأسباب الخاصّة لتجمّع المتسوّلين في كرونشتادت".

كما يتبيّن لنا، فإنّ الأب يوحنا أدرك كلّ الأسباب العامة والخاصّة لهذا الفقر مبرزاً، بشكل خاص، تلك التي لها طابع اجتماعي. أمّا الحلول المناسبة لها فكانت تدابير يقتضي اتّخاذها على نطاق أوسع.

يوجه الأب يوحنا، في ندائه هذا، الدعوة إلى القارىء لمعاينة الأوضاع الرهيبة التي يعيش فيها فقراء كرونشتادت. ممّا كتبه في هذا الخصوص:

"أيسوغ لكم، يا أهالي كرونشتادت، منظر هذا الفقر المدقع، منظر هؤلاء المتسولين؟ لا تنفروا من مرآهم. لا يغب عن بالكم أنّهم أعضاء كنيستنا وأنّهم أخوتنا.

أيمكنكم تصوّر مساكنهم، أقبية تحت الأرض عفنة ورطبة؟ تصوّروا كيف يسكن ثلاثون أو أربعون أو حتى خمسون شخصاً في قبو واحد! رجال ونساء، عجائز وأطفال رضّع في أمكنة رطبة وقذرة، وهم على الأغلب شبه عراة وأقرب إلى الموت جوعاً".

ويتابع الأب يوحنا فيقترح "على كلّ مجتمع كرونشتادت، على الكنيسة، على الجيش، على المفكّرين والتجّار وسائر طبقات الشعب، أن يشكّلوا هيئة أو أخويّة على نمط ما هو معمول به في مدن أخرى، كبطرسبرج أو غيرها، وباتحاد الجهود، المضيّ في إقامة مساكن شعبية، أماكن إقامة للعمّال من الرجال ومدرسة مهنيّة للفقراء".

"لا تخشوا ضخامة مثل هذا المشروع، الله يعين ويهيّئ كلّ عمل خيّر وصالح. بمعونته كلّ ما هو ضروري سيكون في متناول اليد. وإذا ما كانت المدينة تقبل أن يتجوّل فيها كلّ هذا العدد من الفقراء ، فعليها واجب توفير فرص العمل لهم... آن الأوان للقيام بعمل جذري. فإمّا بيت للعمّال من الرجال، ومدرسة حرفيّة ـ مهنيّة

للأطفال وإمّا نقل عدد منهم إلى أماكن أخرى".

في ندائه الثاني، يستشهد بالرسول بولس فيقول: "يجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل ضعف الضعفاء ولا نُرضي أنفسنا (رو١٥ :١)". وبناءً عليه "فإنّ وجود مثل هذه الإمكانات في مجتمع كرونشتادت، مثل هذه المواهب، مثل هذا العدد من المثقفين، مثل هؤلاء المتمتّعين بالحيوية والصحّة، هو مسؤولية علينا، لأننا نخطىء تجاه الله وتجاه الناس إذا أهملنا مقداراً كبيراً كهذا من أعضاء مجتمعنا مغرّبين، مهمّشين ومحرومين من كلّ وسيلة للتقدّم... أكرر دعوتي للعناية بفقراء كرونشتادت، وتأمين مكان إقامة لهم وفرص عمل مناسبة تساعدهم في تأمين لقمة العيش والكساء. باسم المسيحية، باسم المحبّة والتعاضد الإنساني أدعوكم: هلمّ نساعد الفقير المشرّد. لا ننكرنّ معاضدتنا إياهم. لنبرهننّ أنّ محبّة الإنسان لأخيه الإنسان ما زالت موجودة، وأنّ الأنانية لم تتملّكنا. كم هو جيد ومناسب أن يوجد بيت للعمّال! في الحقيقة هذا الأمر سيساعد في رفع معنويات كثيرين. أمّا إذا كان أحدهم في صحة جيدة ويرفض أن يعمل، فمثل هذا لا مكان له هنا، بل يجب أن يبعد من هنا: كرونشتادت ليست مأوى للمتسكّعين".

إلى ذلك الحين، كان الأب يوحنا قد صار محترماً من قبل كثيرين من أبناء المدينة ومجلس "الدوما"، فأتى التجاوب مع ندائه سخياً وكافياً وإن بشكلٍ غير رسمي.

-٢-

مهما يكن من أمر، فقد انقضت تسع سنوات قبل وضع أساس هذا البناء. وقد تمّ ذلك سنة ١٨٨١. وجرى افتتاح "بيت العمّال" في ١٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢. قبل ذلك بسنوات قليلة، عام ١٨٧٤، جرى تأسيس "الهيئة الرعويّة" للاهتمام بالفقراء. وكان للقيّم على كاتدرائية كرونشتادت، السيد نيكيتين، دور حيوي في إنشاء هذه الهيئة وأبدى أيضاً اهتماماً كبيراً في تأسيس "البيت". تشكّلت "الهيئة الرعويّة" من أشخاص ينتمون إلى طبقات مختلفة، وأتى عملهم متضافراً ومنسجماً إلى حد كبير. فقد كانت القدرة على توحيد أشخاص من انتماءات اجتماعية مختلفة، في سبيل عمل

موحّد، إحدى ميّزات الأب يوحنا. وهو لم يكن فقط الزمام المبادر، بل وأيضاً الرأس المحرّك.

في الجلسة الافتتاحية "للهيئة الرعويّة"، ألقى الأب يوحنا كلّمة، جاء فيها:

"إنّ الهيئة الرعائيّة الكنسيّة مؤسسة تعود إلى القرون المسيحيّة الأولى، عندما كان الناس يتطلّعون بعضُهم إلى بعض بمحبة أخويّة وكانوا يتمّمون ذلك بحيث لم يبقَ بينهم إنسان معوز أو فقير: "إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كلّ الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات" (أع ٤: ٣٤).

ولما صار العمل في "بيت العمال" على وشك الانتهاء، اندلع حريق في ليلة من الليالي في أَحَد الملاهي المجاورة. وفي وقت قصير امتد الحريق إلى المنازل المجاورة ووصل أخيراً إلى البناء الجديد. كان الأب يوحنا يعاين، بقلق، الخطر والكارثة الآتيين وتوسّل إلى رئيس الشرطة المحليّة ـ غولوفتشيف ـ اتّخاذ الإجراءات المناسبة التي من شأنها منع الحريق من الامتداد إلى المبنى. إلاّ أنَّ توسله هذا لم يجد نفعاً، فالتهمت النيران المبنى برمّته.

تمرمر الأب يوحنا ممّا حصل، وبجدّيّة غير معهودة، تعرّض لغولوفتشيف دون أن يسمّيه بالإسم إذ قال: "لم يكن عدوّاً خارجياً من هاجمنا بالنار والسيف، بل هو عدو داخلي، سريّ، وقد تسلّح بأسلحة الخبث والمعاشرة الفاسدة وباللامبالاة تجاه المأساة المروعة التي وقعت علينا. وأنا أتحدث عن لامبالاة هؤلاء الأشخاص الذين علّة وجودهم وعملهم ليست سوى الخدمة والسلامة العامّة".

أمّا إنقاذ الموقف فيعود إلى بوليصة تأمين وإلى هبات جديدة أتت هذه المرّة من كلّ أنحاء روسيا.

أمّا غولوفتشيف فقد سيق إلى المحكمة متّهماً بأمور مختلفة. والأب يوحنا، الذي كان على اطلاع بنشاطاته المريبة، دُعي إلى المحكمة كشاهد فتغافل عن ذكر نشاطاته المريبة وسعى إلى لفت الانتباه إلى أعماله الحسنة. ولما توجّه إليه المدعي العام بالقول إنّ على الشاهد قول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، أردف الأب يوحنا قائلاً: "أنا أتحدّث ككاهن".

.وقد تركت هذه الحادثة انطباعاً كبيراً في المدينة في ذلك الحين، وعمد إلى ذكرها كلّ الذين اهتمّوا بكتابة سيرته الذاتيّة.

وأخيراً افتتح "بيت العمّال" سنة ١٨٨٢، وأهديَ البناء لذكرى القيصر ألكسندر الثاني، المحرّر، الذي اغتيل في العام السابق، أمّا الكنيسة التابعة له فكانت على اسم القديس ألكسندر نِفسكي.

-٣-

في أساس "بيت العمال" كانت مشاغل لتصنيع الخشب والورق، وفي سنة ١٩٠٢ بلغ عدد العاملين فيه ٧٢٨١ رجلاً. كانت تُسنَد للعامل الحديث أعمال سهلة ريثما يكوّن بعض الخبرة. لم يكن مطلوباً من أحد سوى حسن الإدارة. وكان إفساح المجال للأشخاص الذين فقدوا عادة العمل أمراً على درجة كبيرة من الأهميّة، لأنّ الغاية من ذلك خلق شعور حقيقي لديهم أنّ هناك فرصة مناسبة للعودة إلى العمل. أمّا الأولاد والمراهقون فقد أمكنهم تحصيل الخبرة الضروريّة، من الناحيتين المبدئيّة والتخصّصيّة، في المهن الحرفيّة والأعمال الصناعيّة.

وقد حوى "بيت العمال" الأقسام التاليّة، المختصة بالأولاد والمراهقين:

١- مدرسة ابتدائية مجانية، وقد تلقى فيها العلم، سنة ١٩٠٣، ٢٩٥ طالباً.
٢- مشغل حيث جرى تدريس التجارة بشكل أساسي. كان عدد الطلاب فيه ٦١ طالباً.
٣- صفّ للرسم لثلاثين طالباً.
٤- مشغل خياطة وحياكة وتطريز للنساء وعلى وجه الخصوص للفتيات بسعة ٥٠ شخصاً.
٥- مشغل أحذية.
٦- مكتبة للأطفال، وقد حوت ٢٦٨٧ مجلداً سنة ١٨٩٦.
٧- مجموعة زوولوجيّة (علم الحيوانات).
٨- مركز للتربية البدنية والرياضة.

٩ـ مكتبة للبيع.

أما البالغون فقد توفّرت لهم المواد والنشاطات التاليّة:

١ـ مدارس أحديّة ، توزّعت إلى مجموعات حسب مستوى التحصيل العلمي، وحوت سنة ١٨٩٧ ، ١٣٣ رجلاً و ٣٤ امرأة، معظمهم لم يبلغ العشرين من العمر.

٢ـ محاضرات دينيّة، تاريخيّة وأدبيّة رافقها في بعض الأحيان ترتيل كنسي. وقد بلغ معدل الحضور ، سنة ١٨٩٨، حوالى ٢٦٤ شخصاً.

٣ـ غرفة للمطالعة مفتوحة للأطفال. وقد شغف الأطفال بالمجلات المصوّرة إلى درجة بات ضرورياً معها تحديد مجلة واحدة للشخص الواحد وضمن ساعات المساء فقط.

٤ـ مكتبة إعارة وكان الرسم الشهري ثلاثين كوبك، وبَدَل تأمين بلغ روبلين.

وقد نشرت "الهيئة الرعويّة" كرّاسات حرّر أغلبها الأب يوحنا. وكان مدخول هذا النشر يغذي:

١ـ بيتاً للأطفال، أغلبهم من الأيتام، وحضانة للأطفال بسعة ٥٠ شخصاً.

٢ـ بيتاً قروياً صيفيّاً للأولاد.

٣ـ مأوى يسع ٨٤ رجلاً و ٢٤ امرأة مع كلّفة الإقامة لليلة واحدة مقدارها ٣ كوبك.

وإلى جانب كلّ هذا تجب إضافة العناية الطبيّة، الطعام المجاني والمنح. ففي سنة ١٨٩٦، تلقى ٢٧٢١ شخصاً عنايّة طبيّة مجانيّة. أمّا المطعم العمومي فكان يفتح أبوابه ١١ ساعة يوميّاً ويؤمّن بين ٤٠٠ و ٨٠٠ وجبة طعام يومياً. والبيت القروي الصيفي كان ينتج حاجته من الخضار.

اتخذت المساعدة التي كانت تقدمها "الهيئة الرعويّة" أشكالاً مختلفة: مالاً

نقدياً، ثياباً، أحذيّة، وأغراضاً أخرى. ولأجل المساعدة الحقيقيّة عمدت الهيئة إلى تقصّي الخلفيّات المعيشيّة للمحتاجين. كانت المساعدة النقدية تتراوح بين روبل واحد وعشرين روبلاً سنة ١٨٩١. طالت شهرة الأب يوحنا أرجاء روسيا فتدفّقت جموع الحجّاج إلى كرونشتادت فبني "بيت ضيافة الحجاج"، بقسمين، أحدهما مجاني، والآخر غير مجاني يسع ٤٠ سريراً. المعونات المقدّمة لم تكن تميّز بين دين أو عنصر وصارت كرونشتادت نموذجاً يُحتذى، فعمدت مدن أخرى، على رأسها بطرسبرج، إلى إنشاء مؤسسات مماثلة.

مثل هذه الأعمال الاجتماعيّة الخيريّة، والتي أُنجزت بمبادرة كاهن رعيّة، لم تكن مألوفة على الإطلاق، بل شكّلت حدثاً جديداً. فإذا كانت الأيّام السابقة لبطرس الكبير (١٦٨٢-١٧٢٥) قد عرفت رهباناً قديسين شهد لهم بالقداسة من جهة وبأعمال الرحمة من جهة أخرى، فإنّ عددهم قد قلّ كثيراً بين الرهبان، وقلّ أكثر بين كهنة الرعايا. ومثال الأب يوحنا فريد واستثنائي، لأنّ عمله ونشاطه الرعائي لم يمنعاه البتة من البقاء على الدوام في صلاة داخليّة وتأمّل روحي.

-٤-

لم يَعْنِ وجود "بيت العمال" على الإطلاق توقّف الأب يوحنا عن إحسانه الشخصي. بل على العكس فقد اتسع إطاره وكانت شهرته بالمقابل تزداد ويكثر تدفّق الهبات والمعونات عليه. كثيرون من الذين كتبوا سيرته الذاتيّة رأوا في ذلك تحقيقاً للوصيّة الإنجيلية: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلّها تزاد لكم" (متى ٦:٣٣).

من الصعب عدم التسليم بوجهة النظر هذه، بالإضافة إلى واقع آخر من نشاط الأب يوحنا حيث كانت "لا تعرف اليد اليمنى ما تفعله اليد اليسرى!"، فكان أحدهم يسلّمه وسط الجموع المحتشدة، ظرفاً يحوي مبلغاً من المال، من جهة، فيعطي ما استلمه للحين إلى شخص معوز، من جهة أخرى. يجمع الشهود على أن للأب يوحنا تمييزاً خاصّاً به ساعده في معرفة من هم أكثر حاجة للمال.

مع مرور الزمن، تدفّقت مبالغ هائلة من المال على الأب يوحنا (بعض كتّاب سيرة حياته يتحدث عن مئات الألوف من الروبلات). ويستطيع المرء تصوّر حجم هذه المبالغ من الواقع حيث كان "بيت العمال" يسير بالمال المرسل إلى الأب يوحنا، أضف إلى ذلك أنّه بنى، بهذه الهبات التي أتته من كلّ أرجاء روسيا، كنائس وأديرة ومؤسّسات أخرى.

على الرغم من وجود "بيت العمال"، فإنّ عدداً من الفقراء والمتسوّلين كان دائماً يقف منتظراً أمام بيت الأب يوحنا منذ ساعات الصباح الأولى. كانوا ينتظرونه إمّا هنا، إمّا أمام الكاتدرائية، وكانوا يشكّلون صفيّن إلى ثلاثة صفوف، على رجاء الحصول على هبة ما. وكان سكان كرونشتادت يدعونهم "كتيبة" الأب يوحنا. في البدء، كان الأب يوحنا يعرض الكتيبة شخصياً، وكانت تبلغ حوالى الألف شخص، وكان يهب روبلاً لكلّ عشرين شخصاً. أما في ما بعد فقد صار ينوب عنه مساعدون مخلصون. أمّا جموع المتسولين فلم تكن تتألّف من الأشخاص أنفسهم على الدوام، إذ كان بعضهم يغادرها، فينضمّ إليها أشخاص جدد .

يستطيع المرء أن يعدّد أسماء المئات من الأشخاص الذين، بفضل الأب يوحنا ومساعدته، صاروا عمّالاً نشيطين. ولكنّ تدفق الأشخاص الجدد غير المنقطع جعل عدد هذه الكتيبة من البشر لا ينقص أبداً.

-٥-

بعد كرونشتادت، أوّل الأماكن التي استفادت من أعمال الأب يوحنا الخيريّة كان قريته سورا، مكان ولادته إذ بنى هناك كنيسة حجريّة ذات هياكل ثلاثة: الهيكل الأول على اسم القديس نيقولاوس الصانع العجائب، الثاني على اسم القديس يوحنا ريلسكي، والثالث على اسم القديسة باراسكفي. ثم عمد إلى إنشاء أخويّة الكنيسة الأرثوذكسيّة، وبنى مطحنة وتعاونيّة استهلاكيّة عهد بمسؤوليّتهما إلى الأخويّة، وشيّد مدرسة للقريّة وميتماً وأخيراً أنشأ ديراً هو دير القديس يوحنا ريلسكي، حيث بلغ عدد الراهبات مئة وعشرين سنة ١٩١٢، وقد

كان للدير مبنى آخر يبعد قليلاً عن سورا وبيتٌ لضيافة الغرباء في أرخنجلسك.

بالإضافة إلى ما ورد ذكره آنفاً، شيّد أيضاً كنيسة صغيرة على ضريح والده، ووهب الأخويّة الأرثوذكسيّة الباخرة التي كان يستخدمها في رحلاته إلى سورا، وكانت تدعى "القديس نيقولاوس".

من بين كلّ المؤسسات التي أنشأها الأب يوحنا في بطرسبرج، فإن كل الفخر يذهب إلى دير القديس يوحنا ريلسكي على نهر كربوفكا. في أساسات كنيسة الدير كنيسة أخرى على اسم النبي إلياس والقديسة ثيودورا، وهما اللذان تسمّى والداه على اسمَيْهما، وقد دُفن الأب يوحنا في هذه الكنيسة فيما بعد بناء على وصيته.

ومن المرجّح أنّه، بفضل الأب يوحنا وهباته، شُيّد بيت الضيافة التابع لدير لوشنسكي في شارع باسنايا. وقد كانت رئيسة الدير الأم تايسييا من تعهّد مسؤوليّة هذا البيت.

إلى ذلك، شيّد الأب يوحنا دير فورونزوف في مقاطعة بسكوف، ودير فولسك الهدوئي قرب ريبنسك، وآخر في يبوشتيز في روسيا البولندية.

أمّا من جهة الكنائس في روسيا، فمن المستحيل تعداد تلك التي جرى بناؤها أو ترميمها أو تأثيثها بفضل المساعدات التي قدمها الأب يوحنا .

الفصل الرابع

المدرّس والمربّي

-١-

عمل الأب يوحنا كرونشتادت، خلال اثنتين وثلاثين سنة من حياته، كمربٍ وكمدرّس. فمنذ سنة ١٨٤٧ درّس في مدرسة كرونشتادت وخلال الأعوام ١٨٦٣ - ١٨٨٩ في الثانويّة.

ولسوء الحظ، إنّ أيّاً ممّا تركه الأب يوحنا من مدوّنات، أو تلك التي كُتبت عنه، لم تأتِ على ذكر كيفيّة إعطائه الدروس والطرق التي اتّبعها. أكثر ما نعثر عليه، في مذكرات طلاّبه، عموميات مقرونة بعبارات المديح. أمّا في أقواله وكتابته فإنّنا نعثر على القليل من التعليمات التربويّة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

رغم ذلك، نستطيع أن نكوّن فكرة عامّة عن الأب يوحنا كمدرّس ومربٍ وعن الأساسَيْن التربوي والروحي لنشاطه التعليمي، كما نستطيع تكوين رأي في شأن مبادئه العمليّة الشخصيّة.

المعطيات المتوفّرة عنه تفيدنا أنّ نشاطه التعليمي لم يكن ثانويّاً بالنسبة إليه، بل شكّل جزءاً من عمله الرعائي لا ينفصل عنه.

وكما لم يكن باستطاعة الأب يوحنا إلاّ أن يكون كاهناً، كذلك لم يكن بوسعه إلاّ أن يكون مدّرساً. فقد كرّس نفسه كلياً للتعليم والتربية، كما كان يفعل دوماً في كلّ أمر التزم به وكرّس نفسه لأجله. وكان ذلك أحد أسباب النجاح الذي حصده في كلّ ما باشَرَهُ.

فالتضحيّة الكاملة بالذات، في سبيل الخدمة، كانت متوافقة مع أفكار الأب يوحنا الأساسيّة في شأن الكون، وبنوع خاص في شأن تعليمه حول صورة الله في الإنسان. نستطيع أن نقول الكثير عن هذا التعليم ، لكننا نكتفي الآن بذكر أنه، بينما كان الأب يوحنا يتحدث عن بساطة الله، كان يتحدث أيضاً عن وجوب صيرورة الإنسان، وهو مخلوق على صورة الله، كاملاً وبسيطاً: "روح الإنسان بسيطة في طبيعتها وهي تفرز إلى خارج، بعيداً عنها، كلّ تعقيد". من قوله هذا تنبع مبادِئُه التربويّة العمليّة. بادىءَ بَدْء، مبدأ البساطة في العمليّة التعليميّة.

"لنهتم بجعل التعليم بسيطاً قَدَر المستطاع. أوَ ليس حقيقة أنَّ طرائق التدريس المصطنعة والعديمة الحيويّة بَرهَنت عن عدم جدواها؟ حقل المعرفة لا نهايّة له ... يكفي اختيار الأمور الأكثر أساسيّة منها وترتيبها ضمن نظام عام متجانس".

المبدأ الثاني، في ما يتعلّق ببساطة الله وروح الإنسان، نعثر عليه في دعوته إلى ابتغاء البساطة في التعليم، ليس هذا وحسب، بل وعدم فصلها عن العملية التربوية ككل، حيث اكتمال الإنسان لا يرتبط فقط بتهذيب العقل بل بتربية القلب أيضاً.

"حاولوا أن تحرزوا تقدّماً في العلم الداخلي القلبي - في علم المحبّة والإيمان والصلاة والوداعة والتواضع والطاعة والطهارة والعفّة والرحمة وعدم الأنانيّة والتعاطف مع الآخرين، في علم تنقيّة القلب من الأفكار الدنسة والشريرة... "أطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه وكل هذه تُزاد ولكم" (متى ٦:٣٣).

إنّه لمن السهل الإشارة إلى أنَّ مثل هذه التربية للقلب لا يمكن أن تكون إلاّ مسيحية، لأنّها تتوافق كلّياً مع تعليم المسيح. أوَ ليست المحبّة هي تعليم السيد؟.

في هذا الخط عينه، وجّه الأب يوحنا كلّمته خلال حفل خطابي في المدرسة الثانوية:

"في المقام الأول تعلّموا لغة المحبّة، فهي الأكثر حياة وتعبيراً بين اللغات كافّة. فبدون هذه اللغة تصير معرفة اللغات الأخرى دون جدوى".

وفي مكان آخر، أبرز القواعد الحقيقيّة للتربية المسيحية للقلب، مركّزاً بشكلٍ خاص على العمق الداخلي للقلب وعلى اقتباله المسيح وكلماته:

"أصوات المعلمين من الخارج هي للمساعدة والتذكير والتأنيب... هناك معلّم واحد، معلّم حقيقي واحد، وهو المسيح. كلمته تعلّمنا عندما تكون فينا. عندما لا تكون كلمته المحيية فينا، لا نعثر سوى على الضجيج".

هناك شرطان أساسيّان لابتغاء النجاح في مثل هذه التربية، الأوّل يتمثّل في أن يكون المعلم على مستوى مسؤوليّته، وأمّا الثاني فيتعلق بالتربية إذ يجب ألا تكون مسيحيّة فقط بل ومرتبطة بالكنيسة.

لم يتحدث الأب يوحنا كثيراً عن شخصيّة المربي المثاليّة، لكنّه أظهر أعمال المربّي، بشكل خاص في مثاله الحي. وعبّر عن ذلك بكلمات بسيطة، لكنه عبّر عن كل ما يمكن قوله في هذا الخصوص:

"يقول بولس الرسول: "لا تطفئوا الروح (١تس ٥:١٩)". ليتذكر ذلك كلّ مسيحي، بشكل خاصّ الكاهن مربي الأطفال. علينا نحن، من بين كلّ البشر، أن نضطرم بالروح القدس في خدمتنا الجليلة لله وللناس".

لم يكفّ الأب يوحنا عن الحديث حول ضرورة التربية الكنسيّة. وقد عبّر عن ذلك في حديث له في ثانويّة كرونشتادت إذ قال:

"يستطيع أحدهم أن يكون عالماً ولكنّه، في الوقت عينه، رجل شرير... مهمّتنا لا تقتصر فقط على تربية الناس ليصبحوا مثقفين وأعضاء فاعلين في المجتمع وحسب، بل وأيضاً ـ وهذا هو الجانب المهم والضروري ـ أشخاصاً يحملون خوف الله في قلوبهم... صلّوا إلى الله من أجل أن تتكوّن في نفوس الأطفال كائنات تتمتّع بالانسجام بعد تحصيلها كلّ هذا الحجم من المعرفة، وأن يتشكّل فيها نظام معرفة مسيحيّة، قوانين وعادات وممارسات تؤلّف التربية المسيحيّة الحقيقيّة".

"أما إذا كان طلابنا يسرقون من وقت الخدم الإلهيّة لأجل تحضير دروس من علوم هذا العالم، وإذا كانوا داخل الكنيسة يقلقون ويهتمون لأجل فرائضهم

المدرسيّة بحيث تتوقّف الخدمة الإلهيّة عن تغذية عقولهم وقلوبهم، وإذا كانوا يشعرون بالضجر في الكنيسة، فإنَّ كلّ العمل التربوي لا يأتي بنتيجة لأنّ أفضل تربية على الإطلاق هي تلك التي تؤمّنها الكنيسة بخدمها السماويّة المذهلة والتي تنفذ مباشرة إلى قلب الإنسان".

هذه كانت تطلعات الأب يوحنا وقد أتت ممارسته اليوميّة مطابقة لها. تجدر الملاحظة، هنا، أنَّ التعليم الديني الحالي يرتكز على القاعدة المشتركة التي عبّر عنها الأب يوحنا. لذا فقد كان الأب يوحنا مستبقاً زمانه وهو، في كثير من النقاط التي طرحها، استبق أحدث الوسائل المعاصرة في التربية الدينيّة وأفضلها.

-٢-

يتضح لنا، ممّا سبق، إصرار الأب يوحنا على أنَّ الخدم الإلهيّة هي أفضل طريقة تربويّة لكلّ نفس مسيحيّة. كلّ الروايات التي تناولت دروسه تحملنا على الاعتقاد أنّه كان يحاول، في الصفّ أيضاً، أن يشرح الخدم الإلهيّة بشكلّ حيوي حتى لا يشعر الأطفال بالضجر في الكنيسة. وقد تناول هذا الموضوع في مدوّناته، يقول:

"ألا تعتقدون أنَّ عدم المبالاة تجاه الخدم الإلهيّة إنما يعود بالحقيقة إلى أنَّ البعض لا يفهمها، وأنَّ البعض الآخر، وهو على اطّلاع في هذا الشأن ومعرفة، إنّما شُرحت له بطريقة عقلانيّة، جافّة دون أي نوع من الأمثلة؟ كان الشرح يخاطب عقول التلاميذ، في حين أنّ الخدمة ليست فقط تأمّلاً عقلياً سامياً، بل هي، في المقام الأول، حلاوة وعذوبة قلبية".

وبخصوص إشارته السابقة إلى ضرورة إعطاء أمثلة فإنّنا، لسوء الحظ، لا نملك معطيات أكثر من ذلك. فنحن نجهل الوسائل التي كان الأب يوحنا يستعملها في شروحاته ليجعل الطلاب اكثر اقتبالاً وتحسُّساً لغنى الخدم الإلهيّة. ما يسعنا قوله في هذا الصدد هو أنَّ شرح الخدم الإلهيّة في ذلك الزمان كان أيسر منه اليوم، والسبب يعود إلى أنَّ اللغة السلافونيّة كانت تدرّس حينها. وأمّا نجاح الأب يوحنا في الشرح والتفسير فلا يعود فقط إلى الوسائل التي استعملها بل وأيضاً إلى

شخصيته ومقاربته الخاصة للموضوع. فقد كان باستطاعته، من خلال غيرته الروحيّة، أن يضرم ناراً في قلوب تلاميذه سواء أكانوا في الصف أم في الخدم الإلهية. من الأفضل طبعاً أن يعي كلّ مربٍ أنَّ "اضطرام القلب" أو الغيرة الروحيّة لا يمكن أن تترك للمصادفة، بل يجب أن تكون أحد الأسس الجدية في التعليم والتربية. ولكن لا يحملنّ ذلك على الاعتقاد أنَّ الأب يوحنا إنّما كان يعتمد فقط على حماسته وغيرته الشريفتين وأنّه كان يرتجل الدروس أمام التلاميذ. بل على العكس، فهو ينصح المدرّسين أن يهيئوا أنفسهم للدرس، وهو، دون أدنى شك، كان يقوم بذلك. وإليكم تعبيره في هذا الشأن:

"إذا كنت تسهر على تعليم الأطفال ـ أولادك الأخصّاء أو أولاد الآخرين ـ فليكن عملك خدمة لله. أعطِ بغيرة، هَيِّئ الدرس حتى يأتي شرحك واضحاً، مفهوماً، كاملاً قدر الإمكان، ومثمراً".

كان الأب يوحنا دوماً من أنصار شرح الكتاب المقدس والتعليم الديني، وسعى كثيراً من أجل عدم إرهاق الطلاب بدروس أخرى كثيرة فوق طاقتهم، دون أن يعني ذلك طبعاً تنكّراً منه للحاجة إلى المواد الأخرى. فعلى سبيل المثال، شرح في إحدى محاضراته وبرّر بالتفصيل كيف أنَّ دراسة اللغة اليونانية القديمة واجبة.

-٣-

لقد توفرت لنا معلومات أخرى من ذكريات تلاميذ الأب يوحنا تساعدنا على تكوين صورة كاملة لندرك، عن كثب، حيثيّات الطرائق والوسائل التي استعان بها في التربية الدينيّة وشرح الكتاب المقدّس: غياب العقاب، الاستشهاد بالكتاب المقدس بشكلٍ حيوي ومحبّب من خلال قراءات مختارة من الإنجيل وأيضاً من سير القديسين، شرح الدرس عن طريق الحوار مع التلامذة، سماحه للطلاب بالأسئلة الحرّة فكان ذلك مجالاً في تحوّل الدرس إلى مناقشة حيّة ذات جوانب متعددة. ما من شك في أنَّ هذه العناصر تشجّع على الحريّة وأخذ المبادرة. وهي ، في نظر العلم الحديث، خطوة هادفة نحو طريقة تعليم ناشطة.

مهما يكن من أمر، فإنَّ الأب يوحنا اتّبع البرنامج المقرر في تلك الأيام: أوّلاً العهد القديم، ثمّ الخدم الإلهيّة، التعليم الديني وتاريخ الكنيسة. وحاول، دون أن يعدّل البرنامج الرسمي، إبراز الروابط التي تجمع بين حلقات هذه المواد. اقترب الأب يوحنا، بشكل من الأشكال، ممّا يعرف اليوم في الطرائق التعليميّة بالطريقة المحوريّة. يحملنا على هذا الافتراض ما ظهر من ممارسة الأب يوحنا: فهو الذي كان يكنّ حبّاً كبيراً للخدم الإلهيّة، كان يخصّص لها اهتماماً تربويّاً كبيراً، وهو، إلى ذلك، أحبّ أن يعتاد الأولاد على سير القديسين الأمر الذي لم يكن مدرجاً في البرنامج الرسمي. وقد كتب الأب المتوحّد مخائيل في هذا الصدد يقول:

"إنَّ الأب يوحنا، رغم احترامه الكبير للنصّ الإنجيلي، كان يعطي الأولويّة لشرح روح النصّ وليس فقط كلمات النص. وهو كان أثناء الدروس يتحدّث عن تاريخ ملكوت الله على الأرض وليس عن تاريخ ملوك إسرائيل. أما هاجسه الأوّل والأخير فقد تلخّص في وجوب نفاذ الحقيقة الإنجيليّة إلى قلوب التلاميذ".

وفي مكان آخر، يستشهد الكاتب نفسه بأحد طلاب الأب يوحنا القدماء فيذكر:

"نادراً ما كان الأب يوحنا يعطينا علامات سيئة، وكان الحصول على درجة "ثلاثة" (أي حسن) من أصل خمس درجات (أي ممتاز) في الكتاب المقدس يعتبر علامة مذلّة ومخجلة".

وأحد الطلاب القدماء، سورو فتسكي، كتب يقول :

"خلال الدروس كان الصف هادئاً للغاية... أمّا الدروس التي لا ننساها أبداً، فكانت تلك التي أخذناها في الصف المدرسي الثاني، والخاصّة بالعهد الجديد، حيث كانت طريقة الأب يوحنا تبعث فينا الغيرة من خلال النصّ الإنجيلي. فكنّا نشعر أن حوادث المسيح الخلاصيّة قريبة منّا. كانت عينا الأب يوحنا تدمعان حين يأتي على سيرة آلام المسيح على الصليب، أمّا نحن فكنّا نصغي بانتباه وصمت كلّيّيْن وقد تحرّكت أعماقنا إلى درجة كبيرة".

ويتابع في مكان آخر فيقول:

"كان الأب يوحنا يجيب عن أسئلتنا بطيب خاطر؛ ولّما كان لنا اهتمام كبير بمجرى الحوادث اليوميّة، فقد كان يبادر هو بالتحدّث عنها. أمّا في الصف الدراسي الثالث فقد بادرنا الأب يوحنا بالحديث عن الخدم الإلهيّة، فقال لنا إنّها صلاة مشتركة وإننا في الكنيسة نقف وجهاً لوجه أمام الله. قد بدا لنا ذلك أمراً رهيباً ومذهلاً".

أحبّ كثيرون الاشتراك في الخدم الإلهيّة التي كان الأب يوحنا يقيمها. أغلب هؤلاء كان يعرف كلّ شيء عن أعماله الخيريّة وعن محبّة الناس له، فكان من الطبيعي أن تدفع هذه الأمور إلى تعزيز صورته كمرشد روحي. إلى جانب ذلك ، يتذكّر تلاميذه كيف كان يوزع عليهم كرّاسات صغيرة ذات غلاف ملوّن، وبشكل خاص "سير القديسين"، وكان ذلك يثير غيرة التلاميذ ومحبّتهم.

أمّا ما ترك بين تلاميذه أثراً كبيراً فقد كان ما عرف عنه أنّه لا يعاقب، بل محاولته التّفاهم معهم من خلال الحوار، بالإضافة إلى كونه يحامي عنهم أمام مجلس الأساتذة. كثيراً ما جعل نفسه مسؤولاً عن أولئك الطلاب الذين صاروا على قاب قوسين من الطرد من المدرسة، وكثيرون من بينهم عادوا فسلكوا، فيما بعد، طريقاً أفضل.

على أنّ ما فصّلنا ذكره آنفاً، لم يمنع الأب يوحنا أن يكون صارماً في بعض الأحيان. فهو لم يتأخر عن نعت أحد الطلاب بالملحد والمتعصّب لأنه عبّر صراحة عن شكّه في ألوهة الروح القدس لكنه أجاب سؤله ودعاه إلى حديث جانبي على انفراد، فخرج الصبي من هذا الحوار وقد خلّف وراءه كلّ شكوكه حول الموضوع.

أمّا أسلوب التعامل الحرّ الذي جمع بين التلاميذ والأب يوحنا فلا يعني أنّه كان ينكر استعمال أسلوب الاضطرار والإكراه. فهو عبّر عن ذلك إذ كتب:

" أتساءل كيف يستطيع أحدهم تجنب استعمال الشدّة مع ذاته؟ أيستطيع أحدهم ألاّ يجعل المسيحيين يضطرون إلى المحافظة على الوصايا الإنجيليّة والتقوى والسلوك الشريف؟ ألا نقرأ في الإنجيل أنّ ملكوت السموات يُغصب والغاصبون

يختطفونه (متى ١١:١٢)، أيعقل عدم إلـزام التلاميـذ، خصوصـاً الصِّـبْية، بـالدرس والصلاة؟ ماذا سيحصل عندها؟ ألن يصيروا متبطّلين عـن العمـل ومتسـكّعين؟ ألـن يتعلّموا ساعتها الأمور الشريرة؟"

وهو يتابع محذّراً: "أيها الأهالي والمربّون! احرصوا بعناية كبيرة على أولادكم ولا تسمحوا لهم بتغيير تصرفهم في حضوركم، فإنّ النزوات أصل الشـرور وفسـاد القلب".

وأخيراً، نذكر أنَّ الأب يوحنا كان لتلاميذه الأب الروحـي والمعرّف. ومقدرتـه كأب معرّف كانت كبيرة وهي، مع صلاته الشافيّة، ساعدت في ذيوع شهرته.

-٤-

هكذا، من خلال كتابات الأب يوحنا ومن الذكريات التـي خلّفهـا وراءه، نصل إلى الاقتناع بأنَّ نظرته التربويّة وممارسته أيضاً كانتـا وثيقتـي الصلـة بمعتقداتـه ومبادئه الأساسيّة. وليس من الصعوبة بمكان التصديق أنَّ نشاطه التربوي والتعليمـي هذا كان منسجماً انسجاماً كلّياً مع مِيْزات طبيعته الروحـيّة.

سبق وذكرنا أنَّ عمـل الأب يوحنـا الرعـائي مـع فقـراء كرونشـتادت كـان نتيجة علاقته في بـادىء الأمر بـالأولاد الذيـن كَـنّ لهـم محبّـة خاصـة. والروايـات الكثيرة التي تتحدث عن عمله في المدرسة الثانويّـة تشـهد لـه بهـذا الحـبّ الخـاص. والأب المتوحّد مخائيل يأتي على ذكر إحـدى تلـك الحـوادث حيـث يـبرز تعاطف الأب يوحنا الكبير مع الأطفال المرضى: كيف أنّه مرة دخل مستشـفى وأسـرع إلى تقبيل فتاة صغيرة وركع إلى جانب سريرها قائلاً: "يا صغيرتي! أتتعذبين كثيراً؟ وفي مرّة أخرى قضى وقتاً طويلاً إلى جانب طفل مجنون يداعبه بحنان واهتمام كبيرين.

من مدوّنات غير منشورة، عثرنا على حادثة توبة تتعلق بالأب يوحنـا كيـف أنّه، في لحظة تجربة، دفع جانباً صبياً تعـلّق بآخر المزلجة التي يركبها. فكانت النتيجة أن وقع الولد أرضاً وجرح نفسـه، فيقـول الأب يوحنـا عـن هـذه الحادثـة معترفـاً: "لوقتٍ طويل بقيت متألّماً لما فعلت... شعرت بثقل كبير في قلبي جـرّاء ذلك".

كان شغوفاً بزيارة المياتم والمدارس والثانويات. فقد كان يكنّ للأطفال محبّة خاصة، عبّر عنها بكلمة له نوردها باختصار:

"أنتم أولادي لأنّي ولدتكم بـإنجيل المسيح يسوع. أنتم دمي الروحي، لأنّ تعليمي يجري في عروقكم. أعطيتكم، وما زلت إلى الآن أعطيكم، لتشربوا الحليب الروحي كما ترضع الأم ولدها. أنتم أولادي لأنكم على الدوام في قلبي ولأني أصلي من أجلكم. أنتم أولادي لأنّني أبوكم ككاهن، وكما أنتم أيضاً تدعونني. يا أولادي! الشرير، الذي منذ البدء يغذّي الحقد والغضب والمراءاة، يكره هذا العالم كثيراً، ولكنني بنعمة الله لن أُصغِي له وسأبقى أُناديكم أولادي لأنّكم أنتم في الحقيقة أولادي في الإيمان، في كنيسة الله، ولأنّكم تقبلون مني التعليم والارشاد. فقط بالروح القدس، بروح الحق والمحبة يستطيع أحدهم أن ينادي أولاد الآخرين "أولادي".

وفي مناسبة أخرى يقول الأب يوحنا :

"كم هي جميلة الأزهار والورود وزهر الدُّفلى! ننظر إليها فتبتهج نفوسنا معظّمة عجائب الخالق! صورة الخالق ليست منطبعة فقط في الإنسان بل وأيضاً في عالم الجمادات، النبات والأزهار، لكن هذه ليس لها روح بل هي خشب وأعشاب... على رغم كلّ الجمال الذي تتحلّى به. لكنكم أنتم، يا أولادي، أفضل نباتاتنا، أنتم زرع إلهي لا يُقدَّر بثمن، أنتم أزهارنا، وما قلته سابقاً عن الأزهار يعود إليكم".

تكفينا هذه الكلمات للاستدلال على أنَّ عمل الأب يوحنا التربوي وجد نبعه في محبته الصادقة للأولاد، وأنَّ هذه المحبة هي على الأرجح مصدر محبته للجميع. إنّه في بعض مدوّناته يأتي على ذكر فرحه الكبير الذي شعر به حينما تبلّغ تعيينه في المدرسة الثانويّة.

مهما بلغت محبة الأب يوحنا للناس وللأطفال بشكلٍ خاص، فإنّ هذه المحبة إنّما ينبوعها الأول والأخير محبته للمسيح. هذه المحبة بالذات كانت له مصدر كلّ حلاوة وبركة وملء الفرح. وإلى ينبوع الحياة هذا، إلى ينبوع المحبة هذا، كان الأب يوحنا يسعى بكلّ ما أوتيَ من جهد ليشدّ إليه كلّ من كان يحبُّه.

الفصل الخامس

الجوانب السلبية للحياة الدينية في ذلك العصر

نظرة الأب يوحنا إلى القداس الإلهي

-١-

ككاهن مستحق، كراعٍ حقيقي، وببساطة المسيحي، أراد الأب يوحنا كرونشتادت أن يمنح الشعب أفضل ما يمكن للمرء أن يشتهيه على الإطلاق: الاشتراك في الحياة الإلهية والاتّحاد بالله. فقد كان يدرك، عن خبرة، أنّنا نحلم بحياة أفضل، ولكن لا يسعنا تحقيق ذلك خارج الكنيسة أي من دون الاشتراك في سرّ المحبة ـ سرّ الشكر. أكبر رغبة لديه كانت أن يشترك الشعب في الحياة الإلهية من خلال كأس ذبيحة المسيح ومحبّته. فهل هناك أفضل ممّا استطاع الأب يوحنا تمنّيه لأجل قريبه وخاصة لرعيته التي ائتمنه الله عليها؟ بالفعل، ماذا يستطيع أن يفعل لقريبه أكثر من أن يقوده إلى نبع الحياة الأبوية والغبطة والفرح؟

إلاّ أنّ مهمة الأب يوحنا لم تكن سهلة، لأنّ ما أعاق الناس عن استجابة ندائه المحبّ ليس، فقط، الخطيئة وقوى الشر الخفية التي تدفع إليها، بل وأيضاً العقلية السائدة في المجتمع الروسي في ذلك الوقت. فبالرغم من ظهور بوادر تيقّظ روحي ـ وسوف نأتي على ذكرها في مكان آخر ـ فإنّ الموقف الديني العام في روسيا الذي ساد في ذلك الوقت لا يمكن أن يثير الرضى بأي حال من الأحوال.

علينا أن نذكر، في المقام الأول، أنَّ الإصلاحات التي قام بها بطرس الأكبر قد تبلور شكلها النهائي في القرن التاسع عشر. هذه "العبادة" كانت ترفض بشكل

قاطع كلّ ممارسة كنسيّة، أو في أحسن الحالات وضعها في المرتبة الثانية، كمجرّد واجبٍ غاب عنه كلّ شعور ديني حقيقي. وهذا ما صار عليه التقليد المتبّع بين أفراد الطبقة الإمبراطورية.

وإلى هذه "العبادة" ظهرت "عبادة" من نوع آخر، وهي "عبادة" روسيا كأمّة. أمّا الكنيسة الأرثوذكسيّة فقد مثّلت دوراً من الدرجة الثانية في هذه الأوضاع، وهي من مركزها خدمت أو دعمت، بشكل ما، القيم الجديدة للشعب الروسي.

وبناء عليه، فإنّ احترام الإكليروس كان يخضع لمعيار منفعتهم للدولة وللشعب وللمُثُل الخُلُقيّة.

في تلك الحقبة، كان من النادر أن يرى أحدهم في الإيمان الأرثوذكسي تعبيراً عن جوهر الحياة نفسه. كان من النادر أن يرى أحدهم في الكنيسة، تلك الوحدة المسكونيّة، تعبيراً عن شركة إلهيّة ـ إنسانيّة لا يستطيع الإنسان أن يعيش خارجها حياة حقيقيّة، مثال الغصن الذي يقطع من الشجرة فلا تكتب له الحياة بعدها!

بالإضافة إلى ذلك، وبفضل العقليّة الآتية من الغرب الأوروبي، فإنّ جمهوراً كبيراً أرثوذكسياً من أعضاء الطبقة الحاكمة إتخذ له المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد الغربية غذاءً روحياً وفكرياً، وهي غريبة بمجملها كلّ الغرابة عن الأرثوذكسيّة.

ولم يطل الوقت حتى تأثّر المفكّرون بالطبقات العليا وتمثّلوا بها. فازدهر الحماس للعقلانيّة وفي وقت لاحق للمادية وللعقيدة الاشتراكية التي صارت، في نهاية القرن التاسع عشر، موضوع تعصّب وإيمان أعمى.

كلّ هذا لم يشجع الإيمان الأرثوذكسي التقليدي، بل شكّل عائقاً إزاءه.

-٢-

إنّ الإكليروس الذي وُجد في المجتمع المدني بطريقة معيشته وتغرّبه الثقافي وانحساره ضمن طبقة شبه وراثيّة مثّل دوراً كبيراً في تعاظم اللامبالاة الدينيّة بين أفراد الطبقة الحاكمة.

فمن النادر أن يُوجَد كاهن وسط المجتمع الراقي إذا كان الأمر لا يتعلق بمناسبة دينية. فحافظت هذه الطبقة على مسافة بينها وبين الإكليروس وآثرت الإبتعاد عنه. ولهذا السبب، ربّما، قليلون هم هؤلاء المتحدّرون من عائلات إكليريكيّة الذين استطاعوا أن يرتفعوا داخل هرم الوظائف العليا من الإدارة العامة. وبشكلٍ عام، فإنّ المتحدرين من أوساط إكليريكية، وقد اختاروا لأنفسهم مهناً أو وظائف مدنيّة، كثيراً ما كانوا ينقطعون عن أواسطهم السابقة وبالتالي لا يمكن أن يشكّلوا صلة وصل بين الطبقة الحاكمة والإكليروس. أضف إلى ذلك المستوى الثقافي للإكليروس، خصوصاً الموجود في الأرياف، فقد كان متديّناً بشكل عام، الأمر الذي حدّ كثيراً من تأثيرهم على بيئاتهم. ورغم سعي الدولة إلى رفع مستواهم الاجتماعي، فإنّ أوضاعهم، خصوصاً في الأرياف، بقيت مزرية إلى حدّ كبير، وكانوا عُرضة من وقت إلى آخر لتعسف ملاّكي الأراضي ولحملات تأديبيّة من قبل السلطة.

أمّا الكاهن فقد كان يستطيع ممارسة تأثير معين على المجتمع خصوصاً في مجال التعليم الديني والمعرفة المرتبطة به، وأيضاً من خلال الوعظ وتقبّل الاعتراف. ومع ذلك، فإنّ مجال التأثير كان ضيّقاً، فالتعليم الديني كان مادة بين مواد كثيرة تعطى في المدارس الثانويّة، ولم تكن تعدّ من بين المواد الرئيسة. وتعطى بشكل مدرسي جامد كما كانت عليه حال الكتب المرافقة لها. ولما كان الكهنة ذوي مستويات ثقافيّة متدنية، فنادراً ما كانوا يعظون، أمّا من برزوا منهم في هذا المجال فقد وُجِدوا في العاصمة والمدن الكبرى.

بالنسبة إلى القسم الأعظم من الشعب، توقفت الليتورجيا عن أن تكون مركز حياتهم. وكان الاعتقاد السائد أنّه يكفي الاشتراك في الأسرار المقدسة مرّة في السنة، وهذه النقطة تعكسها لنا مواعظ المطران فيلاريت التعليميّة، إذ كان يدعو المؤمنين إلى الاشتراك في الأسرار المقدسة، إذا أمكن، أربع مرّات في السنة.

من جرّاء الارتباط الوثيق بين الدولة والكنيسة، كانت الدولة تفرض على الطلاب والموظفين المدنيين والرجال العاملين في الحقل العام أن يشتركوا في الأسرار المقدسة مرّة في السنة أثناء فترة الصوم الأربعيني المقدس. هذا التدخّل من قبل

الدولة المدنية في الجانب الأكثر شخصيّة من الحياة الدينية أدّى إلى اعتبار الاشتراك في الأسرار المقدسة ـ وهي من أعظم الأعمال في الحياة المسيحيّة ـ واجباً مدنياً عموميّاً في حياة الكثيرين. وتحت عنوان الاستعداد للاعتراف والمناولة، وبالتالي الاشتراك في الأسرار المقدسة، كثيراً ما كان الناس يردّدون العبارات التالية: "أنا ذاهب لأقوم بواجبي" أو "أنا ذاهب لأعطي الله حقه"....

بهذه الطريقة انحجبت عن عيون الكثيرين من الروس الأرثوذكسيّين المعرفة الحقيقيّة للغذاء الروحي الأساسي، الذي قلّما أدركوا حاجته. وبالتالي، فإن فهمهم للمعنى الحقيقي للكنيسة وحياتها بدأ يغيب عنهم رويداً رويداً.

أمّا في أوساط التجار والمزارعين فقد بقيت التقويّة المتوارثة حيّة. وبقيت هذه التقويّة محافظة على أسلوب العيش الكنسيّ التقليديّ المعروف من قبل إصلاحات بطرس الأكبر. لكن، في محيط مثل هذا، كانت التقويّة تأخذ لنفسها طابع التعصّب للأطر الخارجيّة للعبادة وللطقوس، وكانت تبلغ عند المزارعين حدّ معتقدات خرافيّة وعادات وثنيّة. وأكثر من ذلك، فهي، إذ تختفي وراء أستار طقوسية جمالية، تخفي، في الحقيقة، طابعها المادي البحت.

أمّا طبقة التجار فكانت الأكثر احتكاكاً بالإكليروس وبنت معه علاقات جيدة، وقد بدا تأثير هذه العلاقات في التعبير الذي تجلّى عند هؤلاء في بناء الكنائس والمشاركة في الأعمال الخيريّة.

أمّا الإكليروس فقد حافظ على تقليد الكنيسة الحيّ في أنقى صورة، فقد عاش الكهنة، على الرغم من فقرهم وتدنّي مستواهم الثقافي ومعيشتهم المنعزلة، روحانيّة حقيقية وإن بشكل متواضع وصامت في بعض الأوقات. فحين تعاطى بعض رجال الإكليروس الكحول، لم يطفىء هذا الأمر شعلة هدوئهم الروحي، ولم يجعلهم ينحرفون عن اللياقة الروحيّة.

ولَئِن افتقر رجال الإكليروس إلى القوة الروحيّة ليأخذوا على عاتقهم زمام الإرشاد الروحي للشعب، ولَئِن كانت هذه القوة عندهم تفتقر إلى البنية الحصينة لمواجهة التهجمات على الكنيسة، إلاّ أنّه بقي حتى نهاية القرن التاسع عشر الأرض

الصالحة التي أبرزت كواكب مضيئة للكنيسة الروسية.

من أمثال هذه الكواكب كان الأب يوحنا كرونشتادت.

ما أوردناه من الوقائع يدلّنا على أن الأب يوحنا ابتدأ رعايته الكهنوتيّة في وقت كانت فيه الظروف العامة أقل ملاءَمةً لمثل هذا العمل، من ناحية، ويكشف النقاب عن الصعوبات التي واجهها والجهود التي بذلها من ناحية أخرى.

-٣-

إن الصعوبات المختلفة لم تثبط عزيمته ولم تؤثّر سلباً على تكريس نفسه للكهنوت أو عمله الرعائي الدؤوب بشيء. بل على العكس، زادت من حماسته وساعدت في توضيح أكبر لوجهة عمله، فنرى أنّ التضارب الصارخ بين ما كان يختلج في قلبه من حرارة أثناء إقامته القداس الإلهي، وعدم الاهتمام بالليتورجيا وحياة الكنيسة من السواد الأعظم من الشعب، اضطراه دون أدنى شك إلى التحدث بنبرة أقوى عمّا هو أعزّ على قلبه دون ريب. دفعه ذلك إلى الصلاة بحرارة مضاعفة.

ولكن، قبل أن نباشر حديثنا عن كيفيّة إتمامه سرّ الشكر وسرّ الاعتراف، من الضروري، في المقام الأول، أن نتوقف قليلاً عند رأيه في معنى الحياة الليتورجيا، ساعتها يكون في مقدورنا فهم كل ما رُوِيَ عن حرارة وورع الخدم التي كان يقيمها والتي جذبت انتباه الجميع في أنحاء روسيا كافة.

كثيرون، في أيامنا الحاضرة، لا يستطيعون، نظراً لجهلهم، فهم كلمات الخدم الإلهية وسَبْر معانيها فيصعب عليهم بالتالي أن يدركوا مباشرة تعبير الأب يوحنا عن أسمى خبراته وعن معنى الليتورجيا والقداس الإلهي. لكنَّ الجميع يعرفون من خبرتهم الخاصة الألم الناتج عن خطايا مثل الغضب والغيظ وكم هو حسن التحرّر منهما. لنستطيع ربط حلقات حديثنا بصلب موضوعنا، لا بدّ لنا من التطرّق قليلاً إلى العذابات الناتجة عن الخطيئة كما عبّر عنها الأب يوحنا.

فهو تحدّث عن هذه الناحية مراراً وتكراراً في مدوّناته مبرزاً بنوع خاص ذلك الفارق بين عذابات حالة الخطيئة من جهة، والفرح العظيم الناجم عن الخلاص منها، من جهة أخرى. مثل هذه الخبرة معروف لدى كلّ واحد منا، كلّ منا يستطيع تأكيده من خلال خبرته الشخصيّة، ونتيجة لذلك يصبح من السهل علينا متابعة تعليم الأب يوحنا كما وصل إلينا من خلال مدوّناته ونوافق معه على أن الصلاة، والليتورجيّة منها بشكلّ خاص، والتوبة والاشتراك في الأسرار الإلهية، وبالطبع قراءة كلّمة الله، هي الوسائل الأكثر فعالية للتحرّر من كل شرّ يعجّ في داخلنا ويُلقي في العذابات قلبنا ويفسد علينا حياتنا.

في خطوة أخرى، نستطيع مع الأب يوحنا إكتشاف أنَّ الله، من خلال الكنيسة والأسرار، لا يخلصنا من عبوديّة الخطيئة وتسلّطها فحسب، بل يمنحنا أيضاً قوّة المحبّة المحيية والمبهجة. وبهذه المحبّة يهبنا حياة جديدة في حضن الكنيسة غريبة كليّاً عن الحياة العتيقة السابقة. وإذا ما أدركنا هذه النواحي نستطيع ساعتها تذوق لاهوت الأب يوحنا المشبع بخبرته الشخصية ونقبل تعليمه في جوانبه المختلفة، وليس فقط في ما يخصّ الليتورجيا ، بل أيضاً بالنسبة لله والكنيسة والخلاص.

-٤-

في ما يلي ندرج مقاطع مختارة من كتابه "الخطيئة كمصدر شقائنا الوحيد":

"ليتذكر كلّ منا أنَّ ناموس الله فاعل في العالم دون انقطاع، وحسب هذا الناموس إنَّ كل صلاح يكافأ داخلياً وكل شر يجد عقابه. الشرُّ يرافقه الحزن والانقباض في القلب، بينما يرافق الفضيلة السلام الداخلي، الفرح والقلب المحب".

"إنَّ الإنسان، في حالته الحاضرة، مليء بالتكبّر، بالخبث، بالظنّ والشكّ، بعدم الإيمان، بالعصيان، بالغضب والحسد، بالفسق، بالبخل، بالكسل، وأحياناً بالجبن والاكتئاب والكذب والكلام البذيء. كم هو عظيم الجهد الذي ينبغي أن يبذله كلّ إنسان مسيحي حتى ينقّي نفسه من فساد الأهواء!"

"كل الخطايا والأهواء، المشاجرات والعداوات هي، في جوهرها، مرض النفس. هي حريق النفس، نار هائلة مشتعلة داخلياً تصعد من هوة الجحيم ويجب إطفاؤها بماء المحبّة".

"وكما لا يستطيع الأسوَد أن يغيّر لون بشرته السوداء، كذلك الذين اعتادوا عمل الشر لا يستطيعون عمل الخير. يحتاجون لذلك إلى معونة النعمة الإلهيّة الكلية القدرة"[1].

فتّش الأب يوحنا في المقام الأول وقبل كل شيء آخر عن هذه النعمة الإلهية في الصلاة، في الخدم الإلهية، في الأسرار المقدسة، ولقوة إيمانه وصل إلى مبتغاه.

"يا للإيمان المقدس! بأيّة كلّمات وأناشيد أعظّمك! ألأَجل بركاتك التي لا تحصى وقد منحتها لجسدي وروحي!؟ أم لأجل كل معجزاتك التي صنعتها فيّ ولا زلت تصنعها!؟ أم لأجل ثمار السلام ونزع فتيل العداوة؟! أم لأجل بركات النور الروحي ودحر ظلمة الأهواء؟! أم لأجل الشجاعة والإقدام ودحر كل جبن وخوف؟! أم لأجل الجمال الروحي وعظمة الروح ودحر عبودية الخطيئة والخساسة الروحيّة؟! المجد لك يا الله المحسن إليّ إلى الأبد! ليُعرف مجدك يا الله في كل الأرض، بين جميع الأمم حتى يسبّحك الكل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب".

هنالك العديد من تأكيدات الإيمان هذه في كتابات الأب يوحنا. أما في ما ورد أعلاه، فهي عبارة عن إشارات إلى تلك المعونة التي يحصل عليها المرء بالإيمان. هناك مقاطع عديدة يشير فيها إلى قوة الخدم الإلهيّة وسرّ الشكر.

"في القداس الإلهي نجد قوّتنا إزاء أعدائنا. نُحرز النصر عليهم وهم طالما حاربونا بأهوائنا. نجد نور نفوسنا، رجاءنا وملجأنا".

وفي مكان آخر، يعترف بشكل كليّ الوضوح فيقول:

"الخطيئة هي شقائي اليومي... تلك المعشّشة في القلب. أمّا مخلّصي ومنقذي العظيم فهو بإزائها كلّ يوم. هو معونتي اليوميّة غير المنظورة في الأسرار الطاهرة".

---

١ ـ هذا المقطع ورد في كتاب الأب يوحنا: "حياتي في المسيح".

"عندما تخطىء وتحرقُك الخطيئة بنارها، انظر وعاين الضحية الوحيدة الأبدية والحية، تلك التي ذبحت لأجل خطايانا. إرم خطاياك عند أقدام الضحية تلك. لا يمكنك أن تجد في مكان آخر خلاصاً لنفسك. لا تفكّر أبداً أنّك تستطيع أن تخلّص نفسك بنفسك".

-٥-

★ أمّا الليتورجيا والقداس الإلهي فلا يحرّران المؤمن من شقاء الخطيئة فحسب، بل، في الوقت عينه، يمنحانه فرح الحياة الجديدة والسلام والمحبّة.

"الليتورجيا هي حقيقة خدمة الله السماوية على الأرض. المشاركة فيها إنما هي غبطة، سلام النفس وفرحها! الليتورجيا تغذي العقل وتحيي القلب. تثير دموع الامتنان والتخشّع والتقوى. تُلهمنا التضحيّة ونكران الذات، تمنحنا السعادة من خلال رجائنا قيامة الأموات والحياة الأبدية".

ولكن، كما يلاحظ الأسقف بنيامين فدشنكوف، في كتابه "السماء على الأرض"، فإنَّ الأب يوحنا كان ينهل من الليتورجيا، بشكل أساسي، الشجاعة والقوة والنشاط. ويعترف بذلك إذ يقول:

"إنّني، وأنا مُجلَّلٌ بقوّة المسيح من خلال الإيمان والمناولة الإلهية، أشعر، في أحيان كثيرة، برسوخي كالصخرة".

وفي حديث له مع كهنة قال مرة: "إنّ الله الذي أتّحد به يومياً يقوّيني، وإلاّ فمن أين لي قوة الثبات هذه في هذا العمل الجبار الذي أحاول فيه أن أخدم بمجد اسمه وخلاص قريبي؟"

أمّا حالات الفرح السماوي من خلال الليتورجيا فليست مجرّد خبرات منعزلة في أوقات متفرقة، بل هي قوة الحياة نفسها، وبشكل أدقّ، هي الحياة الحقة. وقد عبّر عن ذلك الأب يوحنا بقوله: "أشعر بالموت عندما لا أكهُن". وفي مكان آخر: "ما من حياة حقّة فينا من دون ينبوع الحياة يسوع المسيح". الليتورجيا هي

ينبوع الحياة الحقة، لأنّ الله نفسه فيها. ربّ الحياة يهب نفسه مأكلاً ومشرباً للمؤمنين، يمنح المتناولين أسراره المقدسة حياة وفيرة. كما قال هو نفسه: "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير"(يو ٦:٥٤).

ولكن ما هي الحياة الحقة؟

الحياة الحقة هي المحبّة كما الله نفسه محبّة. لهذا بالضبط فإنّ المحبّة، اللقاء والاتحاد بالله نفسه، هي الأمر الأساسي والوحيد الذي تطمح إليه كلّ نفس مسيحية وهي موجودة في الليتورجيا.

"في الكلمات:...."خذوا كلوا هذا هو جسدي.."، "اشربوا منه كلكم هذا هو دمي..." محبّة الله الرهيبة لجنس البشر، فالذين ماتوا عن كلّ شهوة عالمية وكل ميل رديء يشعرون برهبة مقدّسة تسري في داخلهم حينما يسمعون بآذان قلوبهم تلك الكلمات من فم الكاهن".

ويتابع قوله:" يا لهذا الحب الكامل! يا لهذا الحب الذي يشمل الكلّ ويحضنهم! يا لقوة هذا الحب! ماذا أعطي الربّ في امتناني لأجل محبته لي؟"

هذه المحبّة هي في ذبيحة المسيح التي صارت لأجل خلاص الجميع من كلّ فساد. في هذه المحبّة نجد الله نفسه، هو الكائن الذي لا يحدّه شيء على الإطلاق.

"أندهش لعظمة ذبيحة المسيح، للمحبّة اللامتناهية التي تعبّر عنها، لقوة الله وعظمته! أيها الرب يسوع المسيح! أنت دائم الحضور! نحن نراك، نلمسك، نعاينك ونشعر بحضرتك هنا! البركة القصوى للمسيحي ولا سيّما الكاهن، هي حضور الله في قلبه. إنه حياتنا! إنه مجدنا!"

بعد قراءتنا هذه السطور، نفهم معنى كلماته التالية: "خدمة الله هي غبطة في حدّ ذاتها".

الأسقف بنيامين الذي ورد ذكره آنفاً يكتب، بحقّ في هذا الصدد، معلّقاً على موقف الأب يوحنا في الليتورجيا:

"إذا ما بادر أحدهم الأب يوحنا بالسؤال عن "الفائدة أو المنفعة" التي نجنيها من الليتورجيا، فهو على الأرجح سينظر إلى محدثه بشيء من الاستغراب أو بالأحرى بشيء من الحزن قائلاً: "في القداس الإلهي تجتمع كل فائدة وكل ثمر روحي".

-٦-

"الليتورجيا" بطبيعتها جَماعية وليست فردية، حيث الكلمة نفسها تعني العبادة المشتركة.

في الليتورجيا يُجرى إتمام سر المحبّة. المحبّة في جوهرها " تُعْدي"، هي رحبة وشاملة. المحبّة، خصوصاً المحبّة الإلهية، تحمل ضوءها إلى الكلّ، هي تحمل الفرح إلى الجميع وتبتغي وحدة الجميع.

حسب تعليم المسيح، فإنّ الله قد خلق العالم من غنى محبته الذين خلقهم هو، وذلك حتى يشتركوا في غبطته. يبدو الأمر وكأن كأس محبّة الله قد فاضت خلال خلقه الكون.

هكذا أيضاً فاضت محبّة المسيح. فقد بذل نفسه ذبيحة لأجل خلاص الجميع، ليعيد إلى الله العالمَ الذي ابتعد عنه وسقط، ليعطي كلّ واحد إمكان المشاركة في وحدة المحبّة على حسب صورة كمال وحدة الأقانيم الثلاثة للثالوث القدوس على ما جاء في خطابه الوداعي نحو تلاميذه. صلّى يسوع المسيح، على وجه الخصوص، لأجل وحدة المحبّة وهو لأجل هذه الوحدة قرّب نفسه ذبيحة وهذه الذبيحة، وهي قمة تعبير المحبّة الإلهية للإنسان، تُستعاد في كلّ قدّاس إلهي. والمؤمنون الذين يتناولون جسد المسيح ودمه على شكل خبز وخمر، يشتركون في محبّته الإلهية ويحصلون على قوّتها الكلية القدرة. والأب يوحنا عرف هذا الأمر، ليس هذا وحسب، بل كان هذا ما يحرّك وجوده بالكلية.

ويكتب الأسقف بنيامين في كتابه "السماء على الأرض":

"ما هذا الفكر المفرح والمحيي القلب في آن معاً؟! أنَّ كلَّ المسيحيين الأرثوذكسيين يمثّلون ملكوتاً لله واحداً روحيّاً، جسداً واحداً، روحاً واحدة، كرمة واحدة ذات عناقيد كثيرة، والله بيسوع المسيح يملك، والروح القدس في كل عنقود يقيم... إعجاز القداس الإلهي هو في المحبّة الكلية القدرة التي تحضن العالم بأسره!... ليس فقط العالم الأرضي بل والسماوي أيضاً!"

إنّ الكنيسة في سر الشكر تصير جسداً واحداً، جسد المسيح. وقد عاش الأب يوحنا ذلك بكل كيانه: "لأننا إذ نحن في الكنيسة، شركة المؤمنين، نؤمن بالله متّحدين بجسد واحد رأسه المسيح"، وفي هذا الشأن كتب الأسقف بنيامين: "... فيجب علينا كأعضاء في الكنيسة، أن نحبَّ بعضنا بعضاً. ليس هناك من كنيسة دون محبّة. على كل الخليقة أن تجتمع حول الكنيسة، أن تصير إلى اتحاد واحد لأجل التقديس. كل ذلك يتحقق في القداس الإلهي".

ويقول الأب يوحنا: "إنَّ المنفعة من سر الشكر لا تُقاس لا على صعيد الكنيسة الأرثوذكسية قاطبة، ولا على صعيد الكون بأسره، ولا على صعيد مختلف الشعوب على تعدّد اعتقاداتها ودياناتها. فالذبيحة غير الدمويّة والصلوات تُقَدَّم إلى الله لأجل المسكونة كلّها. وإذ تُقام الذبيحة الإلهية، فإنّ الله يطيل أناته على خطايا العالم ويفيض عليه رحمته. يا لليتورجيا المدهشة! الكونية! ذات الغبطة!"

ولا بد لنا من أن نُوردَ، أخيراً، كلماته التالية:

"إذا لم يحصل العالم على جسد المسيح الطاهر ودمه الكريم، فإنّه لن يحصل على الخير الأسمى ـ الحياة الحقّة. ولن يحصل على هبة التقديس. نعم! هذه هي الخميرة الحقة للحياة الروحيّة السماويّة المقدّسة المعطاة للإنسانيّة قاطبة".

إنّ ما ورد حتى الآن حول سر الليتورجيا الإلهية يلقي الضوء على حياة الأب يوحنا فتظهر لنا كتسبيح للّه وتمجيد له. في بساطة القول، فإن مدوّناته هي عبارة عن صلاة تسبيح ، عبارة عن نشيد موجّه إلى الله. ولكن التسبيح والتمجيد والشكر والحمد هي، إلى حد كبير، الليتورجيا والقداس الإلهي الذي يتمّ خلالها. إسم السر نفسه يعني الشكر والإمتنان: "سر الشكر".

هكذا فهم الأب يوحنا المعنى العميق للذبيحة غير الدموية، لهذا أتت كتاباته ملأى بنور التسبيح والفرح والظفر . بالنسبة له لم يكن هناك من حياة داخل الكنيسة وحياة خارج الكنيسة. من خلال الصلاة كان يرى كلّ حوادث حياته عجيبةً، إنها التتمّة الطبيعية لتلك العجيبة الوحيدة الحاصلة في الكنيسة والمتممّة فوق المذبح المقدس.

في الفصول القادمة سنتعرض، بالتفصيل، لقناعاته كما تظهر من خلال أعماله. رغبنا هنا فقط في أن نظهر كيف عاش الأب يوحنا، من خلال كتاباته، الليتورجيا بعمق والتهاب قلب.

الفصل السادس

سرّ الاعتراف

-١-

لسنين طويلة جداً كان هناك رابط في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، يجمع بين سرّ الاعتراف والمناولة المقدّسة، فمن أراد المناولة كان يعترف إلى الله ليحصل منه، بواسطة الكاهن المعرِّف (أو الأسقف)، على حلّ خطاياه. وكان يسبق ممارسة هذين السرّين استعداد خاصّ، من متابعة للخدم الإلهيّة وصوم... وعُرّف عن هذه التهيئة في روسيّا باسم خاص: "غوفنييني".

سبق وأشرنا إلى أنَّ ممارسة الاعتراف والمناولة كانت تحصل مرّة في السنة. بالإضافة إلى الفقر الروحي العام وضعف الحياة في الكنيسة، كان الكهنة يعانون من مصاعب تقنية: فخلال أيام الصوم الأربعيني المقدّس، وخصوصاً خلال الأسبوعين الأوّل والرابع، كان تدّفق الناس على الاعتراف كبيراً إلى درجة كانت معها الاعترافات تتمّ على عجل، بشكل سطحي و"لإتمام الواجب"، فكان الكاهن لكثرة إرهاقه لا يستطيع اقتبال الاعتراف بكل ما يجب من الانتباه والعناية.

في وقت متأخّر لوحظ بعض التغيّر في الممارسة حيث بدأ بعض المؤمنين يذهبون إلى الاعتراف والمناولة بشكل أكثر تواتراً. بالإضافة إلى ما يعنيه هذا من تجدّد في الحياة الروحيّة، مكّن الكاهن من مساعدة المعترفين وإرشادهم، وفي الوقت عينه، ساعده في محاولته التغلب على صعوبة الاعترافات أثناء فترة الصوم فكان "يعطي الحلّ" هؤلاء الذين يعرفهم جيّداً بسبب اعترافاتهم المتكرّرة، أو يكتفي منهم باعتراف مقتضب دون أن يأتي هذا الأمر على حساب المعترف.

قليلون هم الذين كانت لهم الجرأة، أيام الأب يوحنا كرونشتادت، على تغيير التقليد القائم، إلاّ أنّه هو نفسه مَنْ قلب الأوضاع رأساً على عقب ورسم الطريق نحو التجدّد في هذا المجال.

إنّ الطريقة التي كان يتم بها الاعتراف لدى الأب يوحنا أذهلت معاصريه وما زالت إلى الآن. ولكن إلى الآن لم يجرِ استخلاص نتيجة عمليّة منها، فكثيرون يعتقدون أنّ التدفّق الهائل على الاعتراف لدى الأب يوحنا، وطول أناته لساعات طويلة من الاعترافات الفرديّة والعامة (أدخلها لاحقاً) كانا جزءاً من الشهادة لمواهبه الروحيّة المميّزة ولنسكه. كان الشعب يظنّ أنّها ممارسة وحيدة لا يمكن أن تتكرّر ولا يمكن، بالتالي، فرضها على الآخرين أو محاولتها أو التعلّم منها.

أما نحن فإنّنا لا نستطيع الموافقة على مثل هذه النظرة، فإذا كان الأب يوحنا رجلاً باراً عظيماً فعلينا، بالتالي، أن نتّبع مثاله ونسعى لفهم طريقة ممارسته سرّ الاعتراف. وأمّا إذا كنّا نظنّ أنّها حالة خاصّة بكاهن معيّن، فعلينا أيضاً واجب التفكير ملياً بها نظراً لتجاوب الشعب المدهش معها.

لسنا هنا في معرض الحديث عن الاستعداد الصحيح للاعتراف والمناولة، ويمكننا القول إنّ هذه المسألة قد أثيرت مع الأب يوحنا ووجدت لها حلاً بشكل من الأشكال من خلال ممارسته العمليّة لسرّ الاعتراف. ونحن نخطىء في روح الكنيسة ونتغرّب عنه إذا ما اعتقدنا أنّ هذه المساهمة كانت محصورة فقط في العديد من المؤمنين الذين كانوا يعترفون لدى الأب يوحنا شخصياً.

من الواضح أنّ الأب يوحنا لم يرغب في أن يأتي الناس للاعتراف لديه شخصياً ولكن جُلّ ما أراد أن يفهموه هو أنّهم حين يشتركون في الأسرار الطاهرة فإنّما يشربون من ينبوع الحياة، وأما عندما يعترفون فإنّهم يحصلون حقاً على مغفرة خطاياهم، كائناً من يكون الكاهن حامل الكأس أو واضع البطرشيل على رأس المعترف.

إنّ الأب يوحنا لفت الأنظار، في ما يتعلق بسرّ الاعتراف، أوّلاً بطريقة استماعه إلى الاعترافات الفرديّة، وثانياً بإحيائه الاعترافات العامّة، وأخيراً بسبب تحلّق جمع من المؤمنين حوله، هؤلاء الذين كان يعرّفهم ويناولهم الأسرار الطاهرة، ليس فقط مرّة في السنة بل بشكل متواتر.

إنّ فحوى الاعتراف الفردي هو سرّ تجب المحافظة عليه بحرص بين الكاهن والمعترف لذلك فإنّ كُنه الاعترافات بقي مجهولاً، لكنّ الروايات التي وصلتنا من شهود كثيرين تسمح لنا بأن نلقي بعض الضوء على هذا الموضوع.

ونقرأ في ما جاء في كتاب "حياة الأب سرجييف كرونشتادت وأعماله" (موسكو ١٨٩٣) ما يلي: "في بداية عمله الرعائي، إذ كان عدد الذين يعترفون خارج فترة الصوم الأربعيني المقدّس قليلاً جداً، كان يخصّص متّسعاً من الوقت لكلّ واحد منهم ولم يكن يرضى باعتراف بسيط وعرضي، بل عمد إلى فحص مشاعر المعترف الروحيّة ومعرفته الدينيّة. حدث في بعض المرّات أنّه قضى مع المعترف ساعات، وكان يؤجّل "إعطاء الحلّ" حتى يضطره إلى العودة مرّة بعد أخرى. ومع مرور السنين، زاد عدد الذين يعترفون لديه بشكل كبير. لم يكن يستقبل فقط المرضى من الناس للاعتراف يومياً بل الأصحاء أيضاً، وليس فقط عدداً منهم محدوداً بل مئات... لكنّه لم يلجأ أبداً إلى اعتراف شكلي، إلاّ أنّه، عوض ذلك، اضطر إلى التخلّي عن الاعتراف الفردي الخاصّ".

روايات أخرى تحدّثنا عن طول أناته وصبره الفائق أمام الجموع التي كانت تأتي إليه للاعتراف أثناء فترة الصوم الكبير. فما أكثر المرّات التي كان يتقبّل فيها اعترافات من الثانية بعد الظهر إلى الثانية بعد منتصف الليل دون انقطاع. وكان، أثناء الصوم الكبير، يزيد من حدة صومه المعتاد: بعض الخضار والفطر... وكان، عند الساعة الحادية عشرة، يقطع ساعات الاعتراف الاثنتي عشرة، لنصف ساعة من الوقت، ليأخذ قسطاً من الراحة، فكان يقوم بنزهة قصيرة ويتنشّق هواءً نقياً منعشاً قبل أن يتابع تقبّل الاعتراف الذي كان ينتهي غالباً في وقت متأخر بعد نصف الليل. كان يتقبّل الاعترافات أمام "القراية" لجهة الباب الملوكي للهيكل. يبقى واقفاً طيلة الوقت، متّكئاً على جانب "القراية" دون أنّ يجلس البتة.

كان منظر الكنيسة غريباً، الشعبُ بمختلف فئاته يملؤها: البعض جلوساً، البعض الآخر مستلقياً بعض الشيء على الأرض، كلّ ينتظر دوره. كان المال يوضع في صينية خاصّة والقسم الأكبر منه كان يوزّع مباشرة في تلك الساعة على الفقراء. في بعض الأحيان كان الأب يوحنا يتوقّف عن تقبّل الاعترافات لبرهة من الزمن

يقرأ خلالها بصوت جهوري صلوات توبة واعتراف، وأحياناً أخرى كان يمضي إلى الهيكل حيث كان يصلّي بدموع.

في بدايات التسعينات من القرن التاسع عشر، بلغ عدد المتقدّمين إلى الاعتراف ١٥٠ إلى ٣٠٠ شخص يومياً، أمّا أثناء الصوم الكبير فقد بلغ العدد خمسة آلاف أو ستة. حسب بعض الشهادات، فإنّ الأب يوحنا كان، في بعض الأحيان، يرفض بعض من يودّون الاعتراف. كان يكتفي بالتوجه إليهم بهذا القول: "أصلح سيرتك أوّلاً ثم تعال إلى الأسرار المقدّسة".

لمّا كان عدد الذين يتقدمون إليه للاعتراف يزداد سنة بعد سنة، ما يضطره إلى البقاء طيلة الليل حتى ساعات الفجر الأولى مستمعاً إليهم، فقد لجأ في الآونة الأخيرة من حياته إلى اعتماد الاعترافات العامّة، بعد أنّ أذنت له السلطة الكنسيّة العليا بالقيام بهذه الخطوة.

-٢-

حفظ البعض أوصافاً للاعترافات العامّة تلك. نعرض هنا شهادة كتبها المتقدّم في الكهنة ج. شافلسكي:

"من الصعب القول أية من طريقتَي الاعتراف، الخاصة أم العامة، كما كان الأب يوحنا يمارسهما، كانت تأتي بفائدة أكبر. فقد أُتيحت لنا فرصة الاستماع إلى اعترافات عامّة. كانت كاتدرائية القديس أندراوس الواسعة ملأى بالآلاف، أضواء القناديل وسط الليل، الأب يوحنا يقرأ صلوات اعتراف استعدادية من كلّ قلبه... كل كلمة كانت تدخل مباشرة إلى القلب ثم تليها عظة عن خطايانا: "قد أعطانا الله كلّ شيء، عنايته تحيط بنا في كلّ وقت... ونحن نستعمل خيراته لنصنع الشر. نلطّخ صورته، نزيد وقاحتنا تجاه محبته وكثرة آلامه. أيها الخطأة، توبوا". كان هذا دعاء الأب يوحنا وتنهّد القلوب يزداد شيئاً فشيئاً حتى تسمع، بعد ذلك، أصوات البكاء. وكان البكاء يتزايد كلّما سأل الأب يوحنا المعترفين عمّا إذا فعلوا هذه الخطايا أو تلك... في الحقيقة إنّ المشهد يهُزّ الروح من أعماقها. كانت فرصة لم يَتسنَّ لنا أن نشاهدها مرّة أخرى".

في بعض الأوصاف الدقيقة، يُذكر أنّ الأب يوحنا كان، أثناء الاعترافات العامّة، يُكلّم الشعب مبتدئاً بعظة موجّهة إلى الجميع، ثم يقرأ صلوات استعدادية ويشرح كلّ واحدة منها على انفراد رابطاً بين خطايا النبي داود والملك منسّى وتوبتهما وغفران الله لهما.

وقد كتب أحدهم يقول: "كانت العظة بسيطة، والناس يستمعون إليها في البداية دون أن يولوها أهميّة لكن، بين الحين والآخر، كانت تسمع تنهدات وأصوات عبرات... أنا أيضاً هزّني شعور عميق... قلبي المتحجّر بدأ يلين شيئاً فشيئاً... لكن ماذا حصل في هذا الوقت من حولي؟! كان الشعب يصرخ من كل جهة: "يا أبتي، إغفر". كان الأمر أشبه بالبحر المائج أما الأب يوحنا فكان بحركة من يده يلزمهم الهدوء قائلاً: "إهدأوا، إهدأوا! أصغوا!". وفي شرح الصلاة التالية، يتحدث الأب يوحنا عن التوبة كهبة من الله وأنّه يجب أن تكون لدينا إرادة راسخة ونيّة ثابتة في شأن التخلي عن حياتنا السابقة، وأن نصلح ذواتنا ونحب الله من كل قلبنا... ثم بعد ذلك فقط يبدأ بتعداد الخطايا، فيسأل: "هل كنتم قليلي الغيرة في الصلاة؟ هل تماديتم في شرب الكحول؟....الخ".

في الوقت عينه كانت تُسمع جلبة كبيرة: بعضهم يبكي، بعضهم الآخر يتنهد، كثيرون يعترفون بخطاياهم أمام المَلأ... أما الأب يوحنا فكان واقفاً وقد تحرك حشاه لهذا المنظر المؤثّر، وشفتاه تتمتمان صلوات... ودموع تسرح على وجهه. وبعد أن يعود الشعب إلى هدوئه، كان يتوجه إليهم بالقول: "أصغوا، سأقرأ أفاشين الحلّ. أحنوا رؤوسكم، سأضع البطرشيل على رأسكم، وسأباركم وستحصلون على غفران الله لخطاياكم".

وبعد قراءة أفاشين الحل، اعتاد الأب يوحنا أن يأخذ بطرف البطرشيل ويشير به إلى كلّ الجهات، ثم يبارك الشعب. بعد ذلك كانت المناولة تتم وتستغرق ساعتين. هذا الوصف الأخير يرجع إلى الاعترافات العامّة التي كانت تحصل خلال القداس الإلهي مباشرة قبل المناولة المقدّسة.

-٣-

اضطر الأب يوحنا، في السنوات الأخيرة من حياته، إلى الحد من الاعترافات الفرديّة أثناء فترة الصوم، وكان يقبل القيام بها في حالات جد استثنائية. لم يكن يطلب، من المقبلين إليه للاعتراف، الاستعدادات المعتادة في هذه الحالة، مثل الصوم مدّة أسبوع كامل والمواظبة على حضور الخدم الكنسيّة، ولا هو أبقى على سجلّ بالمعترفين جرياً على العادة في ذلك الزمان. مئات الأشخاص كانوا يأتون عند الأب يوحنا لاعترافات دوريّة على مدار السنة. معظم هؤلاء كانوا من سكان كرونشتادت وبطرسبرج، وآخرون يسكنون في أماكن بعيدة كانوا يأتون اليه للاعتراف مرّة في السنة، بينما كانوا في الأوقات الباقية يلجأون إلى كاهنهم المحلّي. هذه الدائرة من الأشخاص المتحلّقين حول الأب يوحنا، والذين كانوا يداومون على الاعتراف والمناولة، شكّلت ظاهرة جديدة، وهي الثمر النفيس لطريقة الأب يوحنا في الاعترافات والانتظام بها، وصارت هذه المجموعة من البشر حلقة من سلسلة حيّة وصلت إلى أيامنا الحاضرة. تقليدٌ من الاعتراف والمناولة المستمرّة ظهر إلى الوجود والأب يوحنا كان أحد أبرز المبادرين إلى إطلاق هذا التقليد.

لنا صلة بأشخاص عديدين مقرّبين كثيراً من الأب يوحنا وهم في أمانتهم لمبادئه، تابعوا، حتّى بعد وفاته، الاعتراف والمناولة بشكل مستمرّ. وقد تمكّنوا، بأقوالهم وأفعالهم، من إقناع غيرهم بسلوك مسلكهم ووجدوا من يحذو حذوهم من الذين كان لديهم حبّ كبير للحياة الليتورجية.

كثيرون من الأشخاص ما كانوا يخطون أيّة خطوة دون استشارة الأب يوحنا. فقد كان بالنسبة لهم نوعاً من "الستارتس أو إلْدر" (أي شيخ روحي) يسمعون كلمته ويعملون بها في كل الأمور. وإذ نحن مطّلعون على نمط الأب يوحنا، والذي سنتناوله بالتفصيل لاحقاً، لا نستطيع سوى الموافقة على ما كتبه المتقدّم في الكهنة شالفسكي:

"لم يكن لدى الأب يوحنا لا الوقت ولا الوسائل للقيام بمهمة الارشاد الروحي المنتظم، ولكن مجد عمله الرعائي بلغ حدّاً جعل كلّ كلماته تنفذ مباشرة إلى الأعماق. كانت تكفي، أحياناً كثيرة، نظرة منه أو كلمة لشفاء نفس شاردة وضائعة أو تجديدها":

الفصل السابع

الخدم الإلهية في الكنيسة

-١-

إنّ الذين عرفوا الأب يوحنا أو تابعوا مجرى حياته ومختلف نشاطاته يتحدثون دوماً عن روحه الفرحة والمشرقة التي كانت تتجلى أثناء إقامته الخدم في الكنيسة على وجه الخصوص.

هناك الكثير من الشواهد التي لا تحصى على هذا الحضور، الشفوية والمكتوبة. وسنكتفي، في هذا السياق، بعرض بعضها ممّا قد يكون الأكثر دلالةً.

كتب اللاهوتي الروسي اللامع ، رئيس الأساقفة خرابوفتشكي، ما يلي في ذكرى الأب يوحنا: "إن روح القديس نيقولاوس كانت ترشد الأب يوحنا كرونشتادت المفيض من روحه فرح تمجيد الله الذي كنا، نحن الخطأة، نتذوقه فقط يوم الفصح. غلب عليه الفرح أكثر من الحزن. قضى حياته بيننا شاهداً للإيمان، ظافراً ومنتصراً".

المتقدم في الكهنة فوستورغوف، الذي عرف الأب يوحنا شخصياً ولقي حتف الشهادة أثناء الثورة البولشفية، جعل عنوان كلمته في ذكرى الأب يوحنا، "الأب الفصحيّ". وكتب يقول: "كان الأب يوحنا كرونشتادت التجسيد الحي للفرح المسيحي. وهو، في هذا المعنى، قريب من روح القديس سيرافيم ساروف".

وأخيراً نورد كلمة الأسقف بنيامين من كتابه "السماء على الأرض": "... حتى ولو لم نكن على علم بما صنع من معجزات وصلوات وأعمال خير وفضيلة، فإنّنا نعلم، إلى هذا الجانب الخاص من روحه، امتنانه وتسبيحه وفرحه وابتهاجه، ما

يضطرّنا إلى القول: نعم، بالحقيقة هذا الإنسان رجل الله، رجل قديس".

كل الذين أدهشتهم روحانية الأب يوحنا المنيرة أدركوا جيداً أنها وليدة حياته الليتورجيّة، شعاع من سر الشكر. وكما يُستدل من الفصول السابقة، كان الأب يوحنا يعي تماماً أنّ استنارة نفسه تعود إلى إتمامه سرّ الشكر دون انقطاع. فمن خلال كهنوته عرف الله أكثر من أي طريق آخر. لهذا كان يحتفل بالقداس الإلهي بروح مفعمة بالحماسة أدهشت المؤمنين.

-٢-

جمع الأسقف بنيامين بعض الكلمات المدهشة للأب يوحنا حيث يظهر جوهر معرفة الله التي أدركها من خلال خدمته على المذبح المقدس:

"تبارك الله! إنّه ربّ المجد! إنّه مجد رهيب ومحيٍ! خليقته كلّها تتحدث بمجده وجلاله وعظمته. لكنّ الجاحد وابن الهلاك ظهر للعالم. وكنيسة الله لا تنفكّ إزاءه ترفع التسبيح والمجد لله بغير انقطاع".

وفي سياق حديثه يسأل: "أين ظهر مجد الثالوث القدوس في شكل خاص؟" ويجيب :"في الإنسان المخلوق على صورة الله وفي فاديه من خلال ذبيحة ابن الله... ويتجلّى هذا المجد أيضاً في القديسين".

و يعلّق الأسقف بنيامين، بهذه الكلمات، قائلاً: "يعبّر هنا عن أفكار كثيرة، ولكنّ واحدة هي الأساسية : الله في جوهره هو ربّ المجد".

لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك. مفتاح فرح الأب يوحنا الروحي والتهابه في إقامة الخدم الكنسية نعثر عليها هنا: في معرفة الله كربّ المجد.

من الصعب إيجاد تحديد لاهوتي للمجد الإلهي. ولكن من الممكن إدراكه كجمال فائق ينسكب وينعكس في الخليقة، كصلاح المحبة الإلهية، كجمال الكمال الإلهي. ما من شك في أن خبرة صوفية للمجد الإلهي، لمجد الكمال الإلهي، هي ما كان يلهم، بشكل رئيس، الأب يوحنا أثناء الذبيحة الإلهية.

بمقدورنا، على ضوء فهمنا طبع الأب يوحنا الروحي ــ الليتورجي، كما لاحظه الأسقف بنيامين، الشعور بشكل أكثر حيويّةً بالروايات، المفصّلة والمقتضبة، التي تصف كيفية احتفال الأب يوحنا بالغروب والقدّاس.

يعطينا الأسقف أنطوني أحَدَ هذه الأوصاف عنه فيقول: "صديقي وزميلي في الدراسة، أسقف تفار، مخائيل غريبانسكي، أعطاني شروحات عن تأثير الأب يوحنا المذهل على الشعب. قال لي: "إنَّ الأب يوحنا هو الإنسان الذي يتحدّث إلى الله والناس من معين قلبه فقط... وهذا أرفع مستوى روحي للصدق والحقيقة". ويتابع الأسقف أنطوني قوله: "لم يَحِدْ الأب يوحنا إطلاقاً، في خدمته لله وللكنيسة، عن هذا الخط، أي عن الحقيقة، وهذا معناه أنَّ تصرفه كان بعيداً كلّ البعد عن التمثيل والتصنّع".

ونعثر على وصف آخر في كتاب "يوحنا إليتش سرجييف" لسابين(Sabine): "إن صوت الأب يوحنا الهادىء، نبرته، صدقه العميق ورسوخ اعتقاده في ما كان يقرأه، غيرته الإلهية، كلّ هذا كان يترك في النفس انطباعاً عميقاً".

يعطينا الأسقف افدوكموف متشرسكي وصفاً عاماً مشابهاً عندما يقول: "إنّنا نشعر أنّ كلماته تنبع من قلب طاهر، عميق ومؤمن. هذه الكلمات تصير جسداً، تصير حياة، تصير فعلاً".

خدمة الأب يوحنا تركت انطباعات عميقة في نفوس الذين عاونوه في الهيكل المقدّس. شاهد عيان لخدمة أُقيمت في دير ثيرابون (في مقاطعة نوفغورود) كتب ما يلي، في كتاب "حياة أرثوذكسية" (١٩٥٢) :" كلّ الذين وُجدوا في الهيكل شعروا برهبةٍ وامتلكهم شعور بخطيئتهم عميق، حتى أنَّ أحداً منهم لم يجرؤ على رفع عينيه في وجه الكاهن الذي كان يقيم الخدمة".

و يكتب آخر عمّا شهده أثناء القداس الإلهي في أحد أديرة بطرسبرج:

"كانت الكنيسة ملأى، أمّا الكهنة في الهيكل فقد كثر عددهم ، لكنّ الأب يوحنا كان يقوم بالخدمة دون أن يعير انتباهه لأحد. كان متّجهاً كلياً نحو الله،

يتفوّه بالإعلانات والصلوات بشكل واضح، جليّ، ومن كل قلبه. وبينما كان يتناول الأسرار الطاهرة كانت الدموع تغطّي وجنتيه".

-٤-

كثيرة هي الأوصاف التي تخبرنا عن الطريقة المبدعة التي كان الأب يوحنا يقيم بها الخدم الإلهية وعن الوقع الكبير والأثر الطيب اللذَيْن كانت تتركهما في نفس الشعب في مختلف طبقاته. لا يسعنا في هذا المجال سوى الاستشهاد ببعضها، الأهمّ بينها والأبلغ، ونحن ندرك جيداً، من خلال مطالعتنا إيّاها، الظروف الصعبة والاستثنائية التي حاول فيها إتمام جهاد الصلاة خاصّةً.

كان الأب يوحنا خلال القسم الأكبر من حياته الكهنوتية، يحتفل يوميّاً بالقدّاس الإلهي، باستثناء أيّام السفر. اعتاد أن يقيم القدّاس باكراً في الصباح، أيام الأسبوع، مباشرة بعد خدمة الساعة السادسة.

ما سنعرضه من شهادات يعود بشكل أساسي إلى هذه الفترة من حياته وقد صار فيها المسؤول الأوّل عن الكاتدرائية و طارت شهرته في الآفاق.... أثناء هذه الفترة من حياته، لم يكن بوسعه الذهاب إلى الكنيسة سيراً على القدمَيْن بل توجّب عليه ركوب عربة إذ، منذ ساعات الصباح الاولى، كان جمع غفير من الناس يجتمع حول بيته ويجعل بلوغ الكنيسة مشياً على القدمَيْن أمراً متعذراً عليه. وأثناء هذه الفترة أيضاً، بُني سياج خاص حول الهيكل لأجله يوصله مباشرة إلى مذبح الكنيسة، إذ كان يستحيل عليه بلوغه إذا ما حاول عبور الكنيسة! وهكذا، كان أوّل من يراه في الكنيسة أولئك الحاضرون في الهيكل من كهنة وخدام.

ويصف لنا الأسقف إفدوكيموف عندما كان طالباً دخول الأب يوحنا إلى الهيكل، فيقول:

"كان الأب يوحنا متوسط القامة، رشيق الحركة، حيوياً. تعابير وجهه توحي بالصرامة وانشغال الذهن بالتأمل، فيظنّه المرء رجلاً فظّاً وقاسياً. كان من عادته أن يحيّينا ويباركنا قائلاً:

"صباح الخير يا أخوة، صباح الخير. لنقبّل بعضنا قبلة أخوية". كان يقوم بكل ما يفعله بسرعة واقتضاب. أمّا ثيابه الكهنوتية فكانت حمراء اللون، كان هذا لونه المفضل".

ويتابع الأسقف بنيامين حديثه فيخبرنا كيف أنَّ الأب يوحنا، حتى داخل الهيكلّ، ما كان ليجد الهدوء، إذ كان الناس يقصدونه هناك لأسباب مختلفة. وعادته أن يدنو منهم، مُربّتاً على أكتافهم أو مظهراً حركة لطيفة.

كان يقرأ المزامير السحرية دوماً من "القراية"، ويتابع شاهد العيان نفسه فيقول:

"كان يقرأ كمن يتحدث مع الله، صوته واضح مدوّ، ونطقه فصيح أثناء القراءة، في بعض الأحيان كان يبدو وكأنه غير مرتاح فكانَ يحني رقبته إلى الأمام ناحية الكتاب، مرّات أخرى كان يجثو عند ترتيل الإرمس، مغطّياً وجهه بيديه . كانت صلاته الحارة والصادقة، النابعة من أعماق قلب طاهر، السبب الذي يكمن وراء كل الايماءات، ولم يكن الأمر أبداً، كما كان يقال في بعض الأحيان، ناتجاً عن مرض عصبي. أمّا بعد قراءته قانون السحر فكان يعود إلى الهيكل ويغرق في صلاته العميقة أمام المذبح المقدس. وحالما تبدأ الجوقة ترتيل الأودية السحرية يرجع إلى "القرّاية"، يرتل معها ويقودها بنفسه، مؤدّياً الكلمات والمعاني من خلال ضبطه لسرعة الايقاع في سعيه إلى إبراز معنى الترتيلة".

بشكل عام، كان الأب يوحنا يتمّم الخدمة في وقت قصير نسبياً، ولم يكن يروق له ترتيل المرتلين البطيء والمطوّل.

-٥-

مع حلول الثمانينات من القرن التاسع عشر، كان عدد الرسائل والتلغرافات التي ترد إلى الأب يوحنا قد صار عظيماً جداً. أما في التسعينيات، فقد صارت رسائله تسلم إليه يومياً من قبل ساعي بريد خاص يحضرها داخل صناديق، مباشرة، من مركز البريد في المدينة. فيستلمها السكرتير مهتماً بالتلغرافات والحوالات البريدية أوّلاً، فيكتب أسماء المرسلين على ورقة خاصة من أجل الصلاة لهم

ويودعها الأب يوحنا قبل بَدْء الليتورجيا. يكفي هذا الأمر ليظهر لنا كم كان إتمام الأب يوحنا خدمة تقدمة القرابين مختلفاً عما كان معمولاً به آنذاك. وحسب ما ورد عند العديد من كتّاب سيرته، فإنّ عدد القرابين التي كان يؤتى بها إلى الهيكل هائلاً بحيث ترتّب نقلها في سلال كبيرة وبلغت، في بعض الأحيان من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف قربانة. وكان الأب يوحنا يكتفي بأن يأخذ أجزاء من بضع قرابين من كلّ سلّة ويقرأ قسماً من الأسماء. وحتى في هذه الطريقة فإنّ خدمة تقدمة القرابين كانت تستغرق معه وقتاً طويلاً.

وقد كتب المتروبوليت إيفلويي ما يلي:

"كانت لي الفرصة أن أكون حاضراً مرة في وقت مبكر من الليتورجيا، ولاحظت الطريقة المدهشة التي كان الأب يوحنا يؤدّي بها الخدمة: خدمة تقدمة القرابين مع آلاف الأسماء. كان يقرأها أحياناً بصوت مرتفع وأحياناً أخرى بشكل غير مسموع".

شاهد آخر يخبرنا كيف أنَّ الكثيرين من الحاضرين في الهيكل كانوا يسألون الأب يوحنا أن يذكر أنسباءهم، ولمّا لم يكن لديه وقت لذكر الأسماء، كان يرفع هذا الصلاة: "أذكر، يا رب، جميع الذين طُلبت الصلاة لأجلهم".

كانت خدمة تقدمة القرابين بالنسبة إلى الأب يوحنا، استناداً إلى المصادر المكتوبة والشفوية، جزءاً أساسيّاً من الليتورجيا. ولمّا كان لا يستطيع تمالك مشاعره، كان يقول للمشاركين معه في الخدمة:

"أبانا نقولا، هلمّ انظر! أبانا بولس، تعال أنظر! في أي مكان آخر بإمكاننا أن نعاين أمراً مشابهاً؟ انظر، هوذا المسيح نفسه! إنّه هنا معنا وفي ما بيننا كما قال للرسل".

والشهادة التالية تتعلق بخدمة تقدمة القرابين:

"مرّة، أثناء خدمة السحر، جثا الأب يوحنا على ركبتيه أمام المذبح المقدس، ملقياً رأسه عليه، بين يديه قصاصات ورق كُتِبت عليها مجموعة من الأسماء، أسماء مرضى وراقدين. كان يصلي من أجلهم".

ويكتب الأسقف بنيامين مستشهداً بأقوال الأب يوحنا: "أخْـذ الأجـزاء مـن القرابين وذكْر الأسماء يجب أن يتمّا بمنتهى المحبة".

يمكننا العثـور، في كتابـات الأب يوحنـا، علـى الكثـير مـن الأقـوال المتعلقـة بالصينيّة المقدّسة التي تتمّ عليها خدمة تقدمة القرابين، والتي عنـد إنجازهـا ترمـز إلى الكنيسة الجامعة.

"القدّاس الإلهي هو العشـاء الأخـير، مـائدة محبـة الله للجنـس البشـري. إلى جانب حمل الله على الصينية المقدسة، يجتمع الأحيـاء والراقـدون الأبـرار والخطـأة، الكنيسة المجاهدة والكنيسة الظافرة".

-٦-

في ما يختصّ بالقدّاس الإلهي نفسه، قدّاس الموعوظـين وقـدّاس المؤمنـين علـى حدّ سواء، تُجمع الشهادات كلّها على أنّ الأب يوحنا كان يتمّمه بورع وحـرارة. وإليكم ما يذكره الأسـقف إفدوكيمـوف في مذكّراتـه كطـالب بعنـوان "يومـان في كرونشتادت":

"كان الأب يوحنا يتلو إعلانات الطلبات بالطريقة نفسها التي كان يقرأ فيها المزامير السحرية. كان صوته يعكس مشاعره العذبة، وكانت عينـاه دومـاً نـاظرتَيْن إلى أسفل، أمّا الأفاشين فكان يقرأهـا بصـوت منخفـض مـن غـير أن يفتـح كتـاب الخدمة، فهو يعرفها عن ظهر قلب. وكلّما قرب وقت استحالة الروح القدس علـى القرابين المقدسة، كلّما ارتفعت مشاعره القلبيّة، إذ ينعكس ذلك من خـلال صوتـه وملامح وجهه. التقوى والورع كانا يبدوان عليه بشكل خاص عندما يحنـي رأسـه أمام القرابين المقدسة. لم يكن يرسم إشارة الصليب على صدره، لكنه كان يـذرف دموعاً بغزارة ويمسحها باستمرار".

"ها قد تناول الأب يوحنا جسد الربّ ودمـه. وتستطيع الآن أن تـرى علـى وجهه الفرح السماوي والعزم والقوة! إنّه مضيء ومنير!".

هناك شهادات أخرى مشابهة تصف الاحتفـال بـالقدّاس الإلهـي. واحـدة منهـا يعـود فيهـا المتقـدّم في الكهنـة سـرجيوس تشـرفريكوف بالذكرى إلى أيـام دراسـته في

أكاديمية موسكو اللاهوتية، إذ يخبرنا فيها عن قدّاس إلهي أقامه الأب يوحنا في دير الثالوث القدوس (للقديس سرجيوس) وهي وردت في مذكرات له غير منشورة:

"لقد تأثرت كثيراً في تلك الأيام بإلهام الأب يوحنا العجيب والحارّ في آن. كان يقيم الخدمة كمن تلتهب النار في داخله. لم أشهد أبداً في حياتي، لا قبل ذلك الوقت ولا بعده، مثل هذه الخدمة الحارّة. بالحقيقة كأنه كان القديس سيرافيم واقفاً أمام الله. بدا الكهنة الآخرون المشاركون في الخدمة، ومن بينهم عميد أكاديميّتنا، بالمقارنة مع الأب يوحنا، جامدين، عديمي الحياة، كقطع خشبية، أمّا وجه الأب يوحنا فكانت تغطيه الدموع باستمرار وحركاته كلّها كانت سريعة مقتضبة".

-٧-

إلى جانب ما أوردناه حتى الآن، لا بدّ لنا من أن نأتي على ذكر تلك الصلوات الفردية، الخاصة بالأب يوحنا، والتي أضافها هنا وهناك إلى نصوص الصلوات الليتورجيّة في سبيل تعزيز روح صلاته. فحوى هذه الصلوات فيض من خبرات شخصية، ولقد وجد الأب أنه من المفيد أن يعرفها الآخرون، هذه الصلوات لم تخالف أبداً نصوص الخدمة الإفخارستيا، بل أتت مرافقة لها. وكما أنّ موسيقى التسابيح الكنسية لا تبترُ القطع المرتلة ولا تُفسد معانيها، ولكن تعطيها حيوية وقبولاً، كذلك كانت هذه الصلوات الإضافية تساعد الأب يوحنا في أداء قيثارته الروحية الداخلية. ولما نشر هذه الصلوات لم يحلم البتة بفرضها على أحد، بل اكتفى بتقديمها كما يفعل مؤلّف الموسيقى الكنسية عند تقديم ألحانه ونغماته إلى الذين يودّون استعمالها.

فبعد وضع القرابين المكرّمة على المذبح المقدس، وعند الانتهاء من إفشين التقدمة:

".... وأهلّنا أن نجد نعمة أمامك لتكون ذبيحتنا حسنة القبول لديك ويحلّ روح نعمتك الصالح علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة وعلى كلّ شعبك"، كان الأب يوحنا يضيف ما يلي:"... وكلّ الشباب والأولاد، الرجال والنساء، رجال الدين والعلمانيّون، العمال، الرهبان والنساك، الذين في جوع وعطش، الأيتام،

الذين تعرضوا للحريق وللفيضانات والهزّات الأرضية، والذين يعانون من سوء المحاصيل والمجاعة".

تعداد كلّ هذه الفئات يشكّل ميزة عند الأب يوحنا ونعثر على مثيل لها في الكتب الليتورجيّة القديمة. والصلاة في الدرجة الأولى لأجل الأطفال ميزة أخرى عنده، وكذلك تعداد الكوارث الوطنية مثل الحريق وسوء المحاصيل. في هذه تعبيرٌ عن مشاعره تجاه الواقع، ودلالة على واقعيته الروحيّة.

أما بعد تقبيله مشاركيه في الخدمة بعد الإعلان: "لنحبَّ بعضنا بعضاً"، فكان يضيف إلى "الله معنا وفيما بيننا"، عبارة "حيٌّ وفاعل".

وبعد قراءة دستور الإيمان، كان الأب يوحنا يضيف: "شدّد قلبي وقلوب جميع الأرثوذكسيين في هذا الإيمان... وحِّد في هذا الإيمان كلّ الكنائس المسيحية التي سقطت بعيداً عن الكنيسة المقدسة الأرثوذكسية الجامعة الرسولية، لاشِ مقاومة معلّميهم واهدِ قلوبهم إلى التواضع، هبْ قلوبهم فهم نعمة الكنيسة الحقة المخلّصة، وحِّدهم بها دون تأخير، وحِّدنا جميعاً في هذا الإيمان بروح التواضع والوداعة والبساطة والصدق والصبر والتعاطف والابتهاج لسعادة الآخرين".

وبعد الإعلان: "لنرفع قلوبنا إلى فوق" اعتاد الأب يوحنا أن يقول :"يا الله إرفع أنت إلى فوق قلوبنا المشدودة إلى أسفل".

إضافاته كانت تتم أحياناً في صلب أفاشين الخدمة وليس فقط في نهايتها كما هي الحال في إفشين "بحق وواجب نسبّحك ونباركك ونحمدك....."، بعد الكلمات "ولما سقطنا عدت فأقمتنا": كان يضيف "وأنهضت الساقطين والتائبين يوميّاً مئات المرات".

هنا نعثر على اللازمة التي يكررّها دوماً في مدوّناته: الأعجوبة اليومية لنهوض النفس الغارقة في موت روحي.

تجمع الشهادات على أنّه كان يقول "التي لك مما لك نقدّمها لك على كل شيء ومن جهة كل شيء"، بنبرة ملهمة ويتابع بالطريقة عينها بقية الصلوات اللاحقة بها. وعندما يبارك القدسات، (بعد استحالة القرابين)، كان يضيف بعد

"آمين، آمين، آمين"، تلك الكلّمات: "الله ظهر في الجسد"(١تيم ٣:١٦) و"الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا"(يو ١:١٤).

وكان الأب يوحنا في اتباعه الدقيق لروح الكنيسة الأولى، في شأن قائمة أسماء الراقدين والأحياء بعد تقديس القرابين، يصرّ على أنّه: "يجب أن نصلّي بحرارة، من أجل الأحياء والراقدين، أثناء القدّاس الإلهي، خاصة بعد استحالة القرابين". وكان يقول: "صلّ لأجل الجميع، أكان قريباً أم بعيداً، بكلّ صدق، لأنّنا بصلاتنا القلبية الحقيقيّة نستطيع الاتصال روحياً بكلّ واحد منهم من خلال محبتّنا لهم بالصلاة، نستطيع أن نقرّب إلينا أخوتنا البشر بحيث يكونون في قلوبنا ونحن نستطيع أن نندّي قلوبهم ونساعدهم".

وكان الأب يوحنا بعد تناوله، وفي إضافته الأخيرة للنص الليتورجي، يقول: "الرب، الإله والإنسان، هو فيّ بذاته، أقنومياً، مطهّراً مؤلّهاً، ظافراً، مجدّداً".

- ٨ -

كانت خدمة المناولة المقدسة تطرح مشكلة عندما يقيم الأب يوحنا الخدمة إذ كان ما لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص يرغبون بتناول جسد المسيح ودمه، خصوصاً في فترة الصوم الكبير! لذلك كان يوجد على المذبح ١٢ كأساً مقدّسة! وقد حدث بعض المرات أن منع من المناولة بعض الأشخاص، خصوصاً المدعوّين "اليوحناويّين" وهم أعضاء شيعة كانت تسعى إلى تأليه الأب يوحنا. سنأتي على ذكرهم في ما بعد.

ولما كانت المناولة تستغرق وقتاً طويلاً، كان الأب يوحنا ينزع الأفلونية لتسهيل الأمر عليه.

كثيراً ما كان الأب يوحنا، في عظاته، يدعو المؤمنين إلى الإقبال على المناولة المقدسة بشكلّ متواتر، مذكّراً إياهم بمسيحيي القرون الأولى الذين كانوا يشتركون في الأسرار الطاهرة، إن لم يكن كلّ يوم فعلى الأقل نهار الأحد. وكان يشير عليهم بأنّه لا بحل للتقديس من دون المناولة.

كان يحزن أمام لامبالاة البعض وموقفهم من الخدم الإلهية، وهم يجهلون كلياً الأفاشين التي يقرأها الكاهن أثناء القدّاس، والتي عرفت "بالأفاشين السرّية" وقال في هذا الصدد:

"صلوات كثيرة يقرأها الكاهن أو الأسقف بشكلّ سريّ سيكون أكثر نفعاً وأشدّ جذباً لعقول المسيحيين وقلوبهم أن يعوها ويعرفوها في سياق النص الكامل للقداس الإلهي".

وبعد انتهاء القدّاس درج الأب يوحنا، في بعض الأحيان، على البقاء في الكنيسة لمقابلة بعض الأشخاص ومتابعة بعض الرسائل الطارئة.

الفصل الثامن

النظرة إلى الكهنوت

-١-

كان الأب يوحنا كاهناً مميزاً، غير اعتيادي، جمع وضوح النظرة لجهة المعنى السامي للكهنوت.

في الأيام التي عاش فيها، لم يكن الناس ينظرون إلى الكهنوت نظرة سامية. فالمجتمع الروسي، كما ظهر لنا من خلال الفصول السابقة، كان قليل الاستعداد لينفذ إلى المعنى العميق للكهنوت، ففكرة خدمة الدولة، وفي وقت لاحق، خدمة الشعب هي المبادىء التي راجت وطغت على حساب خدمة الكنيسة. وإذا كانت نهاية القرن التاسع عشر قد شهدت وعياً لمعنى الكهنوت، فإنَّ هذا الوعي كان مركزه الأساسي عمل الكاهن الرعائي. فقد عُوّل على الكاهن إتمام بعض المهام الاجتماعية، رفع المستوى الخُلُقيّ ودعم الأوضاع الحكوميّة والشعبيّة القائمة.

أما الأب يوحنا فكان يعي أهمية العمل الرعائي ومعناه لكنّه، في المقام الأوّل، كان ينظر إلى الكاهن كخادم للأسرار، لأجل تقديس الإنسان وتجديده وتأليهه. وهو يدرك جيداً أن قوة الكاهن كلّها تنبع من حضوره الصلاتي أمام مذبح الله، وبشكل أساسي من خلال إتمام سرّ الكنيسة ـ سر الإفخارستيا.

في تعليمه حول الكهنوت وحول الوحدة غير المنظورة القائمة بين الكاهن والجماعة الكنسيّة، كان يعود دوماً إلى تعليم آباء الكنيسة، لا سيّما منهم القديس يوحنا الذهبي الفم الذي كان يقرأه دوماً. لكنّ مثل هذا التعليم جديدٌ بالكلية في عصره وقد سبق الطروحات التي يجري التحدّث عنها في أوساط معاصرة بدأ يُلاحظ فيها بروز الوعي الكنسيّ.

-٢-

وتحيط دوماً بحديث الأب يوحنا عن الكهنوت جلالةٌ ومهابةٌ تجعلانه شبيهاً، إلى حدّ كبير، بأحاديثه عن الليتورجيا. ونادراً ما كان يغفل ذكر الكهنوت حين يتحدّث عن الليتورجيا وهو، في هذا الخط، يرفع دائماً ألحاظه إلى ينبوع التقديس وكاهن الأسرار كافة ـ يسوع المسيح نفسه.

وكما رأينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، فهو منذ عظته الأولى يذكّر رعيته بما يلي: "المسيح هو رئيس الكهنة الوحيد. الأوّل والأخير... هو نفسه يتمّم كهنوتنا فينا ومن خلالنا". وهذه اللازمة تتكرّر دائماً في عظاته وكلماته. استعادها من جديد في الذكرى الخامسة والثلاثين لكهنوته فقال: "كهنوتي وكهنوت الآخرين هو كهنوت المسيح. المسيح فقط هو الكاهن الحقيقي والأسمى، هو نفسه يتمّم خدمة الكهنوت من خلالنا. هو الكاهن الأبدي على رتبة ملكيصادق".

-٣-

و تعكس كتابات الأب يوحنا وعيه العميق لسموّ الكهنوت، فيقول في إحداها: "الكاهن إنسان عظيم وسام أثناء احتفاله بالخدم اليوميّة، وعلى نحو خاص أثناء إتمامه سرّ الشكر. منحه الله سلطة عظيمة. هو كلّي الاقتدار وباستطاعته أن يدافع أمام الله عن العالم بأسره".

وفي مكان آخر يشرح، بتفصيل أكبر، ما يجب أن نفهم "بالسلطة العظيمة الممنوحة من الله" فيقول: "عظيم الكهنوت وعجيبة النعمة المرتبطة به! بالكهنوت يحقّق الله أعمالاً عظيمة وخلاصية بين البشر: يطهّر الناس والحيوانات والعناصر كافة ويقدّسها، يحرّر البشر من أعمال الشرّير المفسدة النفس، يحيي ويعطي القوة، يحوّل الخبز والخمر إلى جسد ودم الإله ــ الإنسان نفسه، يزوّج الشعوب ويجعل الزواج شريفاً والمخدع الزوجي طاهراً، يغفر الخطايا، يشفي المرضى، يجعل الأرض سماءً، يوحّد بين الأرض والسماء، ويُتّحد الإنسان به، يجمع بين الملائكة والبشر في اتحاد واحد.... ما الذي ينقص هؤلاء الشعوب الذين لا كهنوت لديهم! هم محرومون من الخلاص. ليس عبثاً أنّ الرب الذي يتمّم خلاصنا يُدعى رئيس الكهنة،

هو مؤسّس الكهنوت ومحقّقه مقيماً إياه على الأرض بالروح القدس الذي يقدّس ويتمّم".

وفي مكان آخر، يدعو الأبُ يوحنا الكاهنَ ملاكاً:

"مَنْ هذا الإنسان العظيم، هذا الكاهن! تراه دائماً في حديث مع الله والله دوماً يستجيب له! في كلّ خدمة، في كلّ صلاة، يتحدّث مع الله، والله، في كلّ خدمة وكلّ صلاة، يستجيب له! الكاهن ملاك، وليس إنساناً!"

ويضيف في هذا السياق تصريحاً أكثر جرأة، فيقول:

"الكاهن وسيط بين الله والناس! إنّه الصديق الأقرب إلى الله! كأنّما هو الله بالنسبة إلى البشر، ممنوحاً السلطة لغفران الخطايا ومحو الذنوب وإقامة الأسرار المحيية الرهيبة التي بها يتألّه هو والآخرون".

-٤-

إذا كان الأب يوحنا يعتبر الكاهن الذي مُنح سلطةً كهذه من الله ملاكاً أكثر منه إنساناً، فإنّه لا ينسى إطلاقاً أنّ السلطة الأولى الممنوحة من الله لعمل التقديس إنّما هي سلطة الأسقف بكلّ تأكيد:

"الأسقف في أبرشيته هو، بعد الله ووالدة الإله، نبع التقديس لكلّ المسيحيين الذين هم تحت رعايته. وعليه، يجدر بكلّ واحد أن يحبّه ويكرّمه ويحترمه كثيراً كونه المقيم الأول لسرّ الشكر".

هذه "السلطة" الممنوحة للكاهن تترتّب عليها مسؤوليّة رهيبة. وهذا ما يشدّد عليه الأب يوحنا بشكل خاص، فيربط بين مسؤوليّة الكاهن من جهة والقداسة والكمال اللامتناهيين لليتورجيا وسرّ الإفخارستيا من جهة أخرى. ولا ينسى أبداً أنّ الذبيحة غير الدموية هي تذكار سريّ لذبيحة الرب والتعبير الأسمى عن محبّته للبشر. لذا وجب على الكاهن المقيم الذبيحة، بموجب السلطة الممنوحة إليه، اقتناء المحبّة الإلهيّة. ويقول الأب يوحنا في هذا الشأن:

"على الكاهن، في المقام الأول، أن يقتني بنعمة الله المحبّة الإنجيليّة. فهو يحتاج إليها كلّ دقيقة، كلّ ثانية... وأكثر ما يحتاج إليها حينما يقيم سرّ الشكر الذي هو، بالكلّية، سرّ محبّة الله اللامحدودة للجنس البشري. في هذا السرّ، سرّ الشكر أو سرّ مناولة جسد المسيح ودمه، تتجلّى المحبّة الإلهيّة نفسها بكلّ جلالها: عندما يبلغ السيّد نفسه التواضع الأقصى من أجل خلاصنا، مانحاً إيّانا نفسه مأكلاً ومشرباً. على الكاهن أثناء الليتورجيا أن يمتلىء بالمحبة لله وللبشر، كلّ البشر، وقد افتداهم المسيح بدمه!".

-٥-

المحبّة الإلهيّة هي هبة الروح القدس العظمى، واقتناؤها هو غاية كلّ مسيحي. وهذا لا يتحقق إلاّ بالتسليم كلّياً لله. لأجل ذلك على الكاهن أن يمارس نكران الذات والتحرّر من الأهواء. وفي تعبيره عن ذلك يقول:

"يجب على الكاهن ألاّ يكنّ غضباً أو حقداً على أحد، وألاّ يعبر حتى ظلّهما في قلبه. كلّ شهوة أرضية، لمأكل، لثياب، لزينة، لامتيازات رسمية، لأشخاص، كلّ هذه الشهوات يجب أن تكون غريبة عنه".

هناك إصرار في حديث الأب يوحنا على حاجة الكاهن إلى أن يكون عديم الأهواء وذلك في سبيل اقتناء المحبّة الإلهيّة:

"ما القلب النقي، الغريب عن كل انجذاب أرضي، الذي على الكاهن امتلاكه لأجل أن يكون إناءً للمحبّة الإلهيّة، للمحبّة المقدّسة، للمحبّة الملتهبة تجاه الجنس البشري كلّه. على الكاهن، حتى يرفع إلى الله الذبيحة غير الدموية من أجل العالم، أن يكون ملاكاً عديم الأهواء، سماوياً بالكلية، شعلة محبة لله وللناس! ما نقاوة شفتي الكاهن اللتين بهما يلفظ دوماً الاسم القدوس، اسم الآب والابن والروح القدس! ما نقاوة القلب حتى يحوي حلاوة هذا الاسم المجيد وبهاءه ويشعر بهما! كم عليه أن يبتعد بشكل قطعي عن كلّ شهوة جسدية ولا يسمح لها بأن تصير جسداً، حيث روح الله لا يمكن أن يقيم!".

وعلى الصفحة ذاتها من مدوّناته كتب مضيفاً ما يلي:

"كيف يمكن لكاهن أن يهتم بملّذات أرضيّة عندما تكون حاجته الملحّة هي إلى الله وسعادته الوحيدة هي فيه؟ ما هي التسليات الأرضية لذلك الذي يأتي إليه هذا العدد الكبير من الأبناء الروحيين حاملين معهم مختلف حاجاتهم المادية والروحيّة؟ ما هي الملذات الأرضيّة بالنسبة إلى كاهن عندما يجب عليه أن يكون باستمرار في الكنيسة لأجل الخدمة، وأمام مذبح الله؟".

ولعلمه بضعف كلّ البشر، فهو لا يتأخر عن التنبيه إلى المخاطر التي يثيرها الجسد:

"أنت يا كاهن الله، خادم العليّ الخالق، تمّمْ سرّ الشكر بورع وخوف الله، خصوصاً إذا ما كنت تقيمه يومياً، فلا تجعل بطنك مطحنة للشراهة، بل احفظْ وصية السيّد بوجوب الصوم، أنصتْ بانتباه إلى صوتك الداخلي وإلى ما يقوله لك الآخرون وخلّصْ نفسك والشعب معك".

ويشير أيضاً إلى أمر آخر، إلى وجوب عدم محبّة الفضة:

"عندما تقوم بعمل الله، لا تفكرْ بتاتاً بالمال. لا تُغظْ روح الله ولا تُثِرْها ولا تَبِعْ مواهب الله، حتى لا تفنى أنت والمال الذي معك!"

-٦-

ليس على الكاهن أن يقي نفسه هذه المخاطر فقط، ولكن عليه وقاية نفسه عدم الطهارة والأنانية والمشاعر الرديئة. لا يكفُّ الأب يوحنا عن الإشارة إلى هذه المخاطر كما إلى غيرها مثل الخوف والجبن:

"يا خادم المذبح، أنت تمثّل الإيمان والكنيسة، أنت تمثّل المسيح نفسه. عليك أن تكون مثال الوداعة والشجاعة والطهارة والصبر والثبات. أنت تقوم بعمل الله فيجب ألاّ تهاب أحداً، لا تكن مستعبداً لأحد ولا تترفّع على أحد، واعتبرْ أنّ عملك أسمى من كلّ أعمال البشر".

ويشدّد على هذه الفكرة في مكان آخر أيضاً:

"الكاهن، كملاك الإله العليّ، عليه أن يرتفع عن كلّ هوى وكلّ شهوة وكلّ باطل، فهذه من عمل الشيطان. عليه أن يكون متّحداً كلّياً بالله. إيّاه وحده يحب وإيّاه وحده يخاف، أما خوفه البشرَ فدلالة على عدم تسليمه الكلّي لله".

-٧-

ولكن، كما هي الحال بالنسبة إلى جميع المسيحيين، كذلك على الكاهن ألاّ يكتفي بتجنّب الضعف، بل أن يتولّد لديه سعي إيجابي، فعلى سبيل المثال: على الكاهن، بعيداً عن كلّ خجل، أن يسعى في سبيل أن يؤكّد في نفسه الجرأة والشجاعة والإقدام، في سعيه لغلبة العدوّ الذي طالما يسعى إلى الايحاء إليه بصور مرعبة خياليّة، أو التسلّط عليه بمخاوف مبهمة. وإلاّ فإنّه لن يستطيع أن يتبيّن أهواء الإنسان، وأن يكون خادماً حقيقياً للأسرّار. الجرأة هبة عظيمة من الله وكنز للنفس كبيرٌ! الجرأة والشجاعة تمثّلان دوراً كبيراً في المعارك والحروب إذ، بكلّ بساطة، تقومان بالعجائب. أما في الحرب اللامنظورة في الحياة الروحيّة فإنّ هذا الأمر أكثر حقيقة!.

وفي مقطع آخر يشرح لماذا الجرأة مطلوبة من الكاهن:

"إنّ الذبيحة الإفخارستية، أو جسد المسيح ودمه الكريمين، نبع لا ينضب، ينبوع مصالحة مع الله يفيض على الدوام، ينبوع نعمة وتطهير وتجديد وعدم فساد وحياة أبديّة وتأليه لكلّ المؤمنين الراقدين منهم والأحياء. في هذا الينبوع تكمن مصالحة العالم بأسره وتطهيره، والدعوة الحقيقيّة الكبرى لكلّ سكان الأرض حتى يعودوا إلى المسيح. يا أخي الكاهن! افتكرْ في عظمة الذبيحة التي تخدمها! كنْ جريئاً في صلاتك، مؤمناً، راجياً ومحباً، اغلبِ الشرير والعالم الفاسد. اجذبِ الجميع إلى المسيح، حمل الله، الذي رفع خطايا العالم".

ليست الجرأة الروحية، بكلّ تأكيد، تكبراً ولا غروراً وهي لا تصدّ، بل تتطلّب فقراً وتواضعاً روحيين. ويكتب الأب يوحنا:

"الكاهن يعي دوماً عدم استحقاقه وضعفه من جهة، وعظمة الله وقداسته وحقيقته وعدم قدرته على بلوغه، من جهة أخرى".

-٨-

إن إدراك الكاهن بالضبط لعدم استحقاقه ولضعفه في غياب النعمة العلوية هو أهمّ الدوافع التي تدفعه إلى محبّة الخدم والأسرّار المقدّسة، وإلى الجرأة في رجائه أنّه يجد فيها المعونة لنفسه وللآخرين. والأب يوحنا كان دائم الإيمان، ويعظ بأنّ كلّ قوة يملكها الكاهن، كانسان وككاهن، إنما تنبع من سرّ الشكر:

"إنّ الغذاء الإلهي ـ جسد ربّنا ودمه الكريمين ـ يصنع عجائب كلّ يوم، فهو يقضي فيّ على كلّ قوى الجحيم التي تهاجمني بواسطة الأهواء المتنوّعة والعادات السيّئة، ويقيم معجزات تطهير النفس والجسد وتقديسهما وتجديدهما بالإضافة إلى السلام والحرية. لكنني أضيّع على نفسي كلّ هذا بأفكار سمجة في عقلي وقلبي. عجائب قوة الأسرّار الإلهية تقيم فيّ كلّ يوم، لأجلها أقدّم شكراً قلبياً إلى الرب يسوع المسيح مع الآب والروح القدس".

وقد عرف أيضاً الوجه الآخر، ضعف نفسه، عندما لم يكن يتناول الأسرار الطاهرة: "كم هو مميت للنفس ألاّ تحتفل في الكنيسة، وبشكلّ خاص ألاّ تشترك في أسرار المسيح الإلهيّة! كيف تتغلّب على النفس أمواج الخطيئة! كم تضعف!".

هذه اللازمة تتكرّر في كلّ أفكاره تقريباً التي تتحدّث عن الكهنوت، عن محبّته لليتورجيا وغياب هذه المحبة عند كثير من الناس.

-٩-

لكن كيف يُعبَّر عن هذه المحبة، تلك التي يختبرها الأب يوحنا، والتي هي حاجة ضرورية لكلّ كاهن؟ يعبّر عنها بشكلّ خاص بالصلاة الحارّة من القلب لأجل الآخرين وفي نهاية الأمر لأجل الجميع. وهو يقول في هذا المجال :

"ما هذا الاستحقاق العظيم، ما هذا الشرف أن يصلّي المرء لأجل الكلّ، كلّ البشر؟! ما هذا الميراث الإلهي، هذا الكهنوت؟! بأيّ فرح ومحبّة ونية حسنة علينا أن نصلّي إلى الله الآب لأجل شعبه المفتدى بدم ابنه الطاهر؟!".

عندما نصلّي لأجل الآخرين نتمنى لهم أمراً، ونطلبه كرامة لهم. ولكن ما هو هذا الأمر الذي علينا أن نطلبه؟ في الحقيقة، علينا أن نصلّي في المقام الأول لأجل المحبّة الإلهية، أسمى هبة حقيقية وأعظمها، لأنها الغبطة والحياة الأبديّة وهي، في النهاية، الله نفسه.

"ككاهن اجتهدْ أن تصلّي في الدرجة الأولى لأجل تطهير شعب الله وتقديسه وتجديده، ولأجلك أنت أيضاً". هذا ما كتبه الأب يوحنا لأنّه يعرف أنّ تقديس شعب الله وتجديده إنّما يحصلان باقتناء المحبّة الإلهيّة وهي توهب للبشر عندما يكونون مع المسيح وفي المسيح. ويتابع حديثه فيقول أيضاً:

"أنظر بنفسك كم عظيم هو الإنسان! كم عظيم ما يمكن الإنسانَ أن يكون!! يثبت في الله والله فيه (١يو ٤:١٦). وهكذا فإنّ المسيح هو الذي يقيم في المسيحي التقيّ النفس، كلّها تصير للمسيح كما الحديد وسط النار المشتعلة يصير هو أيضاً ناراً متّقدة".

-١٠-

إنّ الكنيسة في كلّ خدمها تصلّي بحرارة لأجل هذه المحبّة الإلهيّة. لهذا يصرّ الأب يوحنا على الكاهن أن يدخل من كلّ قلبه في صلاة الكنيسة، لأنّ فحواها يشمل كلّ شيء:

"عند إتمامك خدمة سرّ من الأسرار اشكرِ الله دوماً بصلاة قصيرة من أعماق قلبك لأجل العون الذي منحك إيّاه في خدمته بإيمان ومحبّة. ولكن ماذا يفعل البعض منّا؟ إننا نقيم الخدمة باستهتار، بعجلة من أمرنا، مع حُذُوف من الخدمة هنا وهناك، من أجل أن ننتهي من الخدمة المقدسة في أقرب وقت ونعود سريعاً إلى مجرى حياتنا اليومي الدنيوي! ما هذا الضلال الكبير؟! كم نحن عميان لتجاهلنا المريع كلماتِ الروح القدس المحيية في هذه الصلوات التي نقرأها في الخدم

وفي الأسرار المقدسة؟! نشيح بانتباهنا عمّا يمكن أن يكون لنا ينبوع سلام وفرح في الروح القدس، وحتّى صحة جسدية! إنّها لخطيئة كبرى أن نقيم الأسرار بإهمال. نحن نجدّف على الله حينما نتصرّف على هذا النحو. فماذا علينا أن نفعل، إذاً، لأجل الاحتفال بالأسرار وبالخدم على نحو ملائم؟ علينا أن نؤمن بشكل راسخ وحيّ بأنّ الله ـ الثالوث هو معنا دوماً، يشخص إلينا، وهو حاضر لمساعدتنا في عملنا المقدس منذ الكلمات الأولى لصلاتنا حينما نسأله المعونة".

-١١-

على الكاهن أن يكون حريصاً على نفسه من الخطايا، وأيضاً من القلق المبالغ فيه بهذا الشأن. وحتى حينما يدرك زلاّته ليس عليه أن ينسحب متقهقراً، بل أن يكون جريئاً ويتابع عمله المقدس.

ويقول الأب يوحنا: "أنت أيّها الكاهن، عليك أن تعطي الخدمةَ الكهنوتيّة التي أنت مؤتمن عليها حقّها الواجب وأهميتها والكرامة والعزم اللائقَيْن بها، وذلك لمجد الله ولأجل خلاصك الخاص وخلاص كلّ الشعب. لا تنظر إلى وجه أحد، ولا حتى وجهك أنت، إلى زلاّتك وخطاياك، بل عاين وجه الله فقط، وجه المسيح الذي أنت حامل صورته والذي تمثله كوسيط بين الله والناس أثناء الخدمة. وفي هذا الوقت عينه، لا تكن لنفسك قط، بل كن كلّياً لله. خطاياك، تذكراتك المشينة وحِيَل الشيطان المختلفة، اطرحها كلّها بانسحاق قلب أمام الرب، حمل الله، الرافع خطايا العالم. لا ترزح قط تحت ضغط هذه التذكرات".

ويستعيد أقوال القدّيس يوحنا الذهبي الفم فيذكّرنا بأنّ ضعف الكاهن وعدم تحرّره الكلّي من الخطيئة يمكن أن يصبّا، بحسب تدبير الله وعنايته، بشكل مفيد ضمن العمل الخلاصي. وقد توجّه مرةً إلى الشعب قائلاً:

"لم يجعل الله الملائكة وسطاء وكهنة للأسرار، وهي كائنات منيرة وذات مقدرة، لكنّه اختار كهنة له بشراً أمثالاً لكم، تحت عبء الضعف والخطيئة كما هي حالكم. لهذا هم رحماء ومتسامحون تجاه خطاياكم وزلاّتكم".

إنّما هذه القناعات الجريئة التي لنعمة الكهنوت لا يقتنيها المرء إلاّ بعد صراع مضنٍ. فالأب يوحنا حينما يدعو الكاهن إلى عدم الاهتمام لخطاياه وزلاّته لأجل إتمام الخدمة بلا عيب، يفترض أنّ الكاهن يجاهد إزاء الشر. ولا يتحدّث فقط عن المعونة الآتية من العُلى بل عن الصراع ضدّ الشرير أيضاً.

في الذكرى الخامسة والأربعين لكهنوته، لخّص هذا الصراع في قوله:

"عندما صرت كاهناً وراعياً، تعلّمت سريعاً من خبرة صراعي الذي أخوضه في حياتي الروحية إزاء رئيس هذا العالم المليء بالغضب والدمار ونار جهنم. هذا يعني أنّ الرب، الراعي الصالح، قد وضعني في التجربة وبدأ يُفقّهني في تدريب روحي من خلال الخبرة حتى أصير قادراً على تمييز أعدائي، وقد أبليت حسناً إزاءهم بأسلحة الإيمان والصلاة والتوبة والاشتراك في أسرار المسيح الطاهرة. وقد علّمتني هذه الخبرة والجهاد والإيمان الحقّ والرجاء والصبر والاستقامة الروحية والطهارة القلبية والاستدعاء الدائم لاسم يسوع المسيح".

وكلماته التالية حول الافخارستيا وكاهنها تكفي لتظهر لنا كيف أنّ نار المحبّة تلهب، بادىء بدء قلب الكاهن، ومن ثمّ قلب الرعيّة الناطقة، ويبدو جلياً من خلالها أنّ العمل الرعائي يولد بالكهنوت ويتغذّى به، وأنّ الواجب الأول للكاهن هو إرشاد المؤمنين إلى ينبوع المحبّة، إلى عشاء الرب. ولخّص هذه الأفكار بشكل حيوي على الشكل التالي:

"كلّنا نحبّ الحياة، ولكنّنا لا نعرف الحياة الحقّة من دون نبع الحياة - يسوع المسيح. سرّ الشكر هو ينبوع الحياة الحقّة لأنّ الله نفسه. ربّ الحياة يعطي نفسه مأكلاً ومشرباً للمؤمنين به ويعطيها بغزارة وفيض للمشتركين في هذا السرّ. ما هذه السعادة، ما هذه الغبطة لطبيعتنا أن تلتصق بالرب يسوع المسيح، الإله والإنسان معاً؟! إنّ الكاهن في إشتراكه المتواتر بسرّ الشكر، يُمنح نعمة الله بدون حدود، وعلى الجميع أن يأخذوا منه نعمة الله الغزيرة، وعليه هو أن يسعى جاهداً إلى أن تمتد نعمة الله أكثر فأكثر وألاّ يحتفظ بها لنفسه".

-١٣-

أن تكون كاهناً يعني كونك قناة بين الله والناس فتنقل إليهم نعمة الله! وعلى الكاهن واجب مشاركة البشر تلك الخيرات التي يعيشها في داخله وألاّ يحتفظ بها لنفسه. لذلك ليس من شأنه أن يعلّم من حكمته الخاصة، بل من حكمة المسيح. "أشرقْ، أدفئْ ليس بدفئك الخاص، بل بالدفىء الإلهي". ويضيف الأب يوحنا أنَّ الكهنة هم أوعية مقدسة تتدفّق منها مياه الحياة وتنتقل إلى المؤمنين. على الكاهن أن يكون في العالم الروحي، وسط رعيته، كما الشمس بالنسبة إلى الطبيعة: "نور الجميع، حياة الجميع، روح الجميع. فليس على الكاهن، والحال هذه، أن يُبقي نور المسيح لنفسه فقط ، بل واجبه، كونه حاملاً له، أن يمدّه إلى كل مكان".

-١٤-

أمّا طلب النعمة الإلهيّة والبحث عنها فيجب بكلّ تأكيد ألاّ يعيقا الكاهن عن تطوير خبرته الروحيّة وتنمية مختلف مواهبه. والأب يوحنا يقول في هذا الصدد:

"على الكاهن أن يختبر قوّة الإيمان، عذوبة الصلاة، غفران الخطايا والتعزية المغبوطة، ساعتئذ يستطيع أن يقول في صلاته لأجل المؤمنين: "أعطهم يا ربّ النعمة عينها التي أعطيتني، أنا غير المستحق" ، ويرفع هذه مدركاً مواهب الله وعطاياه وواعياً إيّاها من خلال خبرته الخاصة".

وينصح أيضاً في شأن رعاية الإنسان لذاته:

"في سبيل أن نرشد الآخرين لا بدّ لنا، قبل ذلك، أنْ نتعلم كيف نرشد أنفسنا. وفي سبيل أن نعلّم الآخرين، علينا أيضاً أن نكتسب المعرفة قبل ذلك. وإذا ما كنا تحت وطأة أهوائنا الكثيرة فمن الأفضل ألا ننشغل في إرشاد الآخرين".

ومحبّة الكاهن هي على صورة محبة المسيح، مطلقةٌ. إليكم ما يقول الأب يوحنا:

"الكاهن يتألم لأجل العالم بأسرّه. يصير كلّ شيء للكل".

هذه المحبة تنبع من محبته للمسيح الذي أعطى نفسه مثالاً يُحتذى لكلّ إنسان، وجميع المسيحيين الحقيقيين هم أعضاء جسده ـ الكنيسة. ويتابع الأب يوحنا: "إقبَلْ كل إنسان آتٍ إليك، خاصة لأجل أمر روحي، بترحيب وطيبة خاطر، حتى ولو كان الآتي إليك متسوّلاً وتواضع بنفسك عقلياً أمام كلّ واحد، معتبراً نفسك أدنى منه، لأنّ المسيح نفسه قد جعلك خادماً للجميع، والكلّ هم أعضاء جسده، رغم أنهم جميعاً، كما أنت، يحملون وزر الخطيئة".

-١٥-

إن وعينا للوحدة الكائنة بيننا من جهة، وبين البشريّة قاطبة وبشكل خاص الكنيسة، من جهة أخرى، هو دون أدنى شك شرط أساسي للكهنوت والرعاية الحقيقية. وهو أيضاً شرط أساسي للشعور بالمسؤوليّة ودافع للراعي نحو التواضع.

ونحن ندرج هنا أَحَد أقوال الأب يوحنا في هذا الخصوص:

"لا ننسيَنّ أبداً أننا أعضاء جسد واحد وعلينا أن نشجع بعضنا البعض على المحبة والأعمال الصالحة. ونحن الكهنة علينا، بشكل خاص، أن نفتكر في هذا الأمر وأن نسعى إلى تحقيقه. إذا كان الرأس دون خطيئة كذلك تكون الأعضاء".

وإذا ما أظلمت نفوسنا بسبب الأهواء، فإنّ جسد الكنيسة ـ أعني رعيّتنا ـ يصير أشدّ ظلاماً. قَويٌّ عُودُنا روحياً؟ كذلك الرعية قويّةٌ روحياً. أَضُعفَاء نحن؟ كذلك خرافنا الناطقة ضعيفةٌ. يا ربُّ ارحمنا".

الفصل التاسع

في معرفة الحق

-١-

سبق لنا الحديث عن الناحية السلبية للواقع الدينيّ إبّان عمل الأب يوحنا. يجدر بنا الآن، قبل أن نباشر تحليل عمله، أن نشير إلى النواحي الإيجابيّة، ونحن نجد الأمر ضرورياً لأن القديسين هم أبناء عصرهم وشعبهم، وهذا الأمر ينطبق على الأب يوحنا، إذ التصقت توجّهاته الإيجابية بما عُرف "بالنهضة الكنسيّة" التي بدأت بالظهور في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إنّ العناصر الإيجابيّة في الكنيسة الروسيّة تركت تأثيرها المفيد على الأب يوحنا. فهو، أثناء طفولته، قد اكتسب معرفة المبادىء الأساسيّة الأرثوذكسيّة من خلال الكتاب المقدّس والخدم الكنسيّة الغنيّة، ومن طريقة الحياة المسيحيّة في بيئته البيتيّة. وأيام دراسته في الأكاديميّة، دخل في اتصال مع الطروحات الناشئة عن "النهضة الكنسيّة". بداية هذا التيار تعود إلى الستارتس بايسيوس فلينشكوفسكي (١٧٢٢-١٧٩٤). فمن خلال هذا الأخير ومن خلال تلاميذه (عبر أديرة روسيّة) عاد إلى واجهة الانتباه الاهتمام بالعمل النسكي وواقعه المعيوش لدى آباء الكنيسة القدماء، حيث كان أساس هذا العمل يستند إلى اليقظة والصحو وتطهير الذات وصلاة يسوع.

عَمِلَ تلاميذ الستارتس بايسيوس، ضمن بعض الأديرة الروسيّة، على إحياء الحياة الروحيّة. من أبرز ثمار هذا العمل الروحي كان بروز القديس سيرافيم ساروف، وبعد ذلك برز عدد كبير من الستارتس الروحيين، خصوصاً أولئك الذين عاشوا في منسك أوبتينو (Optino)، في دير فلعام (Valaam) وأماكن أخرى غيرهما.

وربح هذا التيار لنفسه بعضاً من، الهيرارخيّة الكنسيّة، الذين صاروا من دعاة بايسيوس وعمدوا إلى فتح مدارس ومؤسسات ومن بينهم نذكر مطران موسكو بلاطون ومطران بطرسبرج جبرائيل.

تعود جذور هذا التيار النسكي ـ الصوفي إلى القرون المسيحيّة الأولى، وبشكل رئيس إلى التقليد النابع من الحياة الرهبانيّة في مصر وسيناء والذي قوي، فيما بعد، في بيزنطية إبتداء من القرن السادس وتتوّج في القرن الرابع عشر بتعبيره اللاهوتي مع القديس غريغوريوس بالاماس أسقف تسالونيكي، وقد أطلق على هذا اللاهوت أسم "الهدوئيّة". ونحن نعني بهذه العبارة عمليّة التركيز الروحي في الصلاة والتأمّل الصوفي والاستنارة. وقد تابعت العقيدة الهدوئيّة تطوّرها في جبل آثوس واستمرّت حتى بعد سقوط بيزنطية.

ممّا لا شك فيه أنّ الممارسة الهدوئيّة، إن لم تكن عقيدتها قد انتشرت في روسيا في أوقات مبكرة بين الأديرة، إلاّ أنّ ممارستها خضعت لتقلّبات مختلفة حسب اختلاف العوامل التاريخيّة. أما تحدّد هذه الممارسة فقد ارتبط بالقديس نيل سورسكي الذي كان كاتباً دينيّاً بارعاً، وذلك في القرن الخامس عشر. أمّا الأحداث التي تتابعت في القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد أدّت إلى تراجع الحياة الروحيّة في الأديرة. ومن هذه الأحداث نذكر حكم إيفان الرهيب، "الأوقات المضطربة" ، "الإنشقاق"، حكم بطرس الأكبر وخلفائه أمّا النهضة فقد أتت بعد ذلك على يد الستارتس بايسيوس.

أهمّ أعمال الستارتس بايسيوس ترجمته الفيلوكاليا إلى اللغة السلافونيّة، تحت عنوان "محبّة الصلاح"، وقد عرف هذا الكتاب في بعض الأحيان بإنجيل الرهبان. الفيلوكاليا هي عبارة عن مقاطع مختلفة لأعمال آباء الكنيسة النسّاك وفيها تعليم حول الصلاة وانضباط الفكر وكل ما من شأنه المساعدة في إبعاد الشرّ عن قلب الإنسان من جهة، وفي استنارة النفس من جهة أخرى. وقد صارت الفيلوكاليا دليلاً لعدد كبير من الرهبان وقوتَهم اليومي ويعود إلى واضع ترجمتها الستارتس بايسيوس وإلى تلاميذه الفضلُ في ظهور جيل جديد من الستارتس أو الشيوخ الروحيين

وجد هذا "النشاط" الرهباني صدى في العالم أواسطَ القرن التاسع عشر. وبالتعاون مع كبار الرجال المثقفين، قام العديد من الآباء في دير أوبتينو (Optino) بترجمة الكثير من الأعمال النسكيّة للآباء القدماء إلى اللغة الروسيّة. وقد لقي هذا التيار الهدوئي تجاوباً كبيراً من كتّاب دينيين أمثال الأسقف إغناطيوس بريانشانينوف (Brianchaninov) وثيوفانس الحبيس. وهذا الأخير عمد إلى ترجمة الفيلوكاليا إلى اللغة الروسيّة.

يوحي المناخ الروحي الذي عاشه الأب يوحنا على ضوء ما ورد آنفاً، وبشكل خاص كلّ ما يتعلق بصراعاته الداخليّة وبالصلاة، أنه كان على صلة بهذا التيار الروحي وقارئاً لنتاجه الأدبي، وسادَ الاعتقاد أنَّ الأسقف بريانشانينوف أو أحداً غيره قد قام بصلة التعريف بين الأب يوحنا وهذا التيار الروحي .

لم يكن نموّ الحياة الرهبانيّة الهدوئيّة العلامة الوحيدة على نهضة الكنيسة الروسيّة. لا بدّ لنا في هذا المجال من أن نشير إلى بروز العلم اللاهوتي الأكاديمي الروسي وظهور واعظين مميّزين في المدن الكبرى وأشخاص كثيرين عندهم إطّلاع في مختلف شؤون الحياة الكنسيّة وهم في معظمهم لم يكونوا من رجال الكهنوت. وأخيراً نذكر ظهور توجّهات اجتماعيّة ـ ثقافيّة كانت تجد في الأرثوذكسيّة دعامة لها، ونشوء حركة المفكّرين السلافوفيليين الذين تركوا، بشخص خوميا كوف، علامة دامغة في الأدب والثقافة الروسيَّيْن.

هذه الأمور كلّها قد تركت تأثيرها، بشكلّ مباشر أو غير مباشر، على أكاديميّة بطرسبرج حيث كان الأب يوحنا طالباً، وعلى بعض الحلقات الموجودة في المدينة والتي دخل الأب يوحنا في اتصال معها، التي من دون بحث خاص وتدقيق كبير، يستحيل معرفة مدى التأثير الذي خلّفته على الأب يوحنا. هو نفسه يذكر أن فيلاريت مطران موسكو كان أستاذاً له، وهذا الأخير كان منخرطاً في نشاطات كنسيّة مختلفة. ويمكننا الاعتقاد أنَّ الأب يوحنا لم ينمُ منعزلاً عن التيارات الكنسيّة المعاصرة له .

على الرغم من ذلك نعثر، عند الأب يوحنا، وفي كتاباته، فرادة كبيرة لا نستطيع أن نقع على شبيه لها حتى في أعمق الاتجاهات الصوفيّة لتلك الحقبة.

والواقع، هنا، أنَّ مركز الثقل في فكر الأب يوحنا اللاهوتي وفي حياته الروحيّة كان يدور حول محور القداس الإلهي والحياة الأسرارية في الكنيسة. وإنّ توجّه الأب يوحنا، الذي لم يكن مؤسّساً مباشرة على النسك الرهباني، جعل الأسقف ثيوفانس الحبيس في اضطراب من جهته، وكان من أصحاب الرأي أنَّ الأب يوحنا يسلك طريقاً خطرة. أمّا الأب يوحنا فكان يحترم الأسقف ثيوفانس وقد رغب في زيارته، لكن الأخير لم يُرِدْ أن يكسر حياة عزلته النسكيّة التي كان يعيشها. إلاّ أنّه، بعد استلامه رسالة مطوّلة من الأب يوحنا، عاد مستريح البال لأمره.

-٢-

رغم أنّ الأب يوحنا، بسبب نمط حياته، لم يكن كاتباً، إلاّ أنه خلّف ميراثاً أدبياً كبيراً. مؤلّفاته طبعت وهو ما زال على قيد الحياة، وأعيد طبعها مراراً كثيرة إذ كانت تضاف إليها مؤلّفاته الجديدة. ويمكننا أن نجمعها في ثلاث فئات: الأولى عبارة عن مجموعة مواعظ وأحاديث، الثانية عبارة عن رسائل ، مذكرات وكتابات دفاعيّة، والثالثة عبارة عن مختارات من مُفكّرته اليومية وقد نشرت بعنوان "حياتي في المسيح". لقد ساد اعتقاد أنَّ الأب يوحنا ربما استعار هذا العنوان من الكاتب البيزنطي الشهير نقولا كاباسيلاس (١٢٩٠ــ١٣٦٣) تلميذ القديس غريغوريوس بالاماس. كتاب هذا الأخير بعنوان "الحياة في المسيح" قد نقله إلى اللغة الروسيّة الأب مخائيل بوغوليوبسكي سنة ١٨٧٤، وموضوعه يتناول معنى حياة الكنيسة الأسراريّة في خلاص الإنسان، المعموديّة، المسحة، وخصوصاً سرّ الشكر. صفحات كثيرة منه قريبة بالروح من أعمال الأب يوحنا. ولكن، وعلى الرغم من تشابه العناوين والمواضيع الأساسيّة، وتشابه بعض الصفحات، لم نعثر على برهان يؤكد أنّه كانت للأب يوحنا معرفة بأعمال كاباسيلاس.

كتاب "حياتي في المسيح" طبع مرات كثيرة، إذ كانت تضاف إليه كل مرة موادّ جديدة. هذا الكتاب هو العمل الرئيس للأب يوحنا، أمّا بقيّة مؤلّفاته فتشكّل إطاراً له في ما يتعلق بتعليم الأب يوحنا وحياته وشخصيته، ونحن لا يسعنا فهمها إلاّ من خلال هذا الكتاب الذي صار جزءاً لا يتجزّأ من عمله وشخصيته. ويشكّل الكتاب، في الوقت عينه، أثمن لآلىء الأدب الروحي الروسي والأرثوذكسي بشكل

عام، على الرغم من أنّ بعض الصفحات تثير اعتراض بعض الذين تناولوها بالدراسة خارج إطارها وعزلوها عن خلفيّتها التاريخيّة، ويبدو أنّهم يجهلون الطابع الأساسي لهذا العمل الذي هو زبدة تعبير شخصي عن عطش روحي إلى الله.

-٣-

في ما يلي سنتعرض بالتحليل لمحتوى هذا الكتاب، "حياتي في المسيح"، لأهميته الكبيرة، وسنستند في عملنا هذا إلى أعمال الأب يوحنا الأخرى.

عديدة هي المؤلّفات في الأدب الروسي التي تعود إلى هذه المفكرة اليوميّة، التي سنستعرض أهمّ ما ورد فيها.

هوذا مقطع من "طرق اللاهوت الروسي" للأب جورج فلوروفسكي:

"من النادر أن يقرأ أحدهم هذه المفكرة اليوميّة "حياتي في المسيح" ككتاب لاهوتي. بالطبع، ليس هناك من "بُنية" لاهوتية منهجية داخل المفكرة ولكن هناك خبرة لاهوتية. والشهادة لهذه الخبرة أنّها مفكرة إنسان متضرّع وليس معلم أخلاق... الأب يوحنا يفتح مجدّداً الطريق المنسّي للمعرفة الاختبارية لله".

ويعود المتقدّم في الكهنة شتفيريكوف إلى كتاب الأب يوحنا واصفاً إياه بـ "الذائع الصيت" ويلاحظ طابعه الاختباري في معرفة الحياة.

وأخيراً نعطي الكلام للأب يوحنا، وردت كلماته هذه في مقدمة الكتاب نفسه:

"كلّ ما يحويه هذا الكتاب ليس سوى استنارة نفس مباركة، منحت لي بروح الله في أوقات عودة عميقة إلى نفسي ومحاسبة للذات، خصوصاً أثناء الصلاة".

"وعندما كانت لديّ القدرة، كنت أدوّن أفكاري ومشاعري المباركة، وهكذا ولد الكتاب من تلك المدوّنات الكثيرة المتراكمة على مرّ سنين طويلة. المحتوى متنوّع كما سيشهد القارىء بنفسه، وأنا أقدّمه له حتى يحكم فيه".

إنّها كلمات جريئة وتشهد بشكلٍ حي على اعتقاد الأب يوحنا أنَّ الخبرة الروحيّة الداخليّة هي منبع كتاباته. وإذ يعرض الأب يوحنا كتابه لحكم القرّاء، يبدو أنّه يستدعي من قبل من سيقاضيه تجربة داخليّة مماثلة.

أمّا كيف كُتب، فقد أتى الأب يوحنا على ذكر ذلك في المقدمة: حينما كان بمقدوره أن يفعل ذلك. وحسب شهادة معاصريه أنّه غالباً ما كان يدوّن تلك الأفكار أثناء رحلاته في القطار أو على متن الباخرة، أو في البيت في وقت متأخر من الليل بعد نهار حافل بالعمل.

-٤-

من الصعب تلخيص تعليم الأب يوحنا في شأن الحياة المسيحية، كما ورد في كتابه، في فصول قليلة. ما يسعنا هو جذب انتباه القارىء إلى تعليمه وإلى ضرورته الحيويّة. وبغية التآلف مع محتواه، عمدنا إلى عرض منهجي لأقسامه الرئيسة مدركين تماماً أنّه من الضروري تعريف العالم بتعليم الأب يوحنا، خصوصاً في هذا الزمن الحاضر.

فلسبب الجهل أو سوء فهم المسيحية، ينظر الكثيرون، ومن بينهم العديد من المثقفين، إليها بخشية ونفور. وإذا كانت هذه المشاعر لا تتناول شخص المسيح نفسه فإنّها، بكلّ تأكيد تتناول كنيسته. وما يدهشنا في مذكرته ذكرُه غير المنقطع لما يختصّ بالحرية الإنسانيّة، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية في عصرنا الحاضر، فهو حين يدعو الناس إلى حياة مسيحيّة لا يعني بذلك خضوعاً أعمى لشرائع أخلاقيّة وسلطة إلهيّة بل، على عكس ذلك، هو يشير دوماً إلى ضرورة وإمكان فحص الحقيقة المسيحيّة على ضوء خبرة الإنسان الحرّة. بالطبع هذا الفحص لا يأتي من خلال الخبرتَيْن الخارجيّة والعقليّة، بل بواسطة القلب الذي هو جوهر الإنسان. قلب الإنسان هو المدار الذي يكون الإنسان فيه حراً بالحقيقة. في المقطع التالي يتحدّث الأب يوحنا عن القلب كمدار لمعرفة الحقائق الأخلاقيّة والدينيّة واختبارها، ومما يقوله:

"القلب هو العنصر الأوّل في حياتنا والمعرفة القلبيّة تتقدّم على المعرفة العقليّة، فالقلب يدرك مباشرةً، من دون تقسيم المعطيات وتجزئتها، وتنتقل هذه المعرفة القلبيّة في مرحلة لاحقة إلى العقل حيث تخضع للتحليل فتنقسم إلى ما هو قبل، إلى ما هو بعد، وما إلى ذلك.... إنّ تبصّر القلب يخضع لتحليل الذهن. الفكرة هي ملك القلب ـ الإنسان الداخلي، وليست ملك العقل ـ الإنسان الخارجي، لذلك تحتلّ "استنارة عيني القلب" حيّزاً كبيراً من الأهمية في كلّ معرفة، ولا سيّما في ما يخص إدراك حقيقة الإيمان والأُسس الخُلقيّة".

نلمس، في ما ورد آنفاً، عناصر نظريّة حول المعرفة، ويستطيع الفكر الفلسفي أن يجد توازياً بينها وبين كبار المتصوّفين المسيحيين وحتى عند بعض رجال الفكر المعاصرين. لكنّ الأب يوحنا كان، قبل كلّ شيء، شاهداً للمسيح، شاهداً للحقيقة المسيحيّة، شاهداً للحياة المسيحيّة الحقّة.

-٥-

حسب الأب يوحنا، أنّ الاعتراف النهائي بالحقائق وقبولها إنّما يحصلان في القلب. وملء الحياة والحريّة لا ينفصل البتة عن هذا الاعتراف بالحقيقة وقبولها كما يقول:

"إنّ القلب، إذا خلا من الإيمان بالحقيقة وبالقداسة، يصير عادةً عرضة للخوف والحزن، لكنّه، بامتلاكه الإيمان الحق، يشعر بالفرح والهدوء والراحة والحرية. الحقيقة تتجلّى وتنتصر من خلال حالة القلب. أمّا الصعوبة التي يشعرها القلب عندما لا يؤمن أحدهم بما هو حقّ ومقدّس فهي برهان على ضلال العقل من خلال عدم الإيمان. كلّ فكر كاذب ومزيّف يحمل في طيّاته برهان زيفه. وهذا الفكر يولّد تعب القلب وموته. أمّا كلّ فكر صالح فيحمل في طيّاته برهان حقيقته وهذا الفكر يمنح الإنسان سلاماً ويحيي القلب".

وفي مكان آخر، يعطي الأب يوحنا الموضوع مدى أوسع حيث يتحدّث عن دور القلب في حالة عدم الإيمان بالحقائق الواردة في الإنجيل وفي تعليم الكنيسة:

"إنّ حقائق الإنجيل وتعليم الكنيسة لا تفسح مجالاً لأيّ شك، فهي، إذا جاز التعبير، نفحةُ الروح القدس تمنح السلام الروحي، الحياة. ويل لمن يشكّ! فإنّ روح الكذب يجلب له الظلام وادلهمام القلب، ويغرق النفس في الحزن والكآبة".

مما سبق يظهر لنا بوضوح، أنّه ليس عند الأب يوحنا أية رغبة في جعل قبول الحقائق الدينيّة والخُلُقيّة مبنياً على أساس الاعتراف بأية سلطة خارجيّة، وإن كانت إلهيّة، بل مبنياً فقط على برهان القلب الداخلي:

"لدينا في قلبنا بارومتر (آلة لقياس الضغط الجوي) يسجّل ارتفاع حياتنا الروحيّة وانخفاضها، نستطيع أن ندعوه بوصلة أيضاً".

-٦-

"ودور القلب، حسب الأب يوحنا، لا يتحدّد فقط بالقبول النظري للصلاح ومبدأ الخير، فتقويم الخير والشرّ يأتي حسب مضمونهما وظهورهما في قلب كلّ إنسان. كلّ تجلٍّ للخير والصلاح في القلب يُعبّر عنه بتكاثف مفرح للحياة والحريّة، عكس الشرّ الذي يظهر كانتقاص للحياة وخسارة للحريّة وحزن".

كتاب "حياتي في المسيح" يشهد لوجهة النظر هذه. سنورد، في ما يلي، بعض الخطوط الرئيسة لهذا الموضوع:

"المحبّة تُنشئ الإرادة الحسنة، تحيي القلب، بينما الحقد يولّد الشقاء والتعب... من يحقد يعذّب نفسه بنفسه، وهو أكثر الناس جنوناً... أتكره عدوّك؟ يا للغباء! لماذا؟ لأنّك، مهما حاربك العدو، تحارب نفسك داخلياً أكثر منه بكثير، وفي هذه الحال، ألا يكون كرهك عَدوَّكَ هو أكبر العذابات لنفسك؟".

"وما يقال أيضاً في الغضب يسري أيضاً على بقية الأهواء. الله نفسه أظهر أنَّ الأهواء تحوي في ذاتها تأديبها، خصوصاً في حالات الصراع القصوى التي تولّدها. كلّ هوىً عذاب في حدّ ذاته وكلّ إنسان يرتكب شرّاً يلقى جزاءه من الشرّ نفسه الذي يرتكبه، ومن الهوى نفسه المتسلّط عليه".

ولكنّ تعليم الأب يوحنا أنّ الخير والشرّ يحويان في ذاتيهما المكافأة والتأديب لا يلغي إدراكه أنّ المكافأة والتأديب هما أيضاً نتيجة للخير وللشر، فعلى سبيل المثال: "الأمراض هي نتيجة الخطايا، وكذلك الموت نفسه. فعندما تنتفي الخطيئة تنتفي الأمراض ويتلاشى الموت".

-٧-

ينكشف لنا في مدوّنات الأب يوحنا وجه آخر للحريّة المسيحيّة متوافق كلياً مع تعليم آباء الكنيسة. ينكشف لنا أنَّ الحياة المسيحيّة إنّما هي متطابقة مع الطبيعة البشريّة. ولكن عن أيّة طبيعة يتحدث؟ إنّه يتحدث دون ريب عن الطبيعة الروحيّة للإنسان:

"لا بدّ من أن نذكر أنّ الإنسان يملك، بالإضافة إلى طبيعته الحيوانيّة، طبيعةً روحيّة. وكما للطبيعة الحيوانيّة متطلباتها، كذلك الأمر بالنسبة للطبيعة الروحيّة".

"أمّا متطلّبات الطبيعة الحيوانيّة فهي المأكل، المشرب، النوم، الدفء والضوء. بينما متطلّبات الطبيعة الروحيّة هي التفكير، الشعور، الحديث، العلاقة بالله من خلال الصلاة والأسرار، دراسة كلمة الله، والعلاقة بالقريب من خلال الحديث، عمل الرحمة، والمساعدة والتعليم المفيد والبنّاء".

يدافع الأب يوحنا مرات كثيرة عن حريّة الإنسان، فيقول في هذا المجال:

"كثيرون هم الذين يعثرون بنعمة الله المعطاة للإنسان، أعني الحريّة، وأيضاً يعثرون بقدرة الإنسان على صنع الخير والشرّ، وكيف أنّه بعد السقوط صار أكثر ميلاً ناحية الشر منه ناحية الخير... أنت تتّهم الله ولكن هل هو مذنب تجاه الواقع الذي فيه تتجاهل أنت صوته وتستخدم في سبيل الشرّ أعظم هبة منحك إياها، هبة الحريّة، التي هي ميزة صورة الله؟ لا تتحامل على الله الكلّي الصلاح... ارتفع أكثر فأكثر نحو الكمال الروحي إذ لا تستطيع بلوغه من دون الحريّة".

ونحن سنذكر بالتفصيل الصلة الوثيقة القائمة بين حريّة الإنسان وعقائد الإيمان الأرثوذكسي، وبشكل خاص التعليم الذي يتحدّث عن صورة الله في

الإنسان. وقد أولى الأب يوحنا هذه الناحيّة أهميّة خاصّة. أمّا الآن فنكتفي بالقول إنَّ كتاب "حياتي في المسيح" هو في المقام الأول عرض لمعنى الحريّة الحقيقيّة التي دُعِيَ إليها الإنسان.

-٨-

كل أفكار الأب يوحنا حول الحريّة ودور القلب إنّما تندّي النفس وتنعشها. يشعر المرء من خلالها، بفرح وحريّة، دعوة المحبّة الإلهيّة. ولكن، رغم ذلك كلّه، يبرز أمامنا السؤال التالي: هل تكفي شهادة قلب الإنسان لقبول حقيقة خُلُقيّة، وهل تكفي لذلك القبول موافقة هذه الحقيقة الطبيعة الروحيّة للإنسان؟ ألا يمكن للقلب أن يقع في الخطأ؟ ألا يمكن للإنسان أن يكون في ضلال؟ أوَ لَيست كلّ التقويمات التي تأتي من القلب شخصيّة، غير موضوعية، ولا يمكنها أن تلزم آخرين؟

لا يمكننا تجنّب هذه الأسئلة، لأنّ الإنسان يحاول دوماً أن يحامي عن حريته، أن يؤكدها وأن يعمل بموجبها، لأنه يبحث دوماً عن حقيقة موضوعية، حقيقة غير مرتهنة له، حقيقة يعيش بموجبها. إلى ذلك، هناك رجاء خفيّ عند الإنسان أنَّ هذه الحقيقة الموضوعية لا يمكنها أن تلغي حرّيته الشخصيّة، والإنسان يدرك جيداً صعوبة العيش بما يوافق الحقيقة لأنّ السبب يعود إلى فساد الإنسان الخُلقيّ.

فقط الإيمان المسيحي يمكن أن يعطي جواباً شافياً عن هذه الأسئلة والحاجات العميقة لروح الإنسان. وفي كتابات الأب يوحنا نستطيع إيجاد الأجوبة المسيحيّة الأساسيّة عن مثل هذه الأسئلة.

-٩-

يدرك الأب يوحنا قبل كلّ شيء أنَّ القلب، هذا البارومتر أو البوصلة كما ذكرنا سابقاً، كي يصير مستودعاً للحقيقة يُمتحن باستمرار ويتنقّى:

"إنّ القلب، في دقيقة واحدة، يتعرّض للتغيّر مرّات كثيرة، فيميل تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر، تارة إلى الإيمان وأخرى إلى عدم الإيمان، تارة إلى البساطة

وأخرى إلى الخبث، تارة إلى المحبّة وطوراً إلى الحقد، تارة إلى العفة وأخرى إلى الزنى. يا لهذا التقلّب! يا لهذه المخاطر! كم نحتاج أن نكون في حالة يقظة وصحو؟!".

وفي مقطع آخر ، يكتب أيضاً:

"إذا كان المسيحيون لا يستطيعون أن يَسَعوا في داخلهم الإيمان والأسرار المقدّسة، فهذا برهان على أنَّ قلوبهم غير نقية وهي تعاني من الأهواء ولا تستطيع أن تبقى طاهرة، على مثال العيون الضعيفة التي لا تستطيع أن تحدّق في نور الشمس!".

في مواضع أخرى، يشبّه الأب يوحنا القلب غير الطاهر بالعين المريضة، والإنسان ذا القلب الرديء بالإنسان الأعمى، وهو يصرّ دوماً على ضرورة طهارة القلب وضرورة تربيته، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بتربيّة الأطفال وثقافتهم:

"من الخطر أن ينمّي المرء العقل والمنطق على حساب القلب. القلب حياة، لكنّها حياة متمرّغة بالخطيئة. من الضروري أن يلتهب القلب بشعلة الحياة الطاهرة النقيّة وأن تبقى نارها مشتعلة دون أن تنطفىء، في سبيل توجيه أفكار الإنسان كلّها ورغباته وأشواقه وحياته".

-١٠-

لمّا كان من المتعذر على قلوب البشر أن تتحلّى بقضاء عادل، صحيح وحرّ ـ عدا تلك القلوب النقيّة الطاهرة ـ فمن هو الذي بإمكانه أن يؤكّد لنا أنَّ قلبه يتحلّى بالقضاء المناسب؟ من هو الذي بإمكانه أن يقضي في قلوب البشر وضمائرهم؟ أو بعبارة أخرى، من هو الذي يستطيع أن يتعالى على قلوب البشر دون أن يحدّ من حقوقها أو ينتقص من حريّتها؟ قاضي قلوب البشر هو ذاك الذي يتحلّى بقلب كامل وحريّة مطلقة ووجود يفيض محبّة وطهارة. هذه المحبّة نحو الإنسان لديها القدرة على أن ترشده وتدلّه على الطريق الحقّ من دون أن تتعرّض لأثمن ما عنده، نعني حريته. من الضروري لمثل هذا الكائن أن يكون كليّ المعرفة

والمقدرة والمحبّة، مثل هذا الكائن لا يمكن أن يكون سوى الله.

بهذا نقع على السرّ العميق للحياة المسيحيّة. المسيحي الحقيقي، من خبرته، يعرف أنَّ الله وحده، المسيح وحده، هو من يكشف له الطريق الحق دون أن يغتصب حريّته، ويدرك أيضاً أنّه، إذا بحث القلب عن الخير بملء حريته واختياره، فليس الأمر بفعل المصادفة، بل بإيحاء من الله نفسه. ونحن هنا لا يسعنا إلاّ أن نأتي على ذكر كلمات القديس يوحنا الإنجيلي: "لأنه إن لامتنا قلوبنا فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كلّ شيء"(١يو ٣:٢٠).

يردّد الأب يوحنا دوماً، في مذكراته، أنّ الله نفسه يحكم في قلوبنا، يحمي طهارتها، ويرشدنا إلى الطريق الحقّ: "بالحقيقة يقيم المسيح فيّ. يضطرني إلى تنقية قلبي من أقلّ نجاسة وأصغر خطيئة. ولكنّ الشيطان حاضر بإزاء كلّ خطوة من خطواتي، وهو يسعى جاهداً ليغرّبني عن الله".

وفي موضع آخر يقول:

"في نفس من عنده خوف الله تنشأ علاقة بالله غير منظورة، فنلاحظ أن الربّ يشجّع، مرّات كثيرة، أفكارنا وأشواقنا ونوايانا، ومرات أخرى يشجبها".

-١١-

وإذا كان الأمر على نحو ما ورد سالفاً، نعني علاقة الله بالنفس وكيف هو مُلهمها، فأين الضمانة، يا ترى، أنَّ الله لا يتعدى حريّة الإنسان؟ هنا أيضاً تشهد الخبرة الداخليّة على أنَّ الله هو مَن يخلّص حرّيّتنا ويصونها وذلك لأنّه، بينما هو يقضي في قلوبنا، يقدّم ذاته لقلبنا في الوقت عينه حتى تقضي فيه بدورها.

"الرب لا يقودنا إلى الخلاص بالإكراه. وهو لا يشاء استعمال العنف أو القوّة ليقودنا إليه، حتى لا يصير الخلاص أمراً تنفر منه النفس ولا تأتي إليه بملء حريتها وإرادتها. فالإنسان كرّم في عينه ما نَشَأَ على محبته، ما كافح من أجله، ما صار كنزه وحياته. وما هو كريم وثمين في عين الإنسان إنما هو كل فضيلة

مسيحية، وهو أيضاً ملكوت الله الذي ينبغي علينا أن نحبّه ونعرفه ونجعله خاصتنا على هذه الأرض، ونجعل جذوره عميقة داخل قلوبنا بحيث لا يبقى فينا أي مكان تعشش فيه الخطيئة".

ويجدر بنا، على حدّ قول الأب يوحنا، "أن نؤمن بالله، ليس لأنّ الآخرين يتحدثون عنه، بل بالاستناد إلى خبرتنا الخاصة. والخبرة ستنير إيماننا وتحييه. على كلّ واحد أن يختبر شخصيّاً ويعرف أنّ "المسيح هو الرب" . فقط ذاك الذي تذوّق بنفسه الهبة السماوية وصار مشاركاً للروح القدس وعرف صلاح الكلمة الإلهيّة وشعر بقوّتها، ذاك فقط يملك إيماناً راسخاً".

-١٢-

وأمر آخر مشابه: كما أنَّ الحقيقة والصلاح ينكشفان في القلب، وكما أنَّ السلام والفرح والحريّة تنكشف كلّها في نبضاته، كذلك أيضاً، بل وبأشد قوّة، ينكشف فيه الله نفسه الذي هو نبع الحياة والحقيقة والخير والصلاح، وأيضاً نبع الجمال والحريّة.

"المسيح الذي يدخل قلبنا بالإيمان يملك هناك بالسلام والفرح. وليس عبثاً أننا نقول عن الله أنّه قدّوس "وفي القدّيسين يستقرّ ويستريح".

وفي موضع آخر يؤكد الأب يوحنا "أنّه في قلب الإنسان يتحقّق إمّا الاقتراب من الله وإمّا الابتعاد عنه. لذا هناك مرّة فرح وسلام، ومرّة أخرى خوف وحزن واضطراب. مرةً حياةٌ ومرة أُخرى موت روحي. عندما يملك المسيح في قلبنا، ساعتها نرضى بكلّ شيء فتسهل الصعوبات التي نواجهها، ويصير المرُّ حلواً، والفقر غنىً، والجوع شبعاً، والضيق فرحاً. أمّا عندما يغيب المسيح عن قلب الإنسان، فساعتها لا يرضى الإنسان بأيّ شيء: لا بالصحة، ولا بالراحة ولا بالغنى، ولا بأيّ شيء آخر!".

وأخيراً حول هذا الموضوع:

"كما لا يستطيع الجسد أن يحيا من دون هواء، كذلك الروح لا تستطيع أن تحيا الحياة الحقّة من دون الروح القدس. حاولْ، من خلال حياة نقيّة ومنضبطة، أن تكون على الدوام مع الله، لأن الروح من دون الله صائرة إلى الموت".

-١٣-

من بين كلّ شهادات الأب يوحنا التي يتحدّث فيها عن خبرة الإنسان الداخلي لمعرفة الله، فإنّ إظهاره مدى قرب الله من الإنسان كان أعظمها على نحو مميّز.

"الله أقرب إلينا، في كلّ الظروف وفي سائر الأوقات، من أي إنسان، أقرب إلينا من ردائنا، من الهواء والنور المحيطين بنا... به أعيش في الجسد والروح، به أتنفّس، به أفكّر، أهدف، أتحدّث وأعمل... علينا أن نكيّف ذواتنا بشكلٍ لا نسمح فيه لأي شيء أن يبعد المسيح عن عقولنا وقلوبنا. لا نجعلنّ أي شيء عائقاً أمام حضور المسيح... ولكنني، عندما أخطيء أو تتملّكني الشهوة لأمر ما، أشعر بذاتي بعيدةً عنه، ليس مكانيّاً بل روحياً. فبمقدار بُعد قلبي عنه... بمقدار ما تهجرني نعمته". اللافت، هنا، أنّنا نعثر في كتاب كاباسيلاس "الحياة في المسيح" على هذه الكلمات في شأن قرب الله من الإنسان.

"وهذا يثير الغرابة: يبدو لنا أنّه من المستحيل أن يكون المرء أقرب إلى أحد منه إلى ذاته. لكن، على الرغم من ذلك، فالاتحاد السريّ بالله هو أكثر كمالاً. أرواح القدّيسين، بينما تبقى كلّياً كما هي، تكون أقرب إلى المسيح منها إلى كيانها الخاص".

-١٤-

الإنسان يحمل صورة الله فيه. والأب يوحنا يفهم، بالطبع، أنّ قرب الله من الإنسان مرتبط بصيرورة الإنسان على صورة الله. فهو يقول في هذا الموضوع:

"إنتبه كثيراً إلى صورة الله التي خُلقت روحك على مثالها. هذا المثال ثمين في عين الله ومَرضيٌّ لديه، وهذا هو العنصر الذي يجعلنا نحبّ أحدنا الآخر. روحنا

ثمينة أمام الله، فهي صورته، صورة الله الحيّة.... ولصورة الله أن تتزيّن بالحقّ والقداسة واللطف والتواضع والنقاوة والصبر وبرغبة حرّة لكلّ فضيلة".

المقطع التالي يوضّح، على منوال أفضل، هذه النقطة:

"ماذا يستطيع الخالق أن يفعل للإنسان أكثر من أن يخلقه على صورته، من أن يؤلهه من خلال اشتراكه في الأسرار المقدّسة، من أن يمنحه العقل والقداسة والحقيقة والإرادة الحرة؟ أيها الإنسان احرص أشدّ الحرص على ما يحويه داخلك، على "صورة الله ومثاله" ولا تكن عبدا للخطيئة".

والدة الإله تصوّر الإتحاد الأسمى بين الله والإنسان، فحسب تعبير الأب يوحنا ، إنّها "أيقونة الله أو صورته الأكثر سمواً وعلى مثاله".

"وسبب عظمتها، كما يتابع هو نفسه، يعود إلى محبّة الله التي لا تحدّ نحو الإنسان، نحو صورته التي سقطت. إنّها رغبة الله في أن يقوم الإنسان ويرتفع إلى كماله الأوّل وغبطته الأبويّة".

يحلّل الأب يوحنا في مواعظه، التعليم الأرثوذكسي لجهة صورة الله في الإنسان، لجهة انفسادها نتيجةً للسقوط، وإعادة ترميمها نتيجةً لذبيحة المسيح. وهو يعرض الموضوع على النحو التالي، مستعملاً لغة آباء الكنيسة:

"الله يصير إنساناً لكي يصير الإنسان إلهاً. الإنسان جُبل ومنذ البدء "على صورة الله ومثاله"، أي بارّاً، طاهراً، قديساً، عاقلاً، حراً وخالداً... لذا بعد السقوط ، لأجل أن تتوحّد هذه الصورة مع صورتها الأولى... لأجل أن يخلص الإنسان الساقط... صار ابن الله ابن الإنسان ليجعل أبناء البشر أبناءً لله".

وعندما يتحدّث الأب يوحنا عن خَلق الإنسان يستعمل عبارة "تربية" "كترميم لصورة الله"، وعبارة "مقدس" "كمشابه لله". وحسب تعبير آباء الكنيسة، فإنّ غاية الحياة هي "التألّه"، وحسب تعبير بعضهم الآخر هي "أن نصير على مثال الله"، وحسب تعبير آخرين هي "الاشتراك الكامل في الحياة الإلهيّة". والأب يوحنا، من ضمن قاموس التعابير هذا، يقول: "الله يطلب إلى الإنسان أن يصير بالكلّية على مثاله هو، على مثال الصورة ـ الرسم الأول ـ التي صوّر عليها".

في مقطع آخر يصف لنا ماذا كان الإنسان المخلوق الأوّل ـ حيث صورة الله لم تكن بعد قد فسدت بالخطيئة:

"كان عقلهم مستنيراً وكانوا يفهمون دون عناء كلّ ما كان يحيط بهم. الله نفسه كان نور عقولهم، وكانت أوّل معرفة محببة بالنسبة إليهم هي معرفة الله. أمّا قلبهم فقد كان ممتلئاً محبّة نحو الله وبعضهم نحو البعض، وكانوا يفرحون بهذه المحبّة... الإنسان الأول عاش مع الله، ارتاح فيه ووجد فيه نفسه".

على هذا المنوال كان الأب يوحنا يعظ في مفكرته، ويقول عن نفسه:

"أحب أن أصلّي في كنيسة الله، خصوصاً في الهيكل بالقرب من المذبح، لأني أتغيّر سرّياً بنعمة الله. بالصلاة والتوبة والعودة إلى الذات تسقط من نفسي الأهواء فأشعر نفسي خفيفةً ويختفي كلّ سحر الأهواء ولمعانها. كما لو أني أموت عن العالم، والعالم بمطرباته يموت بالنسبة إليَّ. أصير حياً في الله، أنتعش به، وأصير واحداً معه بالروح. أصير كطفل وجد عزاءَه في حضن والدته. حينها يمتلىء قلبي بسلام سماوي، وروحي تستنير بنور إلهي فأرى كلّ شيء بوضوح وعلى حقيقته، أشعر ساعتها بالمحبّة للجميع. آه ما هذه السعادة المغبوطة التي تعرفها النفس مع الله. حقاً إنَّ الكنيسة جنّة أرضية".

إنّ مقارنة هذه المقاطع، بعضها ببعض، تظهر لنا أنَّ مصدر تعليم الأب يوحنا اللاهوتي إنّما هو خبرته الروحيّة الشخصيّة. لذا، حتى تأكيداته العقائدية في خطبه وكتاباته تحمل قوة خبرة حيّة معيوشة. من المفهوم أنه باختباره الذاتي، ولو لجزء من ترميم صورة الله، كان قادراً على كتابة ما يلي بمثل هذه الحيوية:

"يا رب، كما أن طبيعة المصوّر عنه تجذب إليها كلّ صورة أخرى وتمتلكها، تقيم فيها وتحيا فيها، كذلك من الطبيعي لهؤلاء الذين خلقوا على صورتك أن يميلوا إليك بكلّ محبّتهم، بكلّ نفوسهم وبكلّ قدرتهم وأن يتّحدوا بك".

الله حر بشكل مطلق. والإنسان الذي يتمّم إرادة الله لا يخسر الحريّة الحقيقيّة بل يربحها. ولّما كان الإنسان يحمل صورة الله فيه، فإنّ إرادة الله ليست أمراً خارجيّاً بالنسبة إليه، ولا هي تنتقص من حريته. بل على العكس، فإنّ الإنسان يجدّد نفسه في الله ويحقّق ذاته فيه وهو بتتميمه وصايا الله في حياته يحصل على معرفة حقيقيّة لذاته.

في ما يلي يعبّر الأب يوحنا عن أساس الحرية الحقيقيّة هذه:

"ماذا يعني أن تخدم الله؟ معناه أن تطابق الصورةُ رسمَها الأوّل التي صُوّرت عليه، كما تطابق نقطة الحياة نبعَ الحياة، ونقطة الحريّة نبعَ الحريّة، ونقطة المعرفة نبعَ المعرفة والحكمة".

كلّ هذه الأمور تؤدي بالإنسان إلى الشعور ببنوّته لله، وقد صار هذا ممكناً بالكليّة من خلال يسوع المسيح، لأنّه هو الذي رمّم الصورة التي سقطت، وبذلك جعل الإنسان ابناً لله الآب، لذا يستطيع المسيحيون الحقيقيون، بالاشتراك مع المسيح، أن يدعوا الله "أباً"، بناءً على وصيّة المسيح. هذا التحقيق المفرح والمغبوط لبنوّة الله إنّما هو دليل حياة مسيحيّة حقّة. والأب يوحنا امتلك تحقيق بنوّته للّه إلى درجة كبيرة.

وهنا إحدى شهاداته لهذا الواقع ، من كتاب "حياتي في المسيح" :

"ما هاتان السعادة والغبطة، ما هذا الشّرف أن يدعو أحدهم الكائن الأزلي "أباً". احفظْ دائماً في ذهنك هذه الغبطة التي وهبتك إياها محبّة الله اللامتناهية، ولا تنسها ساعة صلاتك. فالله والملائكة والرجال القدّيسون يُنصتون إليك.... ٢٥ شباط ١٨٨٤. لقد انهمرت دموعي وأنا أكتب هذه السطور".

الفصل العاشر

الكنيسة

-١-

أوردنا، في ما سبق، أفكاراً للأب يوحنا تُظهر لنا مدى حرّيته وصدقه في قبوله الحقيقة الإلهيّة، ويدعونا فيها إلى قبول مماثل. لكنّ الحقيقة المسيحيّة، على الرغم من إمكان قبولها من كل شخص، لا تنكشف في ملئها لأفراد، بل في الكنيسة وذلك من خلال الكتاب المقدس والتقليد الذي تحافظ عليه الكنيسة. فخارج إطارها، لا يكون الفهم الدينيّ الفرديّ كاملاً وهو على الأغلب قد تشوبه أخطاء. فمن الضروري إذاً مراقبة دائمة للخبرة الشخصية على ضوء خبرة الكنيسة.

أمّا رأي بعض المتفرّدين الذي يقول بعدم ضرورة انتماء المرء إلى كنيسة فهو لا يستند إلى أيّ أساسٍ من الصحّة. حتى على الصعيد الدنيوي، لا مفرّ للإنسان من الاستفادة والاستعانة بخبرة غيره من الناس. فهل كان إنسان هذا العصر ليستطيع أن يخترع أمراً لو لم يرجع إلى مكتشفات الأجيال السابقة والمعاصرة، إذن كان عليه أن يبدأ عمله باكتشاف قواعد الحساب والجبر؟ من الواضح أنّه، لامتلاك أي نوع من المعرفة، لا بدّ من الدخول في اتّصال مع هؤلاء الأشخاص الذين يحافظون على هذه المعرفة ويهتمّون بنشرها. فكلّ المجتمعات الإنسانية تجتمع حول أهداف محدّدة، ولكلّ مجتمع لونه الخاصّ. فعلى سبيل المثال، الروح الرياضيّة أو الرياضة بحدّ ذاتها لا يمكن تحصيلها بشكلها الأفضل سوى في النوادي الرياضيّة.

من هنا، يجب على المرء أن يبحث عن روح المحبّة المضحّية ومعرفة كيفيّة اقتنائها، في "مجتمع" هؤلاء الأشخاص الذين، لألفي سنة تقريباً، كان هاجسهم

وهدفهم اقتناء هذه الروح والمحافظة عليها ـ نقصد بهذا التعبير الكنيسة. والأب يوحنا يتحدّث عن الكنيسة كمدرسة للخلاص:

"إنّ مسألة خلاص النفس هي أسمى الأعمال وفنّ الفنون، وعلينا نحن أن نتعلّم هذا الفن من الذين يعرفونه والذين صاروا كاملين فيه، وهذه المسألة بالتحديد إنّما هي معروفة بشكل خاص عند القديسين... فالقدّيسون تركوا ميراثهم الروحي، فنّ التوبة والخلاص، للكنيسة الأرثوذكسيّة.... فلننهلْ من الكنيسة ولنتعلمْ منها التوبة والخلاص".

لكنّ الكنيسة ليست فقط مجتمعاً إنسانياً، بل هي إتحاد إلهيّ ـ إنسانيّ يحركّه الروح الكليّ قدسه ويحييه. وهو، أي الروح، نزل إلى الأرض لأجل خلق الكنيسة. الروح لم ينزل على فرد أو أفراد كثيرين، بل على أشخاص متّحدين في الإيمان، ذوي عطش روحي واحد. لذا فالحياة الإلهيّة ـ الإنسانيّة، التي يلهمها الروح القدس، ممكنة فقط داخل الكنيسة. والأب يوحنا يظهر جوهرها في تعليمه. لذلك نعثر عنده على الكثير من الأقوال الملهمة بشأن الكنيسة.

-٢-

عاش الأب يوحنا في وقت بدأ فيه لاهوت الكنيسة يأخذ منحى جديداً، والبداية نعثر عليها عند السلافوفيليين، وعلى رأسهم خومياكوف. هذا الأخير علّم على النحو التالي:

"إنّ معرفة الحقائق الإلهيّة تنكشف للمسيحيّين من خلال محبّتهم المتبادلة. لذا فإن عصمة معرفة الحقائق الإلهيّة تصحّ فقط وحصراً في الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة، التي اتّحدت بالمحبّة المشتركة. واتحاد أعضاء الكنيسة ليس سوى توافق الحريات الشخصية. الكنيسة ليست سلطة، كما أنّ الله ليس سلطة، لأنّ السلطة تعبر عن أمر يقع خارجنا".

وتعليم السلافوفيليين تطور في ما بعد على صعيد اللاهوت والفلسفة الروسيَّيْن. فعلى سبيل المثال، تحدّث المطران خرابوفسكي مؤخراً عن أنّ وحدة الأشخاص في الكنيسة إنّما هي على صورة الوحدة الفائقة الكمال في المحبة بين

أقانيم الثالوث القدّوس، وهو بذلك يرى أنَّ عضو الكنيسة إنّما يقيم بشكل راسخ في الحقيقة والمحبّة، ومن خلال هذا الواقع يؤكّد حريته الحقيقية.

قد توضح لنا دراسة دقيقة لرسائل الأب يوحنا ما إذا كان قد تأثر بالكتّاب والمفكرين الروس المعاصرين له. ولكن، حتّى من دون اللجوء إلى برهان كهذا، يستطيع المرء أن يلاحظ في روحه وأفكاره حول الكنيسة قرابة تجمعه بهم.

من هذه الناحية، كان الأب يوحنا ابن عصره. من خلال كتاباته يتّضح لنا جليّاً أن الكنيسة، بالنسبة إليه، هي في المقام الأوّل وحدة حيّة للمؤمنين ملتصقة بالله وقد التصق أفرادها بعضهم ببعض بروح المحبّة الإلهية، وفي مقام آخر، هي حافظة للحقيقة الحيّة، وأخيراً، إنَّ الإنسان في الكنيسة لا يخسر حريته، لكنه يصير ثابتاً فيها برسوخ أوفر.

-٣-

في أساس وحدة الكنيسة يتحدّث الأب يوحنا عن وحدة الجنس البشري:

"كلّنا خلقنا من الأرض، كما الماء والهواء والأشجار المتعدّدة الأغصان. نمثّل جميعنا كُلاً واحداً رغم أنّنا متفرّقون ومنقسمون إلى مجموعات مختلفة بسبب حسد الشيطان، بسبب التكبّر والعداوات والأحقاد والأنانية وغيرها من الأهواء".

وحدة الكنيسة، بالنسبة للأب يوحنا كما بالنسبة للمطران خرابوفسكي، قائمة وهي مرآة لوحدة الثالوث تجب المحافظة عليها: "كما أنَّ الثالوث القدوس، إلهنا، هو كائن واحد، إله واحد في ثلاثة أقانيم، كذلك نحن، علينا أن نكون واحداً: إنساناً واحداً، فكراً واحداً، إرادة واحدة، قلباً واحداً، صلاحاً واحداً وخيراً واحداً من دون أيّة شركة مع الشرّ. باختصار: محبّة خالصة، كما أنّ الله محبة".

وحدة كلّ الشعوب، والتي تعبّر عن صورة الله الثالوثي الأقانيم في البشرية، هي بالنسبة للأب يوحنا كمال الوصيّة التي أعطاها السيّد نفسه:

"إنّها وصية عظيمة أن نحافظ على وحدة الروح ولهذا صلّى ابن الله إلى الآب: "أيها الآب، احفظهم باسمك الذين أعطيتني حتى يكونوا واحداً كما نحن

واحد" (يو ١٧:١١). إنَّ الذي يرغب بوحدة الجميع، أن يكون الجميع روحاً واحداً، والذي يعمل حسب ذلك، هو من الله. أمّا المعلّمون الذين لا يباشرون عملهم من الله فيخلقون الانقسامات. المجد للإيمان الأرثوذكسي! الثمر الحقيقي لهذا الإيمان كان ولم يزلْ وحدة المؤمنين في رباط المحبة".

ولما كان الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله، فإنّه من الطبيعي أن يعبّر عن شوقه إلى الوحدة، وهذه هي حال البشريّة قاطبة، فيقول الأب يوحنا:

"إنّ الذي يلتصق بالله من الطبيعي بالنسبة إليه أن يحبَّ قريبه، لأنَّ قريبه هو على صورة الله".

وأيضاً بالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى كل مسيحيّ حقيقي، فإنّ محبة الله والناس هي كلٌّ لا ينقسم:

"يجب أن تكون روحاً واحداً مع الله ـ روح القداسة، المحبة، الوداعة، طول الأناة والرحمة. والذي ليس له هذه الروح فيه، ليس هو في الله. سأمتلئُ إذاً من المحبة، وأنظرُ إلى الكلّ كواحد متّحد بالمحبة، على مثال النظرة التي عبّر عنها المسيح في صلاته. فليتحققْ هذا الشوق الإلهي! يا ربّ، أعِنّي!".

هناك الكثير من أقوال الأب يوحنا التي تأتي على ذكر الوحدة في المحبة. نلمس فيها دعاء وصلاة في آن واحد. رغم أنَّ كلماته حول المحبة هي ذاتها دوماً، إلاّ أنها ملأى بالحياة ما يجعلها تبدو جديدة في كل مرة:

"حياة القلب هي المحبّة. أمّا الحقد والكراهية فهما موت القلب. الله يحفظنا على وجه هذه الأرض حتى يمتلىء قلبنا محبة بالكلية تجاه الله وتجاه قريبنا. وهو ينتظر ذلك من كلّ واحد منا. هذا هو هدفه في العالم".

-٤-

إذا كانت وحدة المحبة بين الناس الخطأة ما زالت في صيرورة وسعي، فإنّها، بالنسبة إلى القديسين والملائكة، قد بلغت كمالها في الكنيسة الظافرة، إنّها كذلك بالنسبة إليهم لكونهم تطهّروا بالمحبّة الإلهية من كلّ شائبة.

والأب يوحنا لا يتوقف عن الشهادة على أنَّ "الكنيسة هي الملائكة، والدة الإله، رؤساء الكهنة، الشهداء، الأبرار، الصدّيقون وجميع القديسين. كلّهم يؤلفون جسد المسيح. والسيد نفسه هو رأس هذا الجسد. هم روح واحد مع الله. روح واحد فيهم: روح الله الذي يسود فيهم، كما هي الحال بالنسبة إلى روح في جسد واحد".

وحين يتحدث عن وحدة الكنيسة، لا يتخذ له العقل أساساً، بل بالأحرى خبرته الروحية الداخلية. كان يشعر هذه الوحدة في قلبه، كان يشعر قرب الله منه وقرب القديسين أيضاً:

"إنَّ والدة الإله، الملائكة الأطهار وجميع القديسين هم قريبون إليّ عندما أدعوهم في الصلاة مقدار قرب نفسي إليّ. وهم يسمعونني كما أنا أسمع نفسي. لأننا كلّنا جسد واحد، روح واحدة وكنيسة واحدة، كنيسة البشر والملائكة. والعلاقة التي تربط بين أعضاء الكنيسة هي على صورة العلاقة القائمة بين أعضاء الجسد: يخدمون بعضهم البعض، يؤازرون بعضهم البعض، ويخلّصون بعضهم البعض".

وفي موضع آخر من مذكّراته، يقول:

"آمِنْ بشكل راسخ أنّه مهما فكرت، شعرت أو قلت، كائنةً ما كانت حركاتك ونشاطاتك، فإنك دوماً في الله. هو دعاك إليه، هو يعرفك ويملؤك. كذلك أيضاً والدة الإله ومعشر الملائكة كلُّهم في الله. من يمكن أن يكون أقرب إليك من الله؟ لذا ادعُ الله بإيمان ورجاء ومحبة، وافعل كذلك بالنسبة إلى القديسين والملائكة، ورسِّخ إيمانك بأنّهم معك في كلّ حين".

ويؤكّد أيضاً أنَّ كلّ إنسان، تبعاً لتقواه، يكون قريباً من الله ووالدة الإله وجميع القديسين:

"رجال الله القديسون هم روح واحد مع الله، وكذلك الذين يعيشون في البرّ على الأرض. يا لهذا الشرف العظيم لسكان الأرض! ويا للعار الذي يلحق بالأشرار! إنّهم روح واحد مع الشيطان. أنقذْنا منهم أيها الرب يسوع!".

-٥-

ما يميّز الأب يوحنا شعورُه بقرب الله منه، كما وبقربه من سائر أعضاء الكنيسة، على نحو خاص حينما يتمّم الخدم الإلهيّة.

إن لفظة "الكنيسة"، والتي تعني المبنى نفسه كما وأيضاً وحدة الملائكة والبشر في المسيح، ليست مصادفة، لا بالنسبة للأب يوحنا ولا لآخرين غيره، بل هي واقع روحيّ حقيقي. بالنسبة إليه، جسد المسيح، الكنيسة، يتجلّى كواقع حيّ معيوش داخل "الكنيسة" ـ المبنى، من هنا التماهي القائم بين "الكنيسة" والكنيسة ـــ جسد المسيح:

"داخل الكنيسة، بشكل خاص، يحصل اتّحاد النفوس التي تطلب الله، بمثالها وخالقها. داخل الكنيسة أشعر نفسي موجوداً في السماء الأرضية. هنا أحدّق بالسيد ووالدة الإله والملائكة، هنا مذبح الله، هنا الصليب المحيي، هنا الإنجيل الذي لا يفنى، كلمة الله التي بها كلّ شيء يتثبت في وجوده..."

"أشعر في داخلي بحضور الله، بحضور والدة الإله والقوّات السماويّة وجميع القديسين. هنا، في الكنيسة، أشعر بالسماء الحقيقيّة، وأعي ذاتي عضواً في جسد المسيح وكنيسته، على وجه الخصوص أثناء القدّاس الإلهيّ والمناولة المقدّسة. آه، كم على حياتي أن تكون كاملة حتى تستحقّ أن تُوجَدَ في هذه السماء الأرضية!".

هذا المقطع الأخير يبرز مرّة أخرى المركز الحقيقي لحياة الأب يوحنا، ألا وهو الليتورجيا وبشكلّ خاص سرّ الشكر. ونلمس هذه الناحية في كلّ فصل من فصول هذا الكتاب، ولا يسعنا أن نفعل شيئاً آخر، لأنّنا حيثما يظهر الأب يوحنا أو يؤتى على ذكره، نعثر على شهادة ما حول المعنى الكبير الذي لسرّ الشكر والليتورجيا. مثل هذه الشهادات بشأن سرّ الشكر لا مفرّ منها في كتابات الأب يوحنا. وحين يحتلّ القدّاس الإلهي مركز الكنيسة من خلال هذا السرّ، تتحقق وحدة الكنيسة وتجد تعبيرها، وهذا ما أدركه الأب يوحنا أكثر من أي شخص آخر:

"خلال الليتورجيا تتّحد السماء بالأرض، الله، الملائكة السماويون والقديسون يتّحدون بالبشر، يا لهذه الوحدة المغبوطة!".

-٦-

عندما ندرك إلى أيّ مدى وعمق كان الأب يوحنا يشعر حقيقة الكنيسة لن نستغرب، ساعتها تسميته إيّاها "أُمّاً" أو "عائلة". في هذه التسميات ملء تعبير خبرته الروحيّة وعمقه. لم يفهم الكنيسة عقليّاً فحسب، بل بكلّ كيانه. في المقطع التالي يحدّثنا عن الكنيسة كأمّ:

"بعض "المتجدّدين" يعتبرون الكنيسة عدّوة لهم. ولكن أيوجد بعد الله من هو أغزر حبّاً وأكثر رحمة وحكمة من الكنيسة؟ الكنيسة تحوي كلّ ما ينسجم مع طبيعتنا، كلّ ما يحقق ذاتنا ومِلْءَها، كما تحوي أيضاً الإنجيل كلمات الحياة. الكنيسة هي أمّ حقيقية لكلّ الجنس البشري المؤمن بالمسيح، إنها الصَّديق الصِدّيق بالحقيقة لكلّ مسيحي. إنّها تُجيب، بالمسيح وبالروح القدس، عن كلّ متطلّبات المسيحيّين، سواء أكانت ماديّة أم روحيّة!".

"كنيسة الله هي مثل عائلة كبيرة مقدّسة، حيث الله هو الأب ، والدة الإله هي أُمُّنا، والملائكة والقديسون إخوتنا الأكبر منا، وأمّا نحن فجميعنا إخوة. تلدنا في جرن المعمودية بالروح القدس. بكلّ تأكيد، على الأحداث أن يحترموا إخوتهم الأكبر منهم، وهم كقاصرين يقعون في شكل طبيعي تحت رعايتهم، يسألونهم الصلاة لأجلهم أمام الله، إذ هم بالحقيقة خليلو الله".

-٧-

هكذا هي الكنيسة حقيقةً: أمٌ، عائلةٌ، وحدةٌ، ملكوتُ الله، وإذا كانت جسد المسيح وهو رأسها، وإذا كان روح الحق والمحبّة يقيم فيها، وإذا كانت واحدة مع الله، فهل يعقل أنَّ الحقيقة التي تقيم في الكنيسة تبقى غريبة عنا، وأن الكنيسة تبتر الحرية؟ بالطبع ليس هناك سوى جواب واحد عن هذا السؤال: لا!

قد ذكرنا سابقاً أنَّ الإنسان الذي يعيش في الله ويتمّم وصاياه يربح نفسه ويجني حريته. ونستطيع أن نقول الأمر عينه عن الإنسان والكنيسة، لأن الوحدة مع الله تكتمل من خلال محبّة الناس والوحدة معهم في الكنيسة.

وخومياكوف هو أول من تحدّث، كلاهوتي روسي، عن الحقيقة في الكنيسة، وأبرز هذا الموضوع على نحو كبير:

"لا يمكن أن يجد الإنسان في الكنيسة أمراً غريباً عنه. يجد نفسه فيها ليس في الضعف والعزلة بل في قوّة الوحدة الروحيّة مع إخوته ومخلّصه. أمّا تطهير الذات فيتمّ بتلك القوّة التي لا تُقهر، قوّة المحبّة المتبادلة بين المسيحيين في المسيح يسوع، إذ إنَّ هذه المحبة هي الروح القدس".

ويتابع خومياكوف قوله: "كلّ ذرّة مادية داخل الجسد الحيّ تصير جزءاً لا يتجزّأ من أعضائه وتأخذ منه الحياة. وفق هذه الصورة يتجلّى الإنسان داخل الكنيسة، جسد المسيح، حيث الأساس العضوي هو المحبة". وحسب خومياكوف، فإنّ الكنيسة فقط بكونها هذه الوحدة المقدّسة تستطيع أن تتمّم رسالتها التي "لا تقتصر على خلاص النفوس وتحسين الوجود الشخصي"، ولكنّها تشمل أيضاً "المحافظةَ على حقيقة الأسرار المعلنة عبر سائر الأجيال، واتخاذ هذه الحقيقة نوراً لها ومقياساً".

-٨-

كان واضحاً في عيني الأب يوحنا أنّ الكنيسة ليست فقط وحدة البشر والملائكة، ولكنّها أيضاً حافظة للحقيقة الإلهية. وأكثر من ذلك، إنّها الحقيقة نفسها:

"الكنيسة هي حقيقة لا تنتهي، لأنّها متحدة بالحقيقة ـ المسيح، ويُحييها روح الحق، لذا ينبغي علينا أن نشعر بالإحترام لكلّ كلمة ولكل فكرة أثناء الصلوات وقراءة الكلّمة الإلهية. ينبغي أن نبتعد عن الشك لأنه سمّ لروح الحياة، فالروح القدس هو الذي علّم الرجال القديسين، كما البسطاء والأطفال، أن يشكروا الله ويمجّدوه من خلال تلك الصلوات التي تُعلّمنا إياها الكنيسة".

وفي مكان آخر، يضيف في هذا المجال:

"وقِّرْ كلّ فكرة، كلّ كلمة تُعلّمها الكنيسة... كنْ واحداً مع الجميع. لا تعشْ، لذاتك، حياة منفصلة، حياة أنانية".

في هذه الكلّمات الأخيرة تتبيّن لنا الدعوة إلى معية عضوية في الكنيسة، إلى وحدة في الحق والمحبّة، ولا نجد في أي مكان تهديداً أو انصياعاً أعمى. هناك دعوة من الأب يوحنا إلى البشر لأن يحبوا الحق كما هو نفسه يحبه، لأنّ هناك الحرية:

"الإيمان الأرثوذكسي والكنيسة يضيئان في السماء كالشمس، ويستطيعان أن يخلّصا كلّ إنسان على الأرض. الأرثوذكسية هي الحقيقة السماوية على الأرض في كلّ نقاوتها، وفلسفات الإنسان لا تقوى عليها".

وفي الوقت عينه، الحقيقة هي دوماً في متناول كلّ إنسان، تُقدّم له ولأجله:

"إن صوت القراءات الكنسيّة والترانيم والصلوات والتضرّعات هو صوت نفوسنا. هذا الصوت يعبّر عن أوضاعنا الروحيّة وعن حاجاتنا ومشاعرنا. إنّه صوت البشرية جمعاء التي تعي فقرها وضعفها، إنّه صوت يعبّر عن حاجتنا للمخلص، عن شكرنا اللّه وامتناننا له وتمجيدنا إيّاه على إحساناته الغنية التي لا تحصى. هذه الصلوات والترانيم هي معجزة ومدهشة، إنّها نَفَس الروح القدس".

هكذا يفهم الأب يوحنا أنّ "صوت البشرية جمعاء" و"نَفَس الروح القدس" تعبير عن الحقيقة، الحقيقة الإلهيّة ـ الإنسانيّة. وهل يمكن أن يكون غير ذلك؟ الحقيقة المتجسّدة هي الإله ـ الإنسان نفسه، هي المسيح يسوع، هي الكنيسة جسده.

-٩-

من هنا نستنتج أنّه حتى تُنجَزَ هذه الحقيقة الإلهية ـ الإنسانية نهائيّاً على الأرض، لا بد من وجود مقوّمات ثلاث: أوّلاً الإعلان والكشف الآتي من الله، ثانياً قبول الكنيسة لهذا الكشف، وأخيراً نشرها إيّاه بين المؤمنين.

في المقطع التالي يصف لنا الأب يوحنا هذه الصورة بأبعادها الثلاثة: كشف الحقيقة، قبولها وانتشارها:

"إذا كانت حقيقة ما قد انكشفتْ بكلمة الله، وامتُحِنت وفُسّرت من قبل رجال قدّيسين مستنيرين، وإذا كان القلب قد اختبر نورها وحياتها المحيية، ساعتها يكون كلّ شك بها أو عدم إيمان بمثابة خطيئة كبيرة. إنّه ضلال العقل والقلب".

من المفروغ منه أنَّ الحرية تسود تحقيق هذه المراحل الثلاث، لأنّ في كلٍّ منها تجلّياً للمحبّة. فالله من فيض محبّته يكشف حقيقته للبشر، والكنيسة بدورها تقبل هذه الحقيقة بحرية وإلهام روح المحبّة، وتعطيها أبناءَها الذين، إذ يحبون الكنيسة كأمّ لهم، يقبلون منها هذه الحقيقة ويعيشونها في قلوبهم المُحبّة.

-١٠-

صار من الضروري الآن أن نقول أنَّ الحقيقة، إذا ما فهمها الإنسان وقبلها بحريته، تصير له قانوناً، بحيث إنّ أيّ تجاوز لها يؤدي إلى نتائج وخيمة.

ليست المسألة أنَّ الله يعاقب الذين يعصونه أو ينتقم منهم، بل المسألة أنّنا، في تجاوزنا وصيّة الرب الحبيب، وقد قبلناها بملء حريتنا، نرفض أصدق وأقدس ما في الإنسان ونخونه: ذاتنا وحرّيتنا وحياتنا.

سنشير لاحقاً إلى كيف أن الأب يوحنا فهم على هذا النحو النتائج الوخيمة للخطيئة، وكيف أنه رأى، في الطاعة لله وللكنيسة، تحقيقاً للحرية الحقّة وليس إغتصاباً. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنَّ الأب يوحنا وعى أنَّ الكنيسة متماهية مع الحقيقة. أمّا وَعيُهُ هذا فنابع من الإنجيل، الكتاب المقدّس والنصوص اللاهوتية بشكلٍ عام: "يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣:٨)". وعلى المنوال نفسه الحقيقة الإلهيّة، واحدة، ثابتة وإلى الأبد. أنتَ تتغيّر، علاقتك بالحقيقة تتغيّر، ولكنّ الحقيقة تبقى هي هي، شمساً تُضيء، تدفيء وتحيي.

الفصل الحادي عشر

في والدة الإله والعالم المخلوق

-١-

تُبرز كل الوقائع التي تتناول حياة الأب يوحنا الروحيّة، وبما يشبه الإجماع، المدى الذي بلغته خبرته الروحيّة ومدى ارتباطها والتصاقها بخبرة الكنيسة. إنَّ نَفْس الأب يوحنا، كَنَفْس كل مسيحي حقيقي، ليست منغلقة على ذاتها. إنّما هي منفتحة في اتصال وتواصل دائم مع الله ومع القريب. لذا فهو في كتابه "حياتي في المسيح" لا يتحدث عن ذاته ولا يكشف النقاب عنها فقط، بل يتحدث أيضاً عن عالم مضيء مركزه الله، الشمس العقليّة، ومن حوله الكواكب الروحيّة المضيئة. أما نفسه فكانت تستضيء بأشعة ذلك العالم الروحي ونوره.

ليس هدفنا هنا أن نستعرض كل محتوى مؤلّفات يوحنا كرونشتادت. هدفنا بالأحرى لفت الانتباه إليها. فالدراسة الكاملة لسائر مؤلّفاته ستقود إلى عرض نظام متكامل عقائدي وأخلاقي لاهوتي، إذ إنَّ الأب يوحنا يتعرّض، في مؤلّفاته هذه، إلى مختلف المواضيع التي يعبّر عنها دستور الإيمان. وقد أفرد مكاناً خاصاً لعمل الرب يسوع الخلاصي ولمواهب الروح القدس.

إنّ ضيق المجال والهدف الخاص من وضع هذا الكتاب لا يسمحان لنا بأن نعرض لكل هذه النقاط. ولكن حينما يجري الحديث عن ذلك العالم المضيء الذي عاشه والذي كافح لأجله ولأجله جاهد وسعى، فإنّه لا يسعنا سوى التطرّق إلى موضوعين: أوّلهما يخصّ والدة الإله والثاني يتحدث عن خلائق الله والعالم الحاضر.

"إنّ محبة الله تظهر فينا وتعمل فينا حينما نبدأ نحن بمحبة قريبنا كأنفسنا، عندما لا نوفّر جهداً أو لا نحجمُ عن التضحية بأنفسنا من أجله... "لأنّ من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره" (١يو ٤:٢٠).

هكذا فإنّ محبة الله لا تنفصل عن محبة القريب كما جاء في تعبير الأب يوحنا. أمّا السبب فهو صورة الله في الإنسان، في كل إنسان، حتى الإنسان الخاطئ:

"أحِبَّ كل إنسان، ينصحنا الأب يوحنا بغضّ النظر عن خطاياه وزلاّته، فإنَّ ما ستراه في كلّ إنسان إنّما هو صورة الله".

لا يسعنا في محبتنا الصادقة لله إلاّ أن نحب الإنسان الخاطئ، لأجل أنّه هو أيضاً خُلِقَ على صورة الله، وذلك مهما احتجبت هذه الصورة فيه بسبب الخطايا.

وكيف لا يسعنا ساعتها ألاّ نحب والدة الإله التي حفظت صورة الله فيها غير مُعابة؟ فإنّه، لأجل نقاوة تلك الصورة، صارت العذراء الطاهرة رابطاً جامعاً بين الله والإنسان. لأجل نقاوة صورة الله فيها صار التجسد ممكناً.

"لو أنّ البشر لم يخلقوا على صورة الله فما كان الله ليتجسّد من العذراء الطاهرة. كم رفع الخالق جبلّتنا بعمله الخالق وعمله الخلاصي!... افرحي أيتها المجيدة المباركة مريم لأنَّ الله أنعم عليك بهذه الطهارة وهذه النعمة حتى استطعتِ، بحسب مسرّة الآب وشركة الروح القدس، أن تحملي في حشاكِ ابن الله المتجسّد منك".

ينكشف، مما ورد أعلاه، فكر الأب يوحنا الذي يتميّز به في شأن والدة الإله، إذ يرتبط فكره هذا بخلق الإنسان على صورة الله.

"إنَّ والدة الإله ـ كما يتابع الأب يوحنا قوله ـ هي جسد واحد ودم واحد وروح واحدة مع المخلص لمّا ولدته. كم نعجز عن وصف كرامتها! صارت والدة الله نفسه، معطية إياه جسداً، مغذية إياه بحليبها، حاملة إيّاه على ذراعيها، شاملة إيّاه برعايتها أثناء طفولته، ملاطفة إيّاه... يا ربّ، من يستطيع أن يصف عظمة

والدة الإله الكلّية القداسة أو يتحدّث عنها؟ إنّها واحدة مع الله كما هي الحال بالنسبة للقديسين، بل وأكثر منهم".

إنَّ تصوير والدة الاله في الأيقونات يعطي دفعاً للأب يوحنا ليغوص أكثر في المعاني التي تتناول والدة الإله وصِلَتها بخلاصنا:

"قفْ منذهلاً ومشدوداً أمام أيقونة والدة الإله وعاينْ إلى أية درجة بالحقيقة صارت الألوهة متّحدة بالبشرية، وارفعْ المجد لله ولنعمته وع كرامتك الإنسانية وعِشْ بما يوافق كرامتك كابن لله وارثٍ للغبطة الأبوية".

-٣-

لا يتحدث الأب يوحنا بشكل عقلي عن عظمة والدة الإله، لكنّه يتكلم لاهوتياً على خبرته القلبيّة. فهو لا ينقطع عن الابتهال إليها والشعور بقربها روحيّاً. ويشعر بالحزن والأسى لأجل البروتستانت وبشكل عام للأجل كلّ المحرومين من عيش خبرات مماثلة:

"إنّه لأمر محزن بالنسبة إليك، أنت الذي لم تتعلمْ ولم تؤمنْ ولم تتعوّد الالتجاء بإيمان وثقة وتواضع ومحبة، في كل أحزانك وشدائدك، إلى أمِّ الحياة الكلية الرأفة والرحمة".

كثيرة هي المرات التي وجّه فيها الأب يوحنا تعابير امتنان وشكر لأجل ما قدّمته إليه والدة الإله والقديسون. يرفع الابتهال إليهم فيقول:

"كما يوجد في دنيانا أغنياء وفقراء كذلك أيضاً في العالم الروحي. أمّا نحن، فإنّنا فقراء روحياً، وأمّا القديسون فهم أغنياء روحياً. لذلك يليق بنا نحن الأشقياء أن نتوسّل إليهم ونلتجئ إليهم".

ويجيب عن شكّ الذين لا يؤمنون بمعونة القديسين ويبدون مقاومة داخلية في هذا الشأن:

"لا، ليس الأمر على هذا النحو! ولكن كيف يمكننا أن ندرك ذلك؟ انظر كيف يكون الأمر: إذا كنتُ لا أدعو القديسين وإذا كنتُ لا أعاينهم بعيني قلبي

فإنني لن أحصل إطلاقاً على معونتهم. أمّا في الحالة المعاكسة، فإنَّ مساعدتهم هي على هذه الدرجة من الوضوح وتأتي بهذه الدرجة من البساطة بحيث لا ينقص سوى عيون لترى".

بساطة الإيمان هذه أعطت الأب يوحنا إمكان الاعتقاد الراسخ بالعون الذي كانت العذراء والقديسون يمنحونه إيّاه. فهو لم يُعطَ فقط أن يعاينهم، بل أُعطي أن يرى العذراء في الحلم. وإليكم كيف عرض الأب يوحنا للأمر:

"في الخامس عشر من شهر أغسطس ١٨٩٨، في عيد رقاد السيدة، كان لي الفرح العظيم أن أرى الملكة السماوية وجهاً لوجه في الحلم وأن أسمع صوتها العذب والمشجّع قائلاً: "أنتم أحبائي، أنتم أبناء الآب السماوي". وإذ أدركت حقارتي، حدّقت في وجهها الكلّي النقاوة بجرأة وافتكرت: "هل سترذلني الملكة السماوية؟" دام الأمر دقيقة واحدة تقريباً، ثم ابتعدتْ عني ببطء وغابت عن الأنظار... أمّا أنا فكنت أشاهد انحسار هذه الرؤية السماوية. في البدء شاهدت العذراء بوضوح كما لو كنت أنظر إلى أيقونة ــ ثم انفصلَتْ عنّي وابتعدتْ. في الليلة السابقة كنت قد كتبت عظة في مناسبة عيد رقاد السيدة. أما بعد غروب العيد، فقد قرأت بتخشّع كبير خدمتي المديح والتضرّع لوالدة الإله".

بعض محبّي الأب يوحنا يعتقدون عند سماعهم تلك الكلمات ــ"كان لي فرح عظيم أن أرى في الحلم الملكة السماوية للمرة الأولى"ـ أنَّ هذه الرؤية لم تكن الأولى ولا الأخيرة بالنسبة إليه. ومهما يكن من أمر، فإنّ سرد الأب يوحنا للحدث ومقدار امتنانه للمعونة يكفيان ليظهرا لنا ما كانت تعنيه والدة الإله بالنسبة إليه ويكشفا لنا أيضاً المصدر الذي استقى منه ليكتب هذه الكلمات:

"كنجم مضيء، كجمرة متّقدة هكذا هي والدة الإله بكلّيتها في وسط ضياء الله. هي كلّية الضياء. كما أنَّ الله هو نور أبدي وقداسة مغبّطة، كذلك أيضاً هي والدة الإله نور دائم الحضرة، وقداسة دون دنس".

أمثال هذه التعابير في شأن العذراء والقديسين تمنحنا فرصة التأكّد من كيفية شعور الأب يوحنا بالحضور في عالم الله الكلّي الضياء كحقيقة ملموسة.

-٤-

إنَّ أفكار الأب يوحنا حول الخَلق لا يُعثر عليها مجتمعة في نظام متكامل لعلم الكونيّات، بل يعثر عيها، هنا وثمّة: بين كتاباته أفكار مبعثرة، لكنها تمتاز بوضوحها الكلّي:

"إنَّ الروح القدس مع الآب والابن هو المبدأ الأول لجمال الخليقة: بادئ بدء جمال الطغمات الملائكية، ثمّ البشر الذين جُبلوا على "صورة الله ومثاله"، وبشكل مميّز جمال القديسين الذين يقتنون الروح القدس داخلهم، وأيضاً جمال ضوء الشمس والنجوم والقمر وسائر الخليقة. هكذا، عندما تُعاين جمال الخليقة لا تَتوقَفَنَّ عندها فقط ولا تَنجَذِبنَّ بسحرها بل ارفعْ ألحاظك على الفور إلى مبدأها الأوّل، إلى علّتها الأبويّة والمطلقة. أُعيد وأُكرّر، ارتفعْ إلى أبديّة الجمال الإلهي، ومنها، فلتمتلئ نفسك وليكن إليها انجذابك. إياها أحببْ ولتتزيّنْ نفسك بالحكمة المتواضعة والإيمان المستقيم والتقوى والبساطة وانضباط الذات والنقاوة والمحبة والتهذيب والتحنن والمشاركة في فرح القريب وحزنه، والصدق، والاستقامة في علاقتك مع الآخرين".

أفكار الأب يوحنا هذه معبِّرة إلى حدّ كبير. تقنعنا بأنَّ العالم خُلق بشكل هرميّ على نحو خارق وفائق. في كل شيء، في كل الخليقة يتجلّى الجمال الإلهي، من أرفع مراتب القوات الملائكية إلى أدنى الأمور المادية. أمّا جمال الدرجات الدنيا للخليقة فيتحلّى بمعنى رمزي، إذ هي تشير إلى الجمال الروحي المتعالي والسامي وتهيِّئُ الولوج إليها. مثل هذه النظرة إلى الكون تمكن الإشارة إليه "بالهرميّة الرمزيّة".

-٥-

"يوجد في العالم المادي الكثير مما يطابق العالم الروحي أو يماثله، لأنّ العالم المادي خُلِق بالروح القدس، والخالق لايريد الا أن يطبع خليقته بصورته. والإنسان يختلف عن بقيّة الخلائق لأنّه بين كل الكائنات هو أكثر من يعكس صورة الله".

عالم كهذا، تنعكس فيه صورة الله وجماله، لا يمكن أن يكون ميتاً بل حياً:

"إنَّ العالم، كونَه مِنَ الإله الحيّ والكلّي الحكمة، يعجُّ بالحياة. في كل مكان بل وفي كل شيء حياةٌ وحكمةٌ. في كلّ منظور نميّز تعبير الفكْر، ليس فقط في مجموعه بل أيضاً في كل جزء من أجزائه. العالم كتاب نتعلّم منه كيفيّة تمجيد الله، كما هي الحال بالنسبة إلى الكتاب المقدّس، ولكن ليس بدرجة الصفاء عينها التي نجدها في هذا الأخير".

هذه المقاطع ليست نتاج مفكّر أو متأمّل جامد. تخبرنا شواهد عديدة عن حقيقة محبة الأب يوحنا لخليقة الله، وعلى نحو خاصّ للطبيعة. إليكم أحد أقواله في هذا الخصوص:

"عندما يلقي الله نظرة متحنّنَة من خلال عيون الطبيعة، من خلال ضوء نهار مشرق، فإنّنا كلّنا نشعر بالسعادة".

هذه النظرة الفرحة للكون وجدت تعبيرها في حياة الأب يوحنا نفسها. كان يفضّل الصلاة في الهواء الطلق، تحت قبة السماء. لم تكنْ نظرته للكون تفارقه أثناء الليتورجيا، حيث كان يدرك أنّ الذبيحة غير الدموية إنّما تُقدَّم ليس فقط عن كل البشر بل عن الكون بأسره. لم يكنْ باستطاعته التفكير عكس ذلك، لاعتقاده الراسخ "أنَّ الله يعمل من خلال الخليقة، طالما هذه الأخيرة تأخذ وجودها منه". ويضيف هنا "أنَّ وقاحة الذين لا يؤمنون، تلك الوقاحة التي تفصل بين الله والخليقة، إنّما لا ترتكز إلى أي أساس".

-٦-

فَهِمَ الأب يوحنا أيضاً أنَّ الجمال الطبيعي، طالما أنّه يعكس الجمال الإلهي، فهو يتحلّى بمعنى سامٍ:

"عندما تُظلم نفسك من الأهواء ـ يشير الأب يوحنا ـ ألقِ نظرة إلى جمال العالم الذي خلقه الله، إلى انتصار الحياة الظافر الذي يتجلّى في كل أرجاء الخليقة".

ونفهم جيداً من الأب يوحنا أنّه ليس علينا، في الوقت الذي نعاين فيه جمال الخليقة، أن ننأسر له، لأنّه ما هو إلاّ صورة للجمال الأوّل، فهو يشير إلى الجمال الأكمل والأسمى، ولا يتعدى كونه خطوة أو درجة في السلّم الصاعدة إلى الله. يعود بنا الأب يوحنا إلى هذه النقطة:

"لا تأسر نفسك بجمال الخليقة المنظورة، فهو لن يدوم، بل اسعَ في سبيل الولوج إلى ذاك الجمال العلوي، الأبوي، الشخصي، إلى الله الذي بمقدوره أن يملأ روحك كلّياً ويتمّم كل أشواقك".

إنَّ جمال العالم المادي وخيراته لا تشكّل فقط صورة للعالم الروحي بل للعالم المستقبلي أيضاً:

"إنَّ خيرات العالم الحاضر، الوقتيّ، بتنوّعها وتعدّدها، ليست سوى صور، إشارات وضمانات لخيرات الغبطة الآتية التي لا تُحدّ ولا تحصى. عندما تُعاين جمال صبيّة أو شابّ ارفعْ ألحاظك على الفور إلى الجمال العلوي الإلهي، علّة كلّ جمال، أعني الله. أرسلْ المجد إلى ذاك الذي من الطين جَبَلَ جمالاً كهذا. ليجذبنَّكَ في الإنسان جمال صورة الله التي لا يزال بهاؤها يتجلّى حتى في حالة الإنسان الساقط. لنفتكرنَّ في الصورة أو الشكل الذي سنصير عليه في المجد السماوي، إذا ما أُعطينا مثل هذا الاستحقاق. لنفتكرَنَّ في جمال القديسين والملائكة ووالدة الله وقد تزيّنوا بالمجد الإلهي. لنتأملَنَّ بهاء وجه الله وجماله الذي لا يوصف والذي ستُعطى لنا مشاهدته ولا نحدرَنَّ ذهننا إلى التعلّق بالجمالات الأرضية المجبولة بجسد ودم".

إنَّ انحباس الانتباه في الجمالات المادية وانغلاقه عليها لَهوَ خطر، خصوصاً حينما ينتفي إدراك كونها لا تشكّل سوى نافذة تطل على ما يتجاوزها بالكلّية، سوى خطوة من سلّم صاعدة إلى ما هو أسمى منها. عندما يصير الجمال الوقتي هدفاً بحدّ ذاته فإنّه يتحوّل إلى وثن، وعوض فرح المشاهدة الطاهرة النقية يستيقظ عادةً الهوى والشهوات الأرضية فيتذلّل لها الإنسان ويخسر حرّيته.

"يا لعنف الخطيئة! إنّه لرهيب حقاً ومميت! نَزْني داخلياً لسبب وجه جميل. ألعلّ الوجه الجميل مدعاة للخطيئة؟ أَوَ ليس هو بالحري سبيلاً لتسبيح خالق الجمال الذي تتحلّى به خليقته؟".

"التصقْ، من كلّ قلبك، بالجمال والمجد والقوة الأبوية غير الفاسدة ولا تبتعدْ عنها لأجل شهوات قلبيّة أرضيّة ورديئة تلطّخ جمال نفسك المجبولة على صورة الجمال الإلهي".

-٧-

إذا كان تأمّل الجمال السماويّ يحفظ النفس من الخطيئة فإنّ الأهواء، لسبب المفاسد التي تحويها، تعمي بصيرة الإنسان الروحيّة وتسلبه إمكان معاينة نور الجمال السماوي:

"كلّما عاش الإنسان حياة روحيّة فإنّه، بالمقدار عينه، يتروْحَن ويصير معايناً لله في كل مكان. بالمقابل، كلّما عاش أرضياً ومادياً، صار دنيوياً ولا يبلغ إلى معاينة الله أو قوّته الإلهيّة في أي مكان. في كلّ مشاهداته لا يميّز سوى الجسد والمادة، أمّا الله فليس ماثلاً أمامه في أي مكان وأي وقت".

القلب الطاهر النقيّ يعاين كلّ شيء نقياً وطاهراً، وعيون النفس المستنيرة تشاهد كلّ شيء منيراً. إنّ مبدأ الحياة الروحيّة هذا لَهوَ مبدأ طبيعي بالنسبة إلى الأب يوحنا. ولكنّ القلب الطاهر والعيون المستنيرة هي، بالضبط، التي تجاهد جهاداً روحياً وتتعرض للحرب والتجربة. ولمّا لم يكن مفرّ من الأمر، فهو يستدعي لنا مثال القديسين:

"إذا كان العدوّ يحاربك بالجمال الجسدي وبشكل عام بالجمال الطبيعي، فاعرفْ أنّ الجمال الأوّل غير الفاسد والأبدي هو لدى الله وأنّ كلّ جمال إنّما ينحدر منه. والقديسون فتّشوا عن هذا الجمال الإلهي، وشغفوا به ولأجله ماتوا عن كلّ جمال أرضي، صاموا بلا انقطاع، قاسوا أهوالاً وتجارب، امتحنوا، صبروا وحفظوا نفوسهم من الانحراف إلى الخطيئة حتى لا يخسروا متعة مشاهدة الجمال الإلهي".

-٨-

أن يشاهد أحدهم العالم بعين طاهرة معناه أن يشاهده بنور الروح القدس، لا بل أن يشاهده بالروح القدس نفسه. "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (متى ٥:٨). والأب يوحنا، باستناده إلى هذه الآية الإنجيلية، يقول:

"الله هو عين فاحصة كل شيء ولكن، حيث إنّه شمس عقليّة، فهو يسود من فوق على كلّ المسكونة ويضيء كل مخلوقاته. نوره يغمر أفكارَ البشر ويملأ قلوبَهم نوراً. نفسُنا هي عين مجبولة من العين الإلهية، نور مجبول من النور الإلهي، لكنّها تلطّخت بالخطيئة بعد السقوط. انزعْ تلك البقع عن عين نفسك وستعاين ساعتها الشمس العقلية التي يفوق نورها ملايين المرات نور الشمس المادية".

عندما شاهد موثوفيلوف، تلميذ القديس سيرافيم ساروف، هذا الأخير متجلّياً ومنظر وجهه برّاقاً أكثر من الشمس، سمع من القديس نفسه هذا الشرح:

"لا تخفْ فأنت أيضاً تضيء مثلي. أنت أيضاً في ملء الروح القدس وإلاّ لما كان باستطاعتك أن تراني في هذه الحالة".

-٩-

إنَّ إشعاعات النور الإلهي تغمر الجو النفسي للأب يوحنا. هكذا تفتّقت أفكاره الدينيّة في بيئة كانت فيها النظرة المعتادة للحياة المسيحية مغايرة تماماً.

فالعالم المعاصر بات يفهم الحياة بحسب مشيئة الله كسلوك أخلاقي ليس إلاّ، ينتج عنها الالتزام الصارم بتطبيق جملة قوانين وشرائع لمختلف الحالات. ومبعث هذا الالتزام إنّما هو الخوف من العقاب الإلهي، خصوصاً من العذابات بعد الموت. فلا عجب إذاً أن يؤدّي مثل هذا الموقف إلى نقمة واعية أو غير واعية وإلى الابتعاد عن الكنيسة.

أمّا جذور هذه النظرة الحقوقيّة للحياة المسيحية فنعثر عليها في محاولة نشر منهجي للأخلاق المسيحية. لسنوات عديدة حاول مسيحيوّ الغرب أن يظهروا البشارة المسيحيّة المفرحة الخاصّة بالحياة الحقيقيّة والحريّة كنظام خُلُقيّ مسيحي،

وغالباً ما تحوّل هذا النظام إلى جملة قوانين للسلوك الحسن أو إلى شرعة خُلُقيّة ناموسيّة ومجموعة فرائض متوجّبة على المسيحي تجاه الله وتجاه الناس وتجاه نفسه. ففي الكنيسة الكاثوليكية أتى هذا الأمر نتيجةً للتأثّر بالروح الحقوقية لروما الوثنية القديمة. أمّا في الكنيسة البروتستانتية فيعود الأمر إلى التأثر بالروح الحقوقية للعهد القديم.

ونحن قد تأثّرنا بهذا المنهج الحقوقي الآتي من الغرب، ونستطيع أن نتبيّن ذلك في دروس الأخلاقيات في معاهد اللاهوت والإكليريكيات، في كتب التعليم الديني، وأخيراً في نفوس العديد من المسيحيّين الأرثوذكسيين.

لكننا نعثر على هذه الذهنية الحقوقيّة الناموسيّة بغض النظر عن الدوافع والتأثيرات التاريخية التي تعبّر، في جوهرها، عن شخصيةٍ ذات طابعٍ دينيٍ مُنتقَصٍ. لأنه كان دوماً أسهل على المرء أن يحاول تتميم جملة من القوانين والوصايا الخارجيّة عوض السعي إلى علاقة حيّة بالله والتماثل به داخلياً.

الحقوقيّة والناموسيّة تعملان بتضادّ إزاء روح المسيحيّة. ولم يكن أحد من القديسين ناموسيّاً في ذهنيته، ولا حتى أفضل المفكّرين المسيحيين. ونحن، إذ نسير خلفهم، ندرك أنَّ الإنسان المسيحي لا يبحث عن تقييد الإنسان ــ كما يعتقد للأسف كثيرون ـ بواجبات وفرائض غريبة عن طبيعته، ولا يسعى إلى إخضاعه رغماً عن إرادته إلى سلطات خارجية. باختصار، فهو لا يطمح إلى تقييد حرية الإنسان والحدّ منها.

إنَّ حياة الأب يوحنا وتعليمه يظهران لنا جلياً أنَّ حياة الإنسان المسيحي لا تتطابق مع حياة إنسان شريف يخضع فقط لقواعد السلوك الخارجيّ. حياة المسيحي، كما يعرض لها الأب يوحنا، هي حياة حرّة، حياة إلهية ـ إنسانية.

عندما نستمع إلى الأب يوحنا نتحقّق بفرح أنَّ الرب يسوع المسيح أتى إلى الأرض بشكل رئيسٍ ليهب البشر الحرية وملء الحياة. والمسيح يسوع نفسه شهد لهذه الحقيقة، وأيضاً الرسل من بعده.

الفصل الثاني عشر

في الجهاد الروحيّ

-١-

عندما يقرأ أحدهم مفكرة الأب يوحنا اليومية لأول مرة فإنّه يتنشق منها العبير العطر للحياة المسيحية. يعتمر الفرحُ والذهولُ النفسَ في لقائها القوات العلويّة العديمة الأجساد. ويتأكد القارئ، إذ تحيط به هذه الأجواء، كيف أنّ الحياة المسيحيّة ليست عبارة عن مجموعة قوانين خارجيّة، بل هي القبول الحرّ لفعل الروح القدس. هذه الانطباعات الأولى تترك في النفس شعوراً أنّه من السهل على المرء أن يصير مسيحياً. وهي تذكّر بقول السيد: "نيري هيّن وحملي خفيف" (متى ١١: ٣٠).

-٢-

إنَّ الارتياح الذي يلمسه من يقرأ كتاب "حياتي في المسيح" ليس شعوراً استثنائياً في الحياة الروحيّة. فكل اختبار ديني حيّ تقريباً يبدأ باكتشاف النور، أي بمعنى آخر يتميّز بانفتاح العيون الروحية الداخلية.

ويتبع هذا الأمر إمكانية مشاهدة أمور كثيرة أخرى من خلال هذا النور. فبعد حلاوة وعذوبة الكلمات الانجيلية تلك: "نيري هيّن وحملي خفيف" (متى ١١: ٣٠) سرعان ما نتذكّر آية أخرى: "ومن أيام المعمدان إلى الآن ملكوت السماوات يُغصب والغاصبون يختطفونه" (متى ١١: ١٢). فهل يستطيع المسيحي يا ترى، بعد كلّ ما ورد، أن ينسى الجلجلة، موت السيد على الصليب وشهادة

العديد من المسيحيين؟ ليس عبثاً على الإطلاق أنَّ الصليب صار رمز المسيحية.

فأين توجد، إذاً، الحقيقة الكامنة في هاتين العبارتين "نيري هيّن" و "حملي ثقيل"؟ نجدها في عذوبة ذلك النور الذي رأيناه في البدء، في فرح اللقاء الروحي الأوّل بالمسيح أو بأحد مرسَليه المستنيرين. نجدها أيضاً متخفّية في الضيق الحاصل في الجهاد إزاء الخطيئة. نجدها أخيراً في قيامة السيد، عربون الظفر والنصر الأخير والنهائي على الشرّ.

-٣-

الحياة المسيحيّة حرب لا منظورة، جهاد روحي. والسبب في ذلك يعود إلى أنَّ نفس الإنسان تتعرّض لتأثير قوى النور وقوى الظلام على حدّ سواء. وهناك أسباب أخرى أهمها خطيئة الجدَّيْن الأوّلَيْن وضعف الإنسان الناتج عن السقوط، وأخيراً حريّته في الاختيار بين الخير والشرّ.

إنّ إمكان الإنسان أن يختار ويرتكب الشرّ مع ما ينتج عنه من انعكاسات رهيبة كثيراً ما يولّد داخله الاضطراب والشكّ في صلاح الله ووجوده أيضاً: "لو كان الله صالحاً لكان بوسعه أن يمنع الشر. ولمّا كان يسمح به، فهو بالتالي ليس صالحاً ولا حتى كليّ القدرة. وعليه، فإنّه ليس إلهاً أو، بشكل أبسط من ذلك، هو غير موجود".

أمّا ردّ الأب يوحنا على مثل هذه الأفكار الشريرة المظلمة فقد ورد في أحد الفصول السابقة. فقد سمعناه يتحدّث عن الحرية كميزة لا تنفصل عن صورة الله في الإنسان، وعن استحالة بلوغ المرء الحريةَ من دونها، وأخيراً عن كيف أنَّ محبة الله لا حدَّ لها إلى هذه الدرجة التي فيها أسلم ابنه إلى الموت كفّارة عن الإنسان لسوء استعماله حريّته ولكل ما نتج عنه.

"يقول البعض لماذا لم يخلقنا الله على هذا النحو بحيث لا نصير نخطئ فيما بعد؟ بالضبط، فإنّه لهذا الأمر علينا أن نلمس صلاح الله. فإنّ محبته لنا قد جعلته يهبنا بلا تردد الخير الأقصى، أعني به الحرية، مع علمه بسراننا الجميل وعدم

امتناننا وشكرنا. أَوَ لَمْ يبرهن عملياً عن محبته اللامتناهية لنا حيث أنّه، بعد إساءتنا إستعمال حريتنا، أرسل ابنه الوحيد إلى العالم وأسلمه إلى الموت لأجل خلاصنا؟".

هكذا فإنّ هول الشرّ وخطر الحريّة ينكسران وينغلبان بذبيحة المحبّة الإلهيّة. والمحبة، في حال عدم وجود عوائق، تعبّر عن نفسها بنكران الذات والتضحية. أمّا حين يواجهها عداء الشر فإنّ التضحية الذاتيّة تتحوّل إلى دراما أو مأساة. في وسط العالم الخاطئ المحبة مصلوبة على الدوام.

-٤-

يميّز الأب يوحنا فعل الشرير بأنّه وراء كل حركة شريرة في النفس. ويمكن اقتفاء أثر هذا الفعل من خلال التكدّر والألم الذي يخلّفه في نفس الإنسان المسيحي. بالطبع فإنّ الذي لم يذق مرةً حلاوة الخير والصلاح وعذوبتهما لن يلاحظ هذا التكدّر، هذه الدراما الداخليّة. أمّا الأشخاص الروحيّون فإنَّ أيَّ ميل، مهما كان صغيراً، ناحية الشر يخلق عندهم حالة لا تطاق.

"عندما يوجد الشيطان في القلب، يشعر المرء بثقل غير اعتيادي يضغط عليه وبنار متأججة في صدره تُصيِّر نفسه في اضطراب وخوف. كلّ شيء يثيرها: أقلّ كلمة، أدنى تصرّف. ينقصها التمييز والحكم الصحيح والعادل. تعمى بصيرتها فترى كلّ النوايا والاستعدادات سيّئةً ومريبةً وتتحرّك فيها رغبة الأخذ بالثأر. هناك أيام كنت أشعر فيها أنّ نفسي ملقاة في عذابات الشرير".

من خلال هذا المقطع لا يغيب عنا بشكل خاص كيف أنَّ الروح الشرير يحرّف أقوال الآخرين وأفعالهم ويشكّك بالنوايا ويظن السوء. بتعبير آخر إنَّ الروح الشرير يفتري. هذا يدفعنا إلى التذكير بأنّ كلمة "شيطان" تشتق في أصلها اليوناني من كلمة "افتراء".

"عندما تشعر داخل نفسك بالحقد أو الغضب مشتعلاً تجاه أحدهم، تأكّد أنّ ذلك من فعل الشيطان. اطرده على الفور هو وكلّ أفعاله وأعماله. لا تفترض ولا تعتقد البتّة أنَّ هذا الحقد هو خاصّتك. لا تقبلْه بأية حال من الأحوال. حاولْ أن تواجه بالطريقة عينها أهواءك الأخرى. وعلينا أيضاً واجب الصلاة من كل قوانا

لأجل الآخرين الذين يرزحون تحت أهوائهم، فإنَّ الشرير يفعل من خلالهم".

من بين التعاريف المختلفة لروح الشرير، يُبرز لنا الأب يوحنا ناحية أساسيّة ألا وهي روح الانقسام. الشيطان هو روح انقسام وشرذمة، روح تفتيت لكلّ وحدة حسنة. هو مبدأ الانقسام.

"يريد الرب أن يوحّد الجميع. أمّا الشيطان فهو، على عكس ذلك تماماً، يعمل على شرذمة الجميع. يسعى إلى تفريق أعضاء العائلة الواحدة، أهالي القرية الواحدة، المقيمين في مدينة واحدة، في بلد واحد، والذين ينتمون إلى مجموعات دينية. يحارب على نحو خاص أولئك الذين يعترفون بالإيمان الأرثوذكسي ويقرّون به ويغذّي إزاء الكنيسة الاضطهادات المتنوّعة... هدفه أن يفسد حياة الإنسان، أن يبرّد علاقته بالله وبالإنسان قريبه، أن يغرّبه عن الله وعن أخيه الإنسان، أن يطفئ المحبة وأن يغيّب كل فضيلة، أن يعذّب النفس ويحملها على التمرّد على الله وعلى الكنيسة وأن يقودها، أخيراً، إلى الجحيم أسيرة مغلولة".

أمّا في شأن حقيقة الشرّ وكلّ الذين يتّشحون به ـ نعني الأبالسة ـ فيجدر بنا أن نوضّح ما يلي: الربّ يقول عن الشرير "إنّه قتّال منذ البدء... كذّاب وأبو الكذب" (يو ٨:٤٤). وعلى الرغم من قوة الشيطان فإنّ آباء الكنيسة القدّيسين يوضّحون أنَّ وجود الشيطان ليس حراً أو مستقلاً، بل هو وجود طفيليّ. الله لم يخلقْ الشرّ. الشرّ تزييف للصلاح، تشويه له ورفض. هو غريب عنّا بالكلّية وعديم القوّة والفاعليّة لمن يعيش حياة مسيحية حقيقية.

والأب يوحنا كرونشتادت، وقد حذا في حياته الروحيّة حذو الآباء القديسين، يعبّر في هذا الشأن قائلاً:

"الله هو الحياة، هو واهب كل شيء، الوجودِ والحياةِ. به كل شيء يرتبط. أما الشيطان فهو الموت، لأنّه بإرادته الخاصة ابتعد عن الحياة، عن الله. كما أنَّ الله هو مبدأ الكائنات، كذلك الشيطان هو مبدأ عدم الوجود، مبدأ الشرّ".

وفي ختام هذه الأفكار نضيف أنَّ الأب يوحنا ما كان لينسى محبة الله القصوى للبشر، مدركاً جيّداً قساوة الشرّ وخطره، وهو يرى في سماح الله بالشرّ

أمراً يدخل في عناية الله، على حسب ما يوضّح في المقطع التالي:

"إذا لم تُجرَّب بتأثيرات الروح الشرير وحيله وإيثاراته، فإنَّك لن تستطيع أن تدرك الإحسانات التي يهبك إيّاها الروح المعزّي ولن تُقدّرها حقّ قدرها. إذا كنت لا تعرف الروح الذي يقتل، لن تعرف الروح الذي يُحيي. لن تعرف في الحقيقة المسيح معطي الحياة".

-٥-

إنَّ النفس لا تتقبّل فقط إيحاءات الله وقواه الإلهيّة، ولكن أيضاً تأثيرات الأرواح الشيطانيّة. هكذا تتجلّى فيها حلبة الصراع بين الخير والشرّ:

"حياتنا على الأرض حرب، حرب لا تتوقف والأعداء يحاربوننا، دونما انقطاع، بأهواء مختلفة... تقريباً كل فكر لي صالح، كل شعور لي حسن. عليّ أن أجهد في الدفاع عنه بجدّ ودون كلل... فإنّ جماعة اللصوص الأشرار يفعلون في صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، وأيضاً في الأحلام المختلفة! تصير نفسي مغارة لصوص! كم هي مشوّهة صورة الله في داخلي! ما هذه العواصف التي تُثيرها أهوائي؟! يا رب، "أنت فاحص القلوب والكُلى"، ساعدني في جهادي يا ربَّ القوات، أعطِ جنودَك قوّة وشجاعة. فبدونك لا نستطيع أن نُبلي حسناً في أي شيء".

-٦-

خطر قبول الشرّ يدعى تجربة. والتجربة مهما كانت كبيرة ليست لها قوّة في حدّ ذاتها، بل تحظى عليها عندما يتولّد في الإنسان ميل نحو الشرّ. الإنسان المسيحي في سرّ المعمودية يحصل على مقدرة تمكّنه من الغلبة على هذا الميل الرديء أو على إرث خطيئة الأجداد. وعلى هذا النحو فإنّ جهادنا يصير "هيّناً". ولكن حتى يتمكّن المرء من الصمود إزاء تجربة الخطيئة فهو يحتاج، بعدَ المعمودية، إلى المعونة الإلهيّة. وهذه المعونة يهبها الله بأشكال وطرق متنوّعة، بشكل خاص بالكتاب المقدس وسرّي التوبة والمناولة المقدسة. أمّا الإقلاع النهائي عن الخطيئة فهو جهاد الإنسان المسيحي مدى عمره. فالإنسان، إلى أن يبلغ حتفه، معرّض، ليس فقط

لخطر التجارب الخارجية، بل أيضاً لتلك التجارب الناشئة من ضعف طبيعته. فالخطيئة، على حسب وصف الأب يوحنا، لا تنفكّ تُثير الإنسان، تضغط عليه، تُثير فيه الإحباط، وتحاول أن تهدمه دون كلل.

ولكن ما هي الخطيئة؟ الخطيئة ليست روح الشر وليست حتّى التجربة. إنّها الشرّ عندما يتحقق وينجز. الأب يوحنا يصف الوجوه المختلفة للخطيئة:

"الخطيئة تجاوز للشريعة، هي تعدٍّ للناموس الإلهي وقبل كل شيء تعدٍّ لوصية محبة الله والقريب. هي انتفاضة على الله وانتفاضة الإنسان على ذاته. وهي تؤدّي إلى تشويه أيقونة الله فينا، وفقدانا طهارة النفس. هي ظلام الموت وظلاله، هي العدم الخُلُقيّ، هي مرض قوى الإنسان الروحية والجسدية، وخسارة للملجأ الروحي الذي هو الله. الخطيئة اعتلال النفس التي، إذا لم تَسعَ للشفاء بالتوبة، تسير إلى موتها ليس فقط في الوقت الحاضر بل وأيضاً في الحياة الأبدية".

-٧-

بعد ما أوردناه سابقاً، نضيف أفكاراً أُخرى للأب يوحنا توضّح لنا خصائص الخطيئة:

"الخطيئة هي البليّة الرهيبة الوحيدة. كلّ البلايا الأخرى إمّا تساهم في التطهّر من الخطيئة، وإمّا تأتي عقاباً لها، وإمّا تدفعنا للابتعاد عنها وتجنّبها. غاية حياتنا هي الوحدة مع الله. لكنّ الخطيئة تفصلنا عنه هنا على الأرض وهناك في الأبدية ـ أي في هذا الدهر وفي الدهر الآتي. الخاطئ الذي لا يخضع للنواميس الإلهية، لنواميس المحبة والسلام، هو وحش أو مسخ، وفي هذا انحراف عن الخليقة الإلهيّة. ليس له مكان في العالم لذلك كل شيء عنده مأساة. الله، ضميره، الخليقة كلّها تحكم عليه وتضطهده. الخطايا والأهواء تقضي على صحّتَي النفس والجسد... الغلبة على الأهواء تمنح النفسَ هدوءَها والجسدَ صحته... ما هذا السمّ الزعاف، أعني الخطيئة، بالنسبة للنفس الخالدة؟! كيف تسري في الجسم هذه القوة الفتاكة؟!... فماذا تظنّون يا إخوة؟ أنستطيع أن نلعب بالنار؟ أتعتقدون أنّه ممكنٌ التلهّي بسمّ مميت؟"

والنتيجة تحصيل حاصل: الخطيئة لسعة الموت. إنّها الموت نفسه.

"كم من الأهواء تعيش في قلوبنا! أتعجّب، يقول الأب يوحنا، كم تكثر ينابيع الموت! كل هوى منبع للموت!".

الخطيئة كاختلال لناموس الحياة، لناموس المحبة، هي في الوقت عينه بشاعة وتشويه. "كل خطيئة تشوّه النفس وتجرحها". فهو إذ كان يدنو بعينَيْه الروحيتَيْن من الجمال الإلهيّ ويعاينه بهما في كل شيء ويعرف كيف يطبع ذلك الجمالُ روحياً نفسَ الإنسان البار، كان يعتريه الهول لبشاعة الخطيئة وقباحتها:

"كم إنّ الغضب والغيظ الشديد هما مخالفان للطبيعة وغير متلائمين معها. ألقوا نظرة على وجه الإنسان الوديع. كم هو جميل حقاً!... والآن ألقوا نظرة على وجه الإنسان الغاضب. كم هو مضطرب، مشوّه ومظلم!".

-٨-

قد وصف لنا آباء الكنيسة القديسون لنا الخطايا وصنّفوها وأظهروا لنا النواميس المختلفة التي تكشف عن ارتباط الخطايا بعضها ببعض. والأب يوحنا يسجّل بعض ملاحظاته الشخصية حول هذا الموضوع. ونحن نورد له نموذجين في ما يلي:

"البخل يطرد المحبة ويغذّي الميل نحو الحقد تجاه من يأخذ منا مالاً أو أغراضاً... من خلال الجسد، ومن خلال أمور غير روحيّة بشكل عام، يغذّي الشيطان فينا النزوات ويحرّكها ويترك وراءه بصماته السلبيّة".

ويذكرنا أيضاً بكون الإنسان على صورة الله وبأنّه لذلك كائن بسيط. فهو عندما يخطئ يغرق بكلّيته في الخطيئة:

"إنَّ النفس تتمتع بوجود بسيط. لذلك ليس باستطاعتها أن تحب الله وأن تحب في الوقت نفسه المال أو المأكل أو المشرب... كيف يستطيع الروح القدس أن يفعل في نفس دائمة الانهماك بالاهتمامات المادية والتسليات؟".

وعليه، فإنّ كل سقطة هي سقوط كلّي يستتبع نتائج مروّعة. من بين هذه النتائج تفكّك العالم الداخلي وتمزّقه. فتظهر في النفس حروب ويصل المرء إلى حالة

إحساس بالواقع المأساوي الذي نعيشه في أيامنا هذه. أحد الكتّاب الفرنسيّين المعاصرين يصوّر مضمون العالم الداخلي للإنسان المعاصر "كحرب أهلية متحركة".

وأيضاً، بعد الاعتراف، لا يستطيع الإنسان المسيحي أن يستعيد على الفور تجانسه الطبيعي وهدوءه الداخلي.

"إنه لجدير بالتعجّب، يلاحظ الأب يوحنا، كيف أنّ الإنسان نفسه، الذي يعبّر عن تقواه أمام الخالق، والذي يشاهد الخليقة في أبهى وأروع شكل لها، هذا الإنسان يصير قادراً أيضاً على أدنى وأقذر الأحاسيس والمشاعر والأفكار العدوانية. كيف يستطيع أن يتصوّر أسوأ المواقف ويجري وراء الشهوات الحيوانيّة ويوسّخ حلّة نفسه! ما هذا التناقض؟! كم هو عظيم الجهاد الروحي الذي يحتاجه المرء! لا نستطيع أن نبقى دون حراك، لأن الخطيئة سوف تهزمنا وسوف تُخضعنا وتجعلنا أسرى العار والعذاب إلى الأبد".

-٩-

والأب يوحنا، بالتوافق الكلّي مع تعليم الكنيسة منذ بدايتها، يعتبر أكبر خطيئةٍ خطيئةَ التكبر، حبّ الذات، أي بمعنى آخر تحوّل اهتمام الإنسان من الله إلى نفسه هو.

"في اللحظة التي عصى فيها الإنسان الوصية الإلهيّة، يكتب الأب يوحنا، سقط من محبة الله وتحوّلت محبته إلى محبة للذات وللأمور المادية. لم يترك لله مكاناً في قلبه، وهو الذي علينا بالأحرى أن نحبّه بكل قوانا ووجودنا".

النفس تشبه وعاءً فارغاً ينبغي ملؤه بالمحبة الإلهية. ولكنّها قادرة على أن تُعجَب بنفسها وتحبّ ذاتها. هذا يعني في النهاية كيف يمكنها أن تحبّ نفسها، أي أن تحبّ الفراغ الذي فيها وأن تنغلق على نفسها. بوشكين يعبّر عن حالة الإنسان هذه بطريقة ساخرة إذ يقول:

"ذاك الإنسان فارغ بالحقيقة، ذاك الذي امتلأ من نفسه عينها".

يشبه العُجْب بالنفس إنساناً محبوساً داخل غرفة تغطّيها المرايا. الأنانية تُغرّب الإنسان عن نبع الحياة والمحبة، وتقوده إلى وحدة داخلية رهيبة وفراغ هائل.

"قلب الإنسان، كما يلاحظ الأب يوحنا، يخشى الفراغ والعدم. من المستحيل أن يبقى القلب غير ذي محتوى. فعندما نطرد الروح الصالح منه، في الحال يحتل مكانه الروح الشرير".

"وهكذا بدل السّجود للإله الحيّ، يبدأ الإنسان بالسجود للأوثان المختلفة ويمتلئ قلبه بالأهواء وبكل ما تحمله من موت، إذ لا شيء يستطيع أن يأخذ مكانة الله ويعوّض محبته الصادقة، الكاملة والحقيقية".

"الله وحده يستطيع أن يُطفئ ظمأ النفس... الغبطة تأتي من الله وحده وهي لا توجد سوى بالقرب منه. أما في البعد عنه، فإننا لن نلقى سوى تسلّط الأهواء... أصل كل الشرور حب الذات، حب جنوني يغلق على النفس... الإنسان المستعبد لشهواته وأهوائه هو وثني كما وصفه القديس أندراوس الكريتي".

-١٠-

ويحدّد الأب يوحنا فكرة أساسية حول نشوء الأهواء فيرى أنها تأتي من الفراغ الذي ينشأ في الإنسان بغياب الله عن قلبه:

"ما هو سبب العطش إلى الخمور؟ سببه غياب العطش إلى النعمة الإلهيّة. فإنّ العطش إلى الخلاص يطرد العطش إلى الخمور وشهوة أية لذة عالمية".

في كتاباته مقاطع كثيرة تدور حول الإحباط وعدم الرضى الذي يتولّد من الأهواء، وذلك لأنها غير قادرة بالحقيقة على أن تطفئ الظمأ الذي تشعره النفس نحو الله.

"ما يميّز الخطيئة هو هذا العطش المأساوي إليها والبحث عن كل المناسبات لإروائها. هكذا محبّ اللذات مستعدّ للقيام بأي عمل منحطّ، أكان بالنظر أم باللمس، أو بالقول، أو بالفكر، أو بالخيال، أو بالذاكرة... والخبيث مستعدّ للتشاجر مع أهل بيته، مع رفاقه، مع خدّامه... محبّ القنية لا يرى سوى المال وهو مستعدّ لأن يبيع أياً

كان وأيّ غرض كان في هذا السبيل... وماذا نقول في شأن السكر؟ السكران مستعد ليخسر كل شيء في سبيل خدمة رضاه الذاتي. وهنا ينكشف غياب المحبة الحقيقية من جهة، والمأساة التي يحملها هذا الغياب من جهة أخرى".

"عندما يشعر الإنسان بمحبة جسدية تجاه شخص آخر، عندئذ تغيب المحبة الحقيقية ويتحوّل الآخر من شخص إلى غرض شهواني".

إنَّ تحويل كل ما يحيط بنا إلى وسائل ترضية لأهوائنا يفرغ الحياة من معناها، وعندها لا تعدو كونها لعبة خطرة. ويقول الأب يوحنا:

"حياتنا تشبه لعبة طفل لكنها ليست لعبة بريئة، بل لعبة رديئة، إذ، مع أنّنا نتمتع بالمنطق وندرك غاية الحياة، إلاّ أنّنا لا نبدي أي اهتمام. بل، على عكس ذلك، ننشغل بأمور غير هادفة، نتسلّى بالمأكل ونتنعّم بالشرب، ونكرر هذه الحلقة مراراً، دون أن تكون الغاية من ذلك سدّ حاجة الجسد فقط. نتلاعب بمواهبنا الفكرية والروحية، بالعقل، بالخيال، بالكلمة، ونستغلّها في سبيل الخطيئة وخدمة كل ما هو باطل في هذا العالم الحاضر. نمرح بالوجوه الجميلة وبالجنس اللطيف. نضيّع الوقت على غير هدى بدل أن نستغله بحكمة لأجل اقتناء الحياة الأبدية. نتسلّى أخيراً بذواتنا جاعلين من أنفسنا أوثاناً نعبد من خلالها ذواتنا".

-١١-

المحبة الحقيقية لا ترى في الآخرين وسائل لخدمة الغايات الخاصّة، بل ترى كل واحد كائناً فريداً ذا وجود حيّ شخصي لا يستعاض عنه.

"أحِبَّ كل إنسان ـ يشير علينا الأب يوحنا ـ كما تحبّ نفسك أنت، لأن ذاك الآخر هو بالحقيقة أنت نفسك... افتكرْ في أنّ الرب هو في كل إنسان. عندما يقترب إليك أخوك فلا تُخالجنّك سوى مشاعر الاحترام، لأنّ الرب موجود فيه وهو الذي من خلال أخيك يعبّر مرّات كثيرة عن إرادته هو ناحيتك".

المحبةُ الحقيقيةُ ترى، ليس فقط في القريب بل في الخليقة كلّها، انعكاسَ الصلاحِ الإلهي وهي تخشى الإساءة إليها لذلك نرى عند قدّيسين كثيرين تصرفات

ذات رهافة خاصة تجاه المخلوقات غير العقلية. وليس عجباً أنّ هذه المخلوقات كانت تخضع لهم عند سماعها أوامرهم كما كان الأمر عينه يحصل مع المسيح.

وعلى الضوء العذب للمحبة الحقة التي ذكرنا، تظهر جلياً أمام عيوننا قساوة الخطيئة وعذابها. إنّ الإنسان الخاطئ رغبةً منه في وضع كلّ شيء وكلّ شخص في خدمة رضاه الذاتيّ، ينتهي إلى جعل نفسه لعبةَ أهوائه الشخصية ويثير سخرية الشياطين التي تختبئ وراء هذه الأهواء.

"الخطيئة تأسر الإنسان بواسطة الكذب والغش والغضب. تضطرّه أن يصير عبداً لها. إنّه لعذاب قاسٍ وقتل نفسي وجسدي... أيها الإنسان، يا من تُدعى مسيحياً، قُلْ لي ماذا تريد أن تكون، أأسيراً أم حراً؟ هناك حرية مزيّفة، معيبة، فاسدة وهادمة... كنْ حراً بالحقيقة ولكن ليس في سبيل إرضاء لذّات جسدك وشهواته".

-١٢-

الخطيئة رهيبة لأنّها معدية وقابلة للتوارث كما يقول الأب يوحنا:

"الأهواء معدية... على أزواج المستقبل أن يحترسوا من ذلك بشكل خاص لأن الأهواء يتوارثها الأولاد أيضاً".

الخطيئة فعلٌ ضدّ الكنيسة، ضدّ وحدتها، ضدّ المحبة الإلهية التي تجمع بين أعضائها: "الخطيئة اشتراك في صلب المسيح. إنّها صلب جديد له. كل هوى يعمل إزاء الإنسان قريبنا بهدف الإساءة إليه والتشهير به هو صلب آخر لابن الله. الشر الذي يلحق بالقريب إنما يصيب المسيح نفسه الذي القريب أحد أعضاء جسده".

العالم بأسره يصير مظلماً ومرّاً بخضوع الجميع للخطيئة، والأب يوحنا، إذ يرى امتداد الخطيئة والأذى والجراحات التي يسببها الخطأة بعضُهم تجاه بعض وجميعُهم تجاه سيدهم، يصرخ متوجعاً:

" يُنتَظر من الكرمة التي غرسها السيد أن تحمل عناقيد عنب حلو المذاق ولكنها تحوّلت إلى زعرورة ـ أي شجرة شائكة ـ منها صنع إكليل شوك المصلوب. الزعرورة رمز لشجرة الخطيئة التي امتلأت منها البشرية قاطبة".

الفصل الثالث عشر

في المسير نحو النور

-١-

سبق لنا التعرّض للجهاد الروحي وللأعداء الذين يواجهوننا. أمّا الآن فسنتحدث عن الأسلحة الضرورية لهذا الجهاد.

من المفيد في هذا المجال أن نتذكر أنَّ الوحدة مع الله ليست هي نصيب القديسين فقط بل هي تعبّر عن جوهر حياة كل مسيحي حقيقي. والحياة الإلهية ـ الإنسانية لكل مؤمن تشكّل ساحة المعركة حيث الله يرشد النفس في اتصال معه غير منقطع. والصوت الإلهي يكون أكثر وضوحاً تبعاً لدرجة التقدم الروحي. وكلما جاهد الإنسان أكثر إزاء الشرّ، كلما صار تمييز الصوت الإلهي أكثر وضوحاً، هذا الصوت الذي يُعلّم، على سبيل المثال، كيف وفي أي مجال يستطيع المرء أن يساعد الإخوة، كيف يُمجَّد الله...

-٢-

أوّل أسلحة جهادنا الروحي هو الانتباه إلى عالمنا الداخلي، نقصد بذلك إمكان أن نفصل في داخلنا الخير عن الشر ومحاولتنا الإنعتاق من هذا الأخير. ويصف آباء الكنيسة هذا العمل بأنّه "علم العلوم وفن الفنون". يدعونه أيضاً "يقظة" أو "العمل الداخلي". وقد شاعت أقوالهم الجديرة بالذكر حول أهميّة هذا العمل.

فالذائع الصيت والمجاهد العظيم البارّ إسحق السرياني كتب: "إنَّ من نال استحقاق أن يعرف ذاته لَهُوَ أفضل من ذاك الذي استحق أن يرى ملائكة... ومن أدرك خطاياه لَهوَ أعظم من الذي يقيم موتى..."

والأب يوحنا انشغل كثيراً بهذه الناحية:

"إنّ الأشخاص الذين يحاولون أن يعيشوا حياة أرقى يجاهدون على مستوى حياة روحية دقيقة وصعبة. عليك في كل دقيقة أن تكون مستنير البصيرة لتدرك أفكار الشرير التي تزرع داخلك وتدفعها عنك... أن تلاحق قلبك طيلة عمرك وأن تحاول تمييز ما الذي يعيقه عن الاتحاد بالله الكلي الصلاح. هذا هو علم العلوم. حافظْ على قلبك واطردْ منه كل شهوة أرضية لأنّ ومضة رغبة شهوانية واحدة تكفي لتوقع بنا ولتبعدنا عن الله".

وليعطينا الأب يوحنا الجرأة يعرض لنا مثال القديسين:

"عَمِلَ القديسون دوماً على تنقية قلوبهم. بجهادهم تَنقّوا من كل رجاسة وصاروا هياكل للروح القدس".

-٣-

حتى نعرف ذاتنا العميقة ليس من الضروري أن ننقطع نهائياً عن العالم، إلاّ أنَّ لحظات الوحدة والهدوء هي حاجة مطلقة لكل واحد. في الهدوء نستطيع أن نفحص ذواتنا أمام الله، دون عوائق. وليس نادراً أن يساعدنا، في معرفة ذاتنا، الاحتكاك بالآخرين والالتقاء بهم.

"أتريد أن تعرف ذاتك؟ يسأل الأب يوحنا. لاحظْ نفسك بأي روح تواجه العاملين معك، رؤساءك، أو الذين يمدّون أيديهم إليك طالبين رحمة أو مساعدة".

وقد شكّل هذا معياراً ثميناً للكمال الرهباني، ليس فقط في وجهه النسكي، بل أيضاً ضمن جماعات الشركات الرهبانية.

ورغم المراقبة الذاتية الروحية، فإنّه من الممكن للإنسان أن يتناسى نفسه ويخطىء. هكذا يظهر لنا أنَّ النجاح في اليقظة والتوبة غير ممكن من دون معونة العليّ.

"ماذا كنّا فعلنا لو لم تعضدنا منذ البدء نعمة الله؟ إلى أيّة حال كنّا وصلنا لو لم تحتضنّا فجأة، دون أن نتوقعها، بعد الخطيئة وتهيّئنا للتوبة والدموع؟... نادراً، نادراً جداً لكان بوسع أحدهم أن ينجو من نير الخطيئة".

-٤-

وحسب ما يُعلّم آباؤنا القدّيسون فإنّ الخطيئة تتقدم تدريجياً. في البدء تظهر إيحاءات غير طوعية من قوى مجرّبة، من أشخاص، من حوادث أو أمور أخرى.

يدعو آباء الكنيسة هذه الإيحاءات بهاجس الخطيئة. ومهما كانت هذه الهواجس رهيبة، فلا يمكننا التحدث عن خطيئة في هذه المرحلة. هذه تظهر رغماً عن إرادة الإنسان تثيرها أسباب خارجية وداخلية مختلفة، مثل الذاكرة، صحة الجسد، البيئة، الأشخاص أو الأرواح الشريرة.

يتبع ظهورَ هاجس الخطيئة ميلُ الانتباه ناحيته. إذا كان هذا الميل من أجل معرفة نوع الهاجس فليس هو خطيئة، بل هو أمر ممدوح. في هذه الحالة الانتباه هو يقظة تدعو إليها الكنيسة. ولكن إذا استرسل الانتباه في محاورة الفكر، فكر سبق تمييزه أنّه شرير، وذلك من أجل الاستمتاع بصحبته، ساعتها تكون بداية الخطيئة. معلمّو الكنيسة يدعون هذه الحالة قبولاً للأفكار.

في درجة لاحقة، يمكن أن يتبعها لذة أكثر سوءاً من الأفكار السيئة، حيث تشارك أحاسيس إنسانية مختلفة، وهي حالة الأسر، فيظهر الحسد، اللذّة، الخبث واالشهوة... وأخيراً تشارك الإرادة في القوة الخاطئة وهكذا تكتمل الخطيئة في قلب الإنسان، وهذه هي حالة الهوى.

عندما تحصل الخطيئة للمرة الأولى فإنّه من السهل أن تتكرر، والتكرار يخلق العادة. ساعتها نتحدث عن نفس مريضة، في حالة معيبة أو أهوائية.

خبرة آباء الكنيسة على مر العصور تُعلّم كيف يجب علينا أن نحارب الخطيئة حالما تظهر. علينا في الحال أن نرفض هواجس الخطيئة، وهو أمر سهل في البداية. ولكن عندما يتمادى الشر وتتورّط الأحاسيس والإرادة، فإنّ الجهاد يصير صعباً. ساعتها النصر إزاء هوى ما أو حالة معيبة يحتاج وقتاً ومساعيَ مضنكة.

والأب يوحنا، الذي تشرّب كتابات الآباء القديسين والذي منذ صباه عرف عملياً الجهاد إزاء الأفكار، يُصرّ بشكل متواصل على وجوب قطع دابر الأفكار منذ اللحظة الأولى لإيحاءاتها:

"كل حركة قلبية، ولو لبرهة، نحو الخطيئة هي خطيئة يجب سحقها منذ البرهة الأولى. عندما يمتد الحريق فمن الصعب إنقاذ البيت. نستطيع ذلك بسهولة عند ظهور الشعلة الأولى للهيب. والأمر مماثل في حياتنا الروحية. النفس هي البيت والأهواء هي اللهيب".

قطع دابر الأفكار معناه ابعاد الانتباه عنها وتحويله إلى ما هو أسمى. ولكن هذه المحاولة لا تنجح دوماً لأنّ انشداد الانتباه إلى الفكر ومحاورته، وإن كان لأجل طرده، يمكنه أن يزيد الرغبة السيئة تجاهه. الحرب صعبة؛ "فن الفنون". الطريقة الفضلى للجهاد هي الاستدعاء الفوري للمعونة الإلهية، أي الصلاة.

"نحن بحاجة، في كل لحظة، لمعين قوي. بشكل محدد، نحتاج المسيح المخلّص الذي لأجل ذلك أتى وتجسّد لكي يخلصنا، ليساعدنا، ليدفع عنا أعداءنا ويمحو خطايانا... ظهور الخطيئة ممكن، لكنّ السيد أقوى. الخطيئة تغوينا وتأسرنا بسرعة، لكن السيّد هو أسرع في خلاصنا".

-٥-

الصلاة هي أساس كل محاولة ليس فقط في جهادنا إزاء الشر، بل على امتداد حياتنا المسيحية. في البداية نصلّي لأننا نحتاج المعونة الإلهية. وهي، في الحالات الأسمى للحياة الروحية، تتولد من الرغبة في تمجيد لله غير منقطع. نقاوة العيون الروحية تؤهّل المجاهد أن يرى في كل مكان ظفر المجد الإلهي وتدعوه إلى تهليل لا يتوقف.

تقريباً نصف كتابات الأب يوحنا يحوي شهادات عن صلواته التي تُرفع لمجد الله. ولن يتعجب أحد لهذا الأمر عندما يأخذ بعين الاعتبار أنَّ الأب يوحنا تمجّد لأجل روعة صلواته. أفكاره حول الصلاة هي على مستوى كبير من الوحي. لذلك يصعب الانتقاء من بينها. هي تكشف لنا طرق تربيتها وفي الوقت نفسه تبرز لنا مدى صلتها بنظرته الشاملة إلى الكون.

-٦-

انطلاقاً من الأقنوم الثاني للثالوث القدوس، الله الكلمة، يفرد الأب يوحنا معنى خاصاً لكلمة الإنسان ولا سيّما لكلمة الصلاة. بما أنَّ الإنسان مجبول على صورة الله، فهو أيقونة الكلمة الخالقة السامية. وعليه، فإنَّ كلمة الإنسان أيضاً يمكن أن تكون بل يجب أن تكون ذات قوة خالقة.

"في السيد، القول والفعل لا ينفصلان. وكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة لنا، بما أننا أيقونة الكلمة، والكلمة الذي اتّحد بنا يؤلّهنا ويجعلنا "شركاء الطبيعة الإلهية". ماذا يمكن أن يكون أكثر ثباتاً وقوّة من الكلمة: "بكلمة صنعت السماوات..."(مز ٣٢(٣٣):٦).

"ونحن الخطأة نستعمل كلمتنا باستهتار وسطحية. لا يتبادر إلى ذهننا أنه بوسعنا أن نصنع عجائب بواسطتها، على سبيل المثال، في الصلاة والعظات وإتمام الأسرار. أيّها المسيحي، تذكر أنَّ الكلمة هي مبدأ الحياة".

من السهل إدراك كيف أنَّ الإنسان بمقدار ألفته مع الله، تستمد كلمته قوة أكبر: "الذي يحاول أن يحفظ كلمة المسيح هو من يحقق أعمالاً عظيمة ومذهلة".

-٧-

كلمات الصلاة لا تستمد قوّتها فقط من كونها على صورة الكلمة الكلي القدرة بل وأيضاً من كونها موحاة من الروح القدس:

"الصلاة، يكتب الأب يوحنا، نَفَسُ النَفْس. والنَفْس تستقي الوحي من الروح القدس. حتى ولا كلمة قلبية صلاتية نستطيع أن نتفوّه بها من دون فعل الروح القدس".

وينكشف هذا الفعل بشكل خاص في الصلوات الكنسية، ولا يبقى للمؤمن سوى أن يغرف منها قوّة.

إذا كان الله نفسه يضع على شفتي الإنسان كلمات التضرع، فهو يهبه أيضاً تحقيقها إذْ، بالنسبة لله، القول والفعل واحد. والشك في فاعلية الصلاة هو أمر لا طائل له:

"عندما تصلّي، تصوّر أنَّ الكلمات التي تُعبّر عن طلبك قد تحققت، كأنّها صارت فعلاً. فقد وعدنا السيد أن طلباتنا ستتمّم".

-٨-

الأب يوحنا، كما ذكرنا سابقاً، لا يتحدث بشكل نظري عن الصلاة، بل يقترح طرائقَ عمليّة لتأدية صلاة صادقة. مما سبقت كتابته حتى الآن، ليس صعباً علينا أن ندرك أنَّ الشرط الأول لصلاة مقبولة هو الإيمان العميق. وقد ركّز الأب يوحنا مراراً كثيرة على أهميّته:

"الإيمان صلاح فائق للحياة الأرضية. هو يوحّد الإنسان مع الله ويقوّيه. يجعله غير مقهور في جهاده الروحي..."

"عندما تتقدّم من الله بطلبك، تذكّر أنّه ينتظر منك جواباً إيجابياً فورياً عن السؤال الداخلي الذي طرحه عليك بنفسه: أتؤمن أنّي أستطيع أن أحقّق هذا الطلب؟. عليك ساعتها أن تجيب إيجابياً من أعماق قلبك، وعندها سيتمّ الأمر على حسب إيمانك".

الإيمان الضروري لأجل الصلاة ليس فقط اعتقاداً عقلانياً، هو إيمان قلبي يواكبه شعور دقيق وحارّ.

"عندما تصلّي، يوضح الأب يوحنا، حاولْ أن تجعل صلاتك تعبر داخل قلبك. ليشعرْ قلبك ويرغبْ ما أنت تصلي من أجله... تابعْ عن قرب إذا كان قلبك موافقاً ما يتفوّه به اللسان".

"الذي يصلّي بعجلة من دون مشاركة قلبية، وينغلب لكسل الجسد وميله للراحة والنوم، هو يُرضي الجسد ولا الله... ولا حتى كلمة واحدة تذهب سُدىً في الصلاة عندما ترفعها من كل قلبك... يحدث أحياناً أنَّ جزءاً صغيراً فقط من صلاة طويلة يكون مرضيًّا لله ومقبولاً لديه. لذا هذا الجزء فقط هو الذي يُعدّ صلاة إلى الله وعبادة له حقيقيَّتين. العنصر الأساسي في الصلاة هو اقتراب القلب من الله، وهذا يتجلّى في حلاوة الحضور الإلهي في النفس. كم هو سهلٌ وسريعٌ أن

ينقذنا الله!... كثيراً ما كنت خاطئاً كبيراً طيلة اليوم، وفي المساء كنت أنتهي من صلاة التوبة مبرَّراً، أبيض كالثلج بنعمة الروح القدس، وقد حاز قلبي السلام والسرور".

-٩-

إذا كان الإيمان ضرورياً للصلاة، فإنَّ الصلاة أيضاً ضرورية للإيمان. هذا يذكرنا بأقوال مَنْ ابنُه كان به روح أخرس: "أؤمن يا سيد، فأعِنْ عدم إيماني" (مر ٩:٢٤).

ويلاحظ الأب يوحنا في هذا الخصوص: "الله يعرف كل طلباتنا قبل أن نطلبها. لكننا ننسى قوله: "اطلبوا تعطوا" (متى ٧:٧). الصلاة ضرورية بالضبط لأجل تقوية إيماننا الذي سيخلّصنا. لذلك اضطرّ السيد المرأة الكنعانية أن تطلب بإصرار".

حتى تكون الصلاة قلبية، يجب، قبل ذلك، أن تُؤدّى بوعي وانتباه. يجب على المصلّي، بدءاً، أن ينتبه إلى كلمات صلاته. هكذا يقول كل المعلّمين المستقيمي الرأي.

"الشرير، كما يقول الأب يوحنا، يحاول أن يبعثر الصلاة كما تُذرّي الريحُ الرملَ. كلمات الصلاة التي تقال دون انتباه تشبه الرمل الجافّ، حبات منفصلة بعضها عن بعض، لا تجمعها الرطوبة، بمعنى آخر كلمات من دون حرارة قلبيّة. الصلاة تُبنى أحياناً على الرمل وأحياناً على الصخر. يبني على الرمل كل الذين يصلّون من دون إيمان، بتشتت وفتور. صلاتهم تضيع بسهولة ولا تعود عليهم بأية فائدة".

كثيراً ما يدعو الأب يوحنا الصلاة الحارة الواعية صلاة حقيقية بالتضاد مع الصلاة الآلية والمزيّفة التي تقال كفرض واجب:

"يجدر بنا أن نستخدم كل وسيلة حتى ننزع من قلبنا كلّ زيف وننمّي الحقيقة. لأجل ذلك علينا أن نبدأ من الصلاة. باعتيادنا على الصلاة الحقيقية لن

نَدَعَ مجالاً للمزيَّف في حياتنا. ولكن كيف لـي أن أصلّي بصـدق؟ بهـذه الطريقـة: لنُدخِلْ كل كلمة من كلمات الصـلاة إلى قلبنـا. ولنقفـل عليهـا هنـاك في الداخـل. ولنشعرْ بها ولنتحسّسْ بالحقيقة حاجة ما نحـن نطلبـه إلى اللـه. أو أيضـاً فلنشعـرْ بحاجتنا إلى الامتنان العميق لله لإحساناته غير المتناهية وحاجتنا إلى أن نمجّـد كيانيـاً عظمة أعمال الخليقة وإبداعها".

-١٠-

الصلاة الواعية والحقيقية تتم ليس فقط بشيء من العنوة والعادة، بـل وأيضـاً بحرارة طوعية نحو السيد لأجل أن يدعمها ويثبّتها.

"عندما تتيقن أنَّ قلبـك فـاتر وغـير مبـال للصـلاة، توقـفْ وألهـبْهُ بصـورة واقعية، على سبيل المثال تذكّر شقاوتك، عطشكَ الروحي، إحسـانات اللـه لأجـل الجنس البشري قاطبة. وابدأْ بعدها صلاتك بغيرة ودون استعجال".

نلفـت النظـر، في هـذا المجـال، إلى أنَّ الكنيسـة الأرثوذكسـية لا تشـجّع لعبـة الخيال في الحياة الروحية وبشكل خاص وقت الصـلاة. وهـي تـتّخذ موقفـاً متحفّظـاً إزاء تخييل أشكال مادية للمسيح، لوالدة الإله والقديسين. ولكن هذا الموقـف لا يمـسّ استعمال الأيقونات الشريفة. التصوير الأرثوذكسـي للأيقونات لا يشير النظـر أو أيّـة حاسة أخرى. فهي تجمع الحواس وتشدّ الانتباه ممّا هـو خـارجي إلى مـا هـو داخلي. تحاول بواسطة لغة الألوان والخطوط أن تنقل إلينا عالماً ذا قيم روحية صافية.

دعوة الأب يوحنا إلى تنشيط القلب بصورة واقعية حيّـة لا تتعـارض مـع مـا سبق ذكره، لأنّ هذه تحمل معنى روحياً وليست ذات بعد حسيّ.

-١١-

تحتاج الصلاة إلى بذل جهد وأحياناً كثـيرة إلى نضـال حقيقـي. وهـذا يـبرز بشكل خاص عندما تتكرر الصلوات ذاتهـا. يشـبهها الأب يوحنـا بـالمطر أو الثلـج الذي يجعل الأرض خصبةً:

"رذاذ المطر أو كتل الثلج تهطل دون توقف. تسقي الأرض وتُنمّي الزرع فيأتي بثمر. كلمات الصلاة التي يُنطق بها دون انقطاع تسقي النفس. وبفعل الروح القدس تساعدها على الإثمار فضائلَ. والإثمار يأتي غنياً إذا ما رافقه رذاذ الدموع أيضاً".

وبالطريقة عينها نفهم المقطع التالي:

"عملنا الكهنوتي، الليتورجي، يضطرّنا إلى تكرار الصلوات عينها، كما أنَّ واجب كل مسيحي يحمله على إتمام متواصل للوصايا ذاتها. لا تتقوَّى النفس بتنوّع الصلوات أكثر منها بتكرارها والثبات فيها".

نعتقد هنا أنّه من الضروري أن نقول إنّنا في كتاب الأب يوحنا نفسه نلاحظ تكرار المواضيع نفسها واستعادتها، بشكل خاص ما يتعلق بالخطيئة والفضائل. في كتابه إذن، ينعكس النَفَس الليتورجي الكنسي. ومن خلال هذه الاستعادة يبدو الأب يوحنا، في كل مرة يتحدث فيها عن الأهواء كأنّه يدحرها، وفي كل مرة يتحدث فيها عن الفضائل كأنّه يستعيدها إلى حياة، إلى قيامة.

-١٢-

الصلوات المنتظمة تحتاج بعض الجهد. ولكن الحاجة إلى الصلاة الصباحية والصلاة المسائية هي متجذّرة في نفس كل مسيحي أرثوذكسي.

الساعات الأربع والعشرون للدورة اليومية لها مدلول خاص عند الإنسان الروحي، إذ هي مدلول حيّ لحياة الإنسان الأرضية منذ الولادة حتى الموت. إنّ المرء، باستيقاظه في الصباح، يولد بشكل من الأشكال، وبذهابه إلى النوم في المساء يموت بشكل من الأشكال. هذه المقاربة نقع عليها في كتابات الأب يوحنا وفي بعض الصلوات أيضاً. ويستخدم صورة الليل والنوم ليتحدّث عن مصير الإنسان بعد الموت فيقول:

"الخطيئة شر رهيب يقتل النفس الآن وفي الدهر الآتي. إذا رقد أحدهم رقاد النوم من دون أن يصلّي ويتوب عن خطيئة اقترفها خلال اليوم، فإنّ نفسه ستتعذب

طيلة الليل. وإذا حدث أن توفّي أثناء الليل، هكذا بدون توبة، أليس من الجليّ أنّه سيتعذب أبدياً، إذ لا إمكان للتوبة بعد الموت؟".

وأما بالنسبة للصلاة الصباحية والصلاة المسائية:

"لا تصلِّ بعجلة وبلا مبالاة. ينصف ساعة صلاة في المساء ستربحُ ثلاث ساعات من النوم المريح. أمستعجل أن تذهب في الصباح إلى عملك؟ استيقظْ في وقت أبكر، صلِّ بحرارة فتحصل على الصفاء والحيوية والتقدم في أعمالك أثناء يومك كله".

وكتب، بشكل خاص، بشأن الصلاة الصباحية:

"حتى تمضي يومك "كاملاً مقدساً سلاميّاً وبلا خطيئة" توجد أمامك وسيلة واحدة: الصلاة الصادقة والحارّة في الصباح، حالما تستيقظ. هذه تُدخل إلى قلبك المسيح مع الآب السماوي والروح القدس. هذه تمنحنا القوة لنجاهد إزاء التجارب".

وأخيراً ينصح في شأن الصلاة المسائية:

"لا تنسَ في المساء، أثناء صلاتك للروح القدس، أن تكشف له خطاياك لهذا اليوم. اعترف بها كلّها بصدق مطلق وتوجّع قلبي. ليتَ عيوننا تذرف دموع توبة حارّة، فتغتسل بها نفوسنا".

-١٣-

كما ذكرنا سابقاً، جهد الصلاة يمكن أن يؤدّي إلى نسك حقيقي. نكتفي بالذكر أنَّ القديس سيرافيم ساروف بقي على صخرة يصلّي طيلة ألف ليلة. مثل هذا العمل لا ينجزه سوى عدد من الناس قليلٍ جدّاً، ولكن كل واحد يستطيع أن يبذل جهداً ما في الصلاة:

"لا تشفق على نفسك حتى ولو قضيت النهار كلّه في أتعاب مضنية. لا تهملْ في صلاتك ؛ توجّه كل قلبك نحو الله. وضعتَ يدك على المحراث، فلا ترجعْ إلى الوراء. إذا منحت نفسك وقتاً لتصلّي من كل قلبك فإنّك لن ترقد قبل

أن تكون قد بكيت خطاياك. لا تَقُمْ من أجل الربّ بعمل منقسم بحيث يكون جزء منه متجّهاً نحو السيد والجزء الآخر نحو الجسد. آمنْ بكلمتي: إذا صلّيت بعجلة لأجل راحتك الجسدية، فإنّك ستفقد راحتك الجسدية وهدوءك الروحي. آه! كم من الجهد والعرق والدموع ضروريٌّ لاقتراب القلب من الله!".

-١٤-

إنّ الصلاة التي هدفها محاربة الأهواء وتجديد الإنسان خُلُقيًّاً تحتاج إلى بعض الشروط المسبقة. باستثناء ما سبق التعرض له ــ الإيمان، الصبر، والثبات ــ يشدّد الأب يوحنا كثيراً على التواضع:

"التواضع ضروري في الصلاة. تَشبَّه بالطفل الرضيع. صِرْ واحداً مع كلمات صلاتك. تقبّل كلمات الصلاة كهبة عظيمة من الله. إذا كان العدو، أثناء صلاتك أو في أوقات أخرى، يملأ نفسك بأفكار دنسة فلا تيأسْ، لكن قلْ في داخلك بثبات: حتى أتنقّى من كل هذه الأفكار وكل ما يشبهها، أتى السيد إلى الأرض. بشكل عام، لا تفقدْ شجاعتك أمام أيّة خطيئة، بل ترجَّ مساعدة الله ورحمته فهو كلّي القدرة".

الصلاة ليست أن يتحدّث المرء مع ذاته أو يُناجيها. هي حوار. الله في أمانته لكلمته يستجيب لصلاة الإنسان (متى ٧:٧). وليس على من تقبّل المعونة الإلهية أن تخور قواه ويضعف إذ ليس هناك من حدود للطريق الصاعدة نحو الله. فحسب آباء الكنيسة، أيّ توقّف في طريق التقدم الروحي هو عودة إلى الوراء.

-١٥-

ما من شيء يجب أن يدفعنا إلى الصلاة سوى محبتنا لله. المحبة حرة دوماً. وفي ما يلي مقطع يتحدث عن حرية التوبة وحرية الصلاة:

"هناك حاجة لأن تكون التوبة صادقة وحرّة كلّياً. يجب ألاّ يضغطنا وقت أو عادة أو شخص أو أب روحي... وبالتالي يجب أن تكون صلاة التوبة والتضرع لأجل غفران الخطايا صادقة وحرّة كلّياً. التمجيد يشترط انذهالاً، إندهاشاً أمام

أعمال حكمة الله اللامتناهية وصلاحه وقدرته الكلية. وعلى هذين الانذهال والاندهاش أن يتمّا بصدق وحرية كلّية. ولكن، للأسف، كثيراً ما لا يبدو الإنسان، وقت الصلاة، ابناً للحرية بل يكون عبداً للحاجة والواجب. أتساءل: هل يصلّي كثيرون بقلبٍ حرٍّ وإيمان حيّ ومحبة؟".

-١٦-

الصلاة، إذ تجمع بين السعي والحرية، تخلق حسّ قياس الصلاة. وهذه هبة من الله:

"في المرض، يقول الأب يوحنا، لا يستطيع الإنسان أن يلتهب إيماناً بالله ومحبةً له لأن الأحزان والأمراض تضعف القلب. بينما الإيمان والمحبة يحتاجان قلباً قوياً وهادئاً. لذلك يجب علينا ألاّ نيأس حينما لا نستطيع، أثناء مرضنا أو التجربة التي نحن فيها، أن نؤمن بالله على النحو الذي نشتهيه، أو حتى أن نحبّه ونصلّي إليه بلا انقطاع على حسب ما هو مكتوب".

كاتب سيرة الأب يوحنا الأب المتوحّد مخائيل حفظ لنا هذه الأقوال:

"البعض يعتقد أنَّ قراءة الصلوات اليومية الواجبة هي قمة النجاح وتعبير عن الدقة في العبادة الإلهية، مهملاً ضرورة تهيئة القلب والطهارة الداخلية. كثيرون، على سبيل المثال، يتلون قانون المطالبسي الإلهي برضى ذاتي ولا مبالاة، في حين يجب تحويل الانتباه خاصة ناحية الإصلاح الداخلي واستعداد النفس لتقبّل الأسرار الطاهرة... إنّه لَمن المفيد في بعض الأحيان أن نقول في الصلاة كلمات تَخُصُّنا يلهبها إيمان حارٌّ ومحبة للسيّد. عسانا لا نتحدث مع الله بكلمات غريبة، لأننا أحياناً نألفها كما العادة وتبردُ نفوسنا، حينئذ يكون مقبولاً لدى الله هذيذنا الخاص النابع من قلب طافح بالمحبة والإيمان والعرفان بالجميل".

الفصل الرابع عشر

في الصلاة

-١-

صلاة القلب "تجعل الجسد هادئاً وخفيفاً. النفس تصير مستضيئة ويغمرها السرور لأنّها مع الله وتتلقى منه نعمته. ولكن عندما نتوقف عن الصلاة، تبدأ التجارب. يا لساعة الصلاة المباركة!".

من خلال هذه السطور ومن خلال غيرها أيضاً نتبيّن كيف أنَّ الأب يوحنا كان يُولي حلاوة الصلاة أهميّةً ويرى فيها علامة القرب من الله. إلاّ أنّه لم يكن يعتبرها هدف الصلاة ولا حتى عنصراً ضرورياً لها.

آباء الكنيسة يُعلّموننا أنَّ حلاوة الصلاة لا تخضع لسلطتنا. هي هبة إلهية. ليس علينا، ساعة الصلاة، أن نبتغي الحلاوة، بل أن ندفع جانباً كل ما من شأنه أن يعيق وحدتنا مع الله. التحرر من التخيلات الشريرة والدنسة والأحاسيس المشابهة ليس إنجازاً صغيراً. مارس المسيحيون منذ زمن طويل، في محاولتهم اقتناء الصلاة النقية، ما نعرفه بصلاة يسوع: "أيّها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ". ويمكن استعمال صيغة مختصرة: "يا يسوع المسيح، ارحمني"، وأخرى أشد اختصاراً: "يا رب ارحم".

-٢-

الممارسة الصبورة والمنتظمة والصحيحة لصلاة يسوع تحرّر الإنسان من أهوائه، ليس هذا فقط، لكنها تهبه أيضاً حالة مختلفة بالكلّية، حالة مباركة حيث

الصلاة تصعد تلقائياً من القلب. الصلاة القلبيّة غير المنقطعة تحمّل الشخصية الإنسانية بالكلّية. عندها يمتلئ القلب بمحبة غير محدودة لله والبشر وللخليقة قاطبة. يشعر الإنسان بالدفء والعذوبة ويميّز في داخله أقل انعطاف ناحية الشر ويوقفه في الحال. في مراحل متقدمة من الحياة الروحية، حركة الأفكار الباطلة وغير الإرادية تصير شبه منعدمة. الإنسان الذي يعيش هذه الحالة يصير بكلّيته في المسيح والمسيح فيه. نستطيع القول أنَّ مثل هذا الإنسان قد اقتنى الروح القدس. صار هيكلاً للروح الكلّي قدسه!

بالتأكيد ليس من السهل أن يصل الإنسان إلى مثل هذه الحالة. لكن صلاة يسوع هي إحدى أبلغ الوسائل في طريقنا هذا. والكتابات النسكية التي تناولت هذه الصلاة لا تعدّ ولا تحصى.

من بين الإرشادات المختلفة المتعلقة بصلاة يسوع، نشير إلى أهمّها حيث لا يجدر بنا أن نبتغي حالات ذهنية غير طبيعية، أو أن نشعر أننا بهذه الطريقة نقوم بعمل ما مميّز لا يقوم به سوى المختارين والنخبة. على عكس ذلك، تحتاج صلاة يسوع إلى تواضع أقصى، إلى صحو وسير تدريجي نحو الكمال.

من المفضّل أن يبدأ المرء سعيه نحو هذه الصلاة وقد وضع جانباً كل الأفكار الشريرة. فحالما تخطر لنا أفكار أو تخيلات باطلة، فلنقلْ عقلياً في الحال ومن كل أعماقنا: "أيّها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ". هكذا يعلّمنا الكثيرون من الآباء ذوي الخبرة في كنيستنا الأرثوذكسية.

-٣-

ما من ريب في أنّ الأب يوحنا قد استخدم صلاة يسوع على نحو مستمر حتى دُعي "بالعامل بصلاة يسوع".

"حتى نصبر أمام هجمات الروح الشريرة، يلاحظ الأب يوحنا، علينا حفظ صلاة يسوع غير منقطعة في قلبنا. هكذا إزاء العدو غير المنظور الله غير المنظور، وإزاء القويِّ الكلّيُّ القدرةِ".

ويكتب في مكان آخر:

"بالتوبة واستدعاء اسم يسوع المسيح نخلص، نتطهّر، نستنير، نتقدّس، نتعزّى ويحلّ فينا السلام. في هذا الاسم العجيب والمخلّص نجد راحتنا الكبرى".

ونضيف هنا شهادة الأب جورج شافلسكي:

"كان الأب يوحنا رجل الصلاة. هكذا عرفته ولأجل ذلك كانت روسيّا كلها تكرّمه. نستطيع القول أنّه كان يصلّي بغير انقطاع. لاحظنا أنّه، أثناء الأحاديث على الطاولة ساعة تناول وجبة الطعام، كان نظره يتحوّل فجأة إلى نظر إنسان متأمل... كان يتوقف عن الاستماع إلى الآخرين لأنّه كان يستغرق في الصلاة".

الأب يوحنا يتحدث عن هذه الأمور انطلاقاً من ممارسته وخبرته الذاتية، وهذا صحيح أيضاً في ما يتعلق بصلاة يسوع.

-٤-

مهما بلغ شأن الصلاة الفردية، فإنّ الصلاة الجماعية تبقى لها ـ في نظر معلّمي الكنيسة ـ شأن أرفع. فهم يعتبرون الصلاة الفردية تهيئة للصلاة الكنسيّة الجماعية. وهكذا كانت في نظر الأب يوحنا:

"الصلاة الفردية هي المدخل إلى الصلاة الجماعية والتهيئة لها. لذلك كل من لم يَعتَدْ أن يصلّي بحرارة في البيت، هذا الإنسان قلّما يُفلح أن يصلّي بورع وتقوى في الكنيسة، والخبرة تشهد بذلك. كل واحد يستطيع أن يتأكد من ذلك بنفسه..."

"في العبادة الجماعية على نحو خاص، ندرك كيف يخدم الإنسانُ اللهَ. الله يهب نِعَمَهُ: التقديس، الخلاص، الطهارة، السلام، التعزية، الاستنارة، المحبة، خبز الحياة، الروح القدس. الإنسان يمجّد الله ويشكره، يتطلّع إليه كعلّة وجوده، يسعى جاهداً لإتمام الوصايا الإلهية، يبتعد عن الخطيئة، يبتغي الحقيقة الأبدية، يتطهر بالتوبة المستمرة، يتناول الأسرار الطاهرة بورع ويعيش بالقداسة وخوف الله".

وعن قوّة الصلاة الجماعية يسطّر قائلاً:

"السيّد يؤكد أنّه "حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فأنا أكون بينهم" (متى ١٨: ٢٠). احترمْ بالأكثر صلاة مسيحيَّيْن اثنين أو ثلاثة مسيحيين مجتمعين معاً، لأنّ السيد، كما وعد، موجود بينهم. واحترمْ أكثر بكثير صلاة حشد كبير من البشر. فإنّ صلاة كثيرين مثمرة على نحو فائق، اللّهم إذا كانوا مجتمعين بروح واحد وقلب واحد".

ويتأتّى سمو الصلاة الجماعية أيضاً من كونها، في أغلب الأوقات، صلاة لأجل الآخرين، أو بالأحرى لأجل الكل. هي دوماً صوت محبتنا للّه وللبشر. بالتأكيد علينا أن نفهم أن الصلاة الفردية لا يجب أن تنحدّ بشخصنا فقط:

"في صلاتك تضرّع وابتهل، ليس لأجل ذاتك فقط بل لأجل كل المؤمنين، لأجل جسد الكنيسة كله. لا تفصل نفسك عن بقية جماعة المؤمنين. لتكن دائماً معهم في وحدة روحية، عضواً في جسد الكنيسة. ساعتها يملأك الآب السماوي بالسلام والسرور... الصلاة لأجل الآخرين تحمل النفع للمصلّي نفسه. تنقّي قلبه، تقوّي إيمانه ورجاءه. تؤجّج المحبة للّه وللقريب".

"صلّ لأجل أن تُغفرَ خطايا الآخرين كما تصلّي أنت ذاتك لأجل غفران خطاياك. صلّ لأجل خلاص الآخرين كما تصلّي لأجل خلاصك. سيهبك السيد ساعتها مواهب روحية بغنى، موهبة الروح القدس الذي يريح النفس التي تهتم بخلاص الآخرين".

هذه الأفكار عن الصلاة الجماعية تدفعنا إلى الحديث عن الكنيسة ـ البناء، حيث تتمّ هذه الصلوات:

"يا لهذا البيت المقدس، حيث يشعر المرء بالراحة والشكر عندما يصلّي! هل من مكان آخر يمكن أن تكون الصلاة فيه أكثر حرارة، أمام عرش الله وتحت نظره؟ بالحقيقة، هناك تتحرك النفس بشكل عميق، والدموع كالمياه تجري على الوجه... الكنيسة هي مدرسة الإيمان والعبادة، وقد أسّسها الله. إنّها كنز السماء على الأرض. في هذا البيت المقدس نحن أنفسنا نصير هياكل للروح القدس بالصلوات،

بالأسرار المقدسة وكلمة الله".

وأخيراً نعرض مشاعر الأب يوحنا، كما عبّر هو عنها، حول بعض أنماط الصلاة في الكنيسة:

"لتكنْ محبّاً للمخلّص ولوالدة الإله كابن حقيقي، كابنة حقيقية. لتكن أيضاً محباً للقديسين بصلوات حارّة من خلال الخدم الليتورجية وصلوات المديح. في وقت قصير ستشعر، لوحدك داخل قلبك، بالمحبة الإلهيّة. ولكن لا تفقدْ شجاعتك ورجاءك إذا ما كان قلبك بارداً لسبب ما يوقعنا به العدو غير المنظور".

-٥-

بإجماع شهادات الآباء، فإنّ صلوات الشكر تسمو على صلوات التضرع. الصلاة الشكرية فيها تجرّد كلّي عن الذات. الإنسان لا يعيش أمراً خاصاً به، بل على العكس يعطي شيئاً من نفسه. المحبّة، أكثر من أي شيء آخر، يعبّر عنها من خلال الهدايا والتقدمات والتضحيات. الإنسان الروحيّ يجد مشتهاه الوحيد في هذه المحبّة. السيد نفسه قال: "مغبوط العطاء أفضل من الأخذ" (أع ٢٠:٣٥).

لم يترك الأب يوحنا كرونشتادت أقوالاً كثيرة حول صلاة الشكر. لكنّه ترك لنا كلمات شكرية كثيرة. مدوّناته في هذا المجال تؤلف بالفعل كتاب صلاة، فهي ملأى بالشكر للّه والتسبيح له لأجل الحياة، لأجل الخليقة، لأجل تجسّد كلمة الله، لأجل الذبيحة الخلاصية، لأجل موهبة الروح الكلي قدسه، لأجل الكنيسة، لأجل العناية الإلهيّة. يشكر الله بشكل خاص لأجل القداس الإلهي الذي هو قمة الشكر:

"أشكر الله لأجل خلاصي وشفائي من الجراحات النفسية الرهيبة التي حصلت نتيجة الخطيئة. بمساعدة الله المباشرة والكلية القدرة، تلاشت جراحات القلب وتلاشى الحزن والأسى والضيق، سقط الثقل الجاثم على صدري فصرتُ في سلام. كم هي عجيبة أعمالك يا رب!"

في الكلمات التالية يرفع الأب يوحنا الشكر ليس لأجل خلاصه من الشرير، بل لأجل الهبة الروحية العظمى، هبة المحبة:

"أيّها الرب يسوع المسيح، ابن الله، أشكرك من أعماق قلبي لأنّك استمعت إلى صلاتي لأجل أن أحبّ الأخوة وأزدري المجد العالمي. قد وهبتني المحبة المقدسة، السلامية والعذبة. فَلْتَتْم فيَّ بشفاعات والدة الإله الكلية القداسة. اجعلني ابناً لك، ابناً مطيعاً وطوع بنانك". (٢٦ يوليو ١٨٦٤، الساعة الحادية عشر ليلاً).

سنتعرض، في مكان آخر من هذا الكتاب، لصلواته الشكرية لأجل حوادث شفاء عجائبية. وهنا نقفل حديثنا حول هذا الموضوع بهذا المقطع للأب يوحنا حيث يبدي شكره لله لأجل الصلاح الذي في القداس الإلهي والأسرار الطاهرة:

"يا رب! أعترف أمامك بكيف أنّي أجد الحياة والصحة والقوة ليس حينما أكون في الحقول والغابات، بل داخل بيتك المقدس وأخدم أسرارك المحيية!

يا للغبطة العظمى للأسرار المقدسة!
يا للمحبة التي لا يعبّر عنها للأسرار المقدسة!
يا للحياة الحقّة للأسرار المقدسة!
يا للخلاص الدائم والمؤهّل للأسرار المقدسة!
يا لعربون النعيم للأسرار المقدسة!"

-٦-

في أسمى مراحل الصلاة الليتورجيّة، تتلاحم التوبة والطلبات والشكر مع التمجيد والتسبيح. الأب يوحنا كان مرسلاً من الله ليجدّد الإحساس بالقوة الخلاصية التي للقداس الإلهي.

وهو، حين يعرض لها في أحاديثه، ينظر لها على أنّها العجيبة الكبرى، عجيبة المحبة الإلهيّة:

" القداس الإلهي هو خدمة سماوية على الأرض. هو العجيبة الكبرى لمحبة الله، خدمة الخلاص الأبدي للجنس البشري، ظفر رحمة الله إزاء الخطيئة

والشيطان. والله نفسه، أثناءها، يقترب ويوجد في تماس حميم مع الإنسان واتّصال به. لا يوجد ما هو أكثر قداسة أو رفعة أو عظمة أو ظفراً أو مَنْحاً للحياة من القداس الإلهي. إنه إحتفال الظفر، عيد النصر. هو صلاة كلية القدرة لأجل خلاص العالم أجمع وأيضاً لأجل كل عضو من أعضاء الكنيسة بشكل خاص. إنّه تتويج الحمل، عرس ابن الملك مع النفس ـ العروس...".

ماذا عسانا أن نقول عن مقدار الاستعداد والطهارة والعذرية الذي يجب أن تتحلّى به النفس المقدمة على المشاركة في القداس الإلهي، وذلك حتى لا نجد أنفسنا في عداد أولئك الذين دخلوا الخدر وليس عليهم لباس العرس، بل ارتدوا سربال الأهواء النتنة! ويل لهؤلاء! سيُطردون عنوة من ردهة العرس، مغلولين وسيُطرحون في الظلمة الخارجية".

وكتب في مكان آخر:

"ما هما العذوبة وهذا السلام الذي يحل فجأة في النفس المضطربة وفي الجسد على أثر تناول الأسرار الطاهرة؟! تدفق الأفكار الخاطئة وحركة الأهواء يتوقّفان تلقائياً... جسد السيّد الطاهر ودمه الكريم يشكّلان ينبوع غنى المصالحة، مصالحة الله مع الإنسان. إنها طريق التطهير، طريق التقديس، طريق التجديد، طريق التأله".

"ماذا كان حَدَث يا رب لو أن نور ألوهتك الفائق الضياء أشعّ من أسرارك الطاهرة وهي موضوعة على المائدة المقدسة أو حين ينقلها الكاهن على صدره لمناولة المرضى؟ بالتأكيد لوقع الجميع على الأرض، بما أن الملائكة أنفسهم، لِهَول مجدك الذي لا يدنى منه، يحجبون وجوههم. أما نحن، فكم من اللامبالاة نظهر مراراً كثيرة حيال الأسرار الطاهرة، وكم هو مقدار قلة وعينا أثناء خدمتنا الذبيحة المقدسة!".

الفصل الخامس عشر

في التوبة والصوم والصبر

-١-

الصوم، الصلاة، المناولة المقدسة وقراءة الكلمة الإلهية ليست الأسلحة الوحيدة في محاربة الشرير أو الوسائل الوحيدة لاقتناء مواهب الروح القدس، بل تضاف إليها التوبة أيضاً.

التوبة ترتبط إرتباطاً وثيقاً باليقظة ـ وعي للخطيئة وابتعاد عنها ـ وبالصلاة أيضاً. التوبة حزن لخطيئة ارتكبناها، توجّع لحالتنا الساقطة ورغبة في الخلاص والشفاء. الخاطىء الذي يتوب يريد الابتعاد عن الخطيئة ونتائجها، ولا سيما أسوأ أوجهها أي تكرارها وتزايدها، ويسعى إلى ذلك بشتّى الوسائل.

ـ نتوب جوهرياً أمام السيد فقط وعلى ضوء حقيقته الإلهية. التحليل الذاتي، وحتى لو رافقه تحليل نفسي دقيق، هو غير ذي جدوى إن لم يرافقه تقويم حقيقي لكل ما يستعلن في النفس. ما هي القيمة الحقيقية للتشخيص عندما تغيب معرفة ما هي الصحة وما هي الحقيقة، عندما تكون الحقيقة الموضوعية نفسها تحت مجهر الشك؟ المسيحي الذي يتوب يضع نصب عينيه الروحيتين الحقيقة الحية المتجسدة، المسيح الذي مرمره بخطاياه. أمام وجهه يدين نفسه ويحكم عليها .

"أن أتوب، يشرح الأب يوحنا، معناه أني أشعر في نفسي بالكذب، باقترافي الخطايا. معناه أن أعي إهانتي لله المحسن إليّ وخالقي. معناه أن أرغب من كل كياني في غفران الخطايا وإصلاح السيرة.... التوبة رفض للخطيئة، حرب إزاء الشر الذي يعادي الله ويعادينا... كما أنّ الخطيئة هي موت النفس كذلك التوبة هي قيامتها".

التوبة الحقيقية لا تعني فقط عدم تكرار ما جرى الاعتراف به بل سلوك طريق الفضيلة بثبات. ويطلب منا الأب يوحنا أن نتوب فوراً بعد ارتكابنا أية خطيئة :

"عندما يلتهب قلبك بالأهواء ويتفوّه لسانك بكلمات عدم الرضى والعداء، أُجْثُ على ركبتيك وأعترف بخطيئتك أمام الروح القدس".

"ما هي خطاياك بالمقارنة مع رحمة الله غير المتناهية ؟ الله يغفر لك حين تتوب بصدق... إعترفتُ للرب بخطاياي وهي لم تعد موجودة. تُبْتُ بقلبٍ منسحق فتلاشَتْ. كما أتَتْ كذلك ذهبَتْ. هي حلم، حلم. عبث هي، جنون، وإذ وعيتُها كذلك، قررتُ أن أكون صالحاً والله طهّرني بالاعتراف والمناولة المقدسة".

الدموع هي علامة التوبة الحقيقية، وهي كالمطر تنقي النفس:

"بالدموع نتنقى من أدران الخطيئة. إن اقتنى أحدكم موهبة الدموع، فهو يعرف بالخبرة الغبطة التي يشعر بها من يبكي على خطاياه وخطايا الآخرين. وكمكافأة يحصل على التعزية الإلهيّة".

ويتبع هنا أحد أقواله المشجعة على التوبة بعد كل زلة:

"بعد الزّلة، تعطى للإنسان نعمة أكبر. ما أعجب طرق صلاحك يارب! كم هي مغايرة لطرق الشيطان الحقود".

-٢-

التوبة تحقق ملءَها في سر الاعتراف:

"كلما تأخرت في الاعتراف كلما ساءت حالتُك وزاد انغماسُك في الخطيئة وصار تحررك منها أصعب...حقاً كم تشعر نفسنا بالسكينة والهدوء بعد اعتراف حقيقي".

"في اعترافك لا تُخْفِ شيئاً على الإطلاق. إكشف كل أفعالك المشينة أمام أبيك الروحي، مهما كانت مخجلة ومؤلمة. وإلاّ فإن جراحاتِك تبقى مفتوحة دون علاج، ومع مرور الوقت تدمّر صحتك الروحية. الكاهن هو الطبيب الروحي. إكشف له جراحاتِك دون وجل. هو أبوك الروحي ويحبك أكثر من ذويك، من أبيك وأمك، لأن محبة المسيح هي فوق كل محبة جسدية أو طبيعية. هو سيؤدي حساباً عنكَ أمام الله... صلِّ حتى تنكشف خطاياكَ أمام ناظرَيك. لأنه، بينما نحن أكبر الخطأة، نجدنا لا ندرك ذلك".

لم يصف لنا الأب يوحنا كيفية الاعتراف فقط بل وصف أيضاً كم كان شاقّاً بالحقيقة إتمام هذه المهمة:

"يا ربي، كم هو صعب الاعتراف الصحيح! كم من الإستعداد يحتاج! كم يجب أن يصلّي المرء لأجل إتمام هذه الخدمة كما ينبغي! كم هو عظيم جهل الأبناء الروحيين! كم هو كبيرٌ صليب الكاهن حين يعي مقدار جهل المؤمنين وخطاياهم وفتورهم، وأيضاً حين يعي زلاته هو، بالإضافة إلى ضعفاته وفتور غيرته وهمته في سبيل مجد الله وخلاص البشر وخلاصه هو".

-٣-

يشكل الصوم، منذ عصور طويلة، في المسيحية وفي ديانات مختلفة، وسيلة للسيادة على الذات ولإخضاع الجسد للروح وتوجيهه في سبيل خدمة أهداف أسمى. الصوم في معناه الواسع هو امتناع عن كل الشهوات وخاصة عن الميول والعادات الرديئة. أما في معناه الضيق فهو تقنين للطعام والشراب. والأب يوحنا تَبِع بإخلاص ما رتّبَته الكنيسة لجهة الأصوام المختلفة، إلا أنه كان أكثر تساهلاً مع الآخرين. مهما يكن من أمر، فهو لم يتوقف عن الإصرار لجهة ممارسة الصوم وضرورته، وبشكل عام لجهة الانضباط في تلبية حاجاتنا الطبيعية.

"لأي سبب ينتفخ قلبنا؟ لماذا نحن جسديون ولسنا روحيين؟ ألسْنا كذلك لأننا نميل أكثر إلى طلب الأكل والشرب وخيرات مادية أخرى؟ فكيف نستطيع أن نقول بعد ذلك أن الصوم ليس ضرورياً؟.... كل من يهمل الصوم يحرم نفسه

والآخرين من سلاح الحرب إزاء الجسد الذي يعجُّ بالخطايا.... وتبعاً لدرجة تخلينا عن اشتهاء الأكل والشرب والثياب والمال وتلبية الحاجات الجسدية، يزيد فينا لهيب المحبة الإلهيّة، والتواضع والوداعة والطهارة والرحمة والصبر ومسامحة إخوتنا في زلاتهم وضعفاتهم..."

"كثرة النوح مقياس لتوبة نفسنا إلى الله... شقيٌّ كل من يحب الراحة بإفراط. يصبح سريع العطب ولن يعتاد الصبر الذي هو ضروري، لأنّ الإنسان المسيحي يعيش بضيق في هذا العالم حيث الطريق ضيق والصليب كبير يحتاج إلى صبر وشدة احتمال... شقيٌّ كل من يحب زينة الجسد أو يحب الوجاهة والأمجاد والألقاب، فهو يتصرف كوثني... شقيٌّ كل من يحب العجلة، فهو سيلقى في حياته الكثير من الصعوبات وضغوطات داخلية".

يحرص الأب يوحنا كرونشتادت، في أمانته لأقوال السيد ولتعاليم الكنيسة، على التنبيه إلى خطر تحول الصوم إلى رياء:

"كثيرون من المسيحيين يتصورون أكل اللحم خطيئة أثناء الصوم الكبير حتى لسبب مَرَضيّ، لكنهم هم أنفسهم، دون أن يردعهم ضميرهم، لا يكفون عن إدانة الآخرين والحكم عليهم. يا لهذا الرياء! يا لغياب الفهم لروح المسيح!".

وكثيراً ما أشار، في مواعظه خصوصاً، إلى شريحةٍ واسعةٍ من الشعب الروسي اعتادت على الإنفلات وتركِ العنان لسائر الرغبات حالما ينتهي الصوم الكبير:

"يُوَدَّعُ عيد الفصح الكثير الضياء بأعمال وأفعال مظلمة: الإنفلات، السكر، الأحاديث البذيئة وكل نوع من أنواع الخطايا. يظن المرء ساعتها أن الصوم كان مجرد وسيلة في سبيل عودة أكثر زخماً وقوةً إلى إشباع اللذات الجسدية. للأسف! ويل لنا! فإنّ أصحاب المعتقدات الأخرى يندهشون لتصرفاتنا يوم الفصح ويقولون: أهكذا هم المسيحيون؟ أهكذا هم الأرثوذكسيون؟".

-٤-

إلى جانب الإنضباط الطوعي نشير إلى إمكان أن يتحمّل المسيحيّ المصائب والآلام التي تأتي بشكل غير طوعي، ونقصد بذلك الصبر. المسيحي الذي يصبر على الشدائد والضيقات ليس عليه أن يشكّك في صلاح الله وحكمته. بل على العكس عليه أن يميّز وراء كل شيء إرادة الله وأن يستخدم التجربة لأجل كل أمر موافق له وللآخرين.

هذا يشكل إحدى المعضلات الكبرى بالنسبة للإنسان. اليونانيون القدماء حاولوا معالجة الأمر في التراجيديا مثل الملك أوديب. ومنذ ذلك الحين، قَبِلَ الإنسان أنه ليس مجرد لعبة في يد القدر. أما في العهد القديم فإننا مع أيوب الصديق نواجه موضوع المآسي والضيقات على نحو يفوق العاديّ والمألوف. وفي العهد الجديد كشف لنا السيّد في صلبه وقيامته أنّ قبول الآلام طوعياً لَهوَ أرفع وأبلغ تعبير عن المحبة، وهو الطريق المضمون نحو التطهر والظفر النهائي. الآلام، عند المسيحيين، كثيراً ما تكون سبباً لإظهار روح بطولية شجاعة. هذه الروح، بشكلها الأسمى، أي الشهادة، هي طريق الاتّحاد بالمسيح والانصلاب معه والظفر بإكليل القيامة معه ومشاركته النصر النهائيّ على الشرّ.

الشهيد المسيحي ليس بطلاً يظهر قوة الجسد والروح، هو شاهد لحقيقةِ المسيح وقوّته.

حديثنا هذا عن الضيقات و الآلام لا يعني على الإطلاق أن على المسيحي أن يبحث عنها بكل الوسائل أو يعتبرها فضيلة من الفضائل. ونخطأ أكثر بكثير حينما نكفّ عن تقدير كل ما من شأنه أن يعود علينا بالفرح والنجاح، طالما أنّهما لا يعيقان وصولنا إلى غاية الأماني ألا وهي الاتحاد بالله.

-٥-

كثيراً ما تكون الضيقات والآلام مبعثاً لنا على الإستيقاظ من نوم الخطيئة، وأن نسعى في سبيل التوبة وأن نعمل لأجل تغيير حقيقي في حياتنا.

"كيف يمكننا أن نتأفّف، يتساءل الأب يوحنا، مما يمكن أن يحمل لنا المنفعة للروح، حتى ولو كان الأمر غير مشتهى بالكلية عند الإنسان الجسداني؟ الأمراض، الحرائق، الهجمات، الحرب، الجوع... كل هذه هي بركات للنفس التي تعرف أن تصبر عليها... الأمراض في يد العناية الإلهية هي أدوية مُرَّة تداوي بها الأهواء والعادات السيئة والضعفات... يصعب علينا بالحقيقة أن نؤمن كيف أنّ الله يشاء الأمراض، في حين أن قلبنا، يعرف بالخبرة والإيمان ويدرك أن الله هو سعادتنا وغبطتنا. ليكن كلّ منا كإبراهيم يُقدّم إسحق خاصته ذبيحةً لله، مظهراً لله إيمانه به وطاعته له، فيصير مستحقاً للمواهب الإلهية التي يمنحها الله أحبّاءه".

-٦-

تؤمن الكنيسة الأرثوذكسية أنّ الأفعال والأشياء، وليس فقط الكلمات، يمكن أن تحمل قوةً إلهيّة. أساس هذا الإيمان هو تجسد الله وأيضاً كون الإنسان جسداً وروحاً. فالكنيسة تؤمن أن الخلاص ليس فقط للنفس، بل للإنسان بكلّيته، للجسد والروح. ليس هذا كل شيء، فالعالم المخلوق نفسه لن يزول بالكلّية بل سيتحول إلى صورة جديدة، خليقة بوجود أبدي مبارَك. هذا العالم، حتى في حالته الراهنة، يحمل بصمات جمال وحكمة إلهيَّيْن، وهذا ما يتعرّف إليه أنقياء القلوب في كل وقت ويميّزونه. وأخيراً، تؤمن الكنيسة أن كل خليقة على الأرض، مع الإنسان، تتنقّى وتتقدس في إستعدادها للحياة في الدهر الآتي.

-٧-

من بين الأشياء التي تحمل قوة الله تكرّم الكنيسة، بشكل خاص، رسم الصليب الكريم، أكان ذلك حين يُرسم بحركة اليد، أم حين يصوّر على الخشب أو غيره من المواد.

"عندما تنظر إلى صليب المخلص، يقول الأب يوحنا، تأمل وافطن إلى المحبة التي صُلِبَتْ لأجل خلاصنا، وافتكر بالفرح الذي أنشأه لنا والعذاب الذي أنقذنا منه".

"لا صليب دون محبة. بيت الله مليء بالصلبان، حتى إذا وقع نظرنا عليها نشعر أننا في بيت محبة الله، في بيت المحبة المصلوبة... كما أنَّ النور كلّه مركّز في الشمس، كذلك في الصليب تتركز كلّ محبة الله الضابط الكل. إذا كان الله الآب قد أعطانا ابنه، أفلا يعطينا معه بالأحرى كلّ شيء؟... من بعد آلام المسيح صار الصليب رمزاً له. صار سلاحاً في جهادنا إزاء الشيطان... في كلّ مرة ترسم فيها إشارة الصليب، آمن أنَّ خطاياك وأهواءَك قد سُمِّرت فوقه... عندما تخطىء، دِنْ نفسك على الفور وفي الوقت عينه ارسمْ إشارة الصليب: إصنع هكذا، دوماً، كخطوة أولى في طريق التوبة والخلاص".

-٨-

وفي هذا السياق، يركز الأب يوحنا على المعنى الذي تحمله بركة الكاهن أو الأسقف فيقول:

"عندما يبارك رجل إيكليريكي، أكان كاهناً أم أسقفاً، راسماً إشارة الصليب فهو يعبّر عن بركة الله للبشر. يا للّحظة المباركة! طوبى لكل من يقبل بإيمان هذه البركة! ولكن، من جهة مقابلة، عظيم هو الحرص الذي يجب أن يتحلّى به الكاهن حين يبارك المؤمنين..."

ونضيف أيضاً كلمة له أخرى في الإيمان وهو ضرورة لا مفرَّ لنا منها حين قيامنا بإشارة الصليب:

"لا تظن أنَّ إشارة الصليب أو اسم المسيح يصنعان العجائب وحدهما من دون إرادة الله. الصليب أو الإسم الإلهي لا يصنعان العجائب إن لم نؤمن حقيقة ومن كل ذواتنا بالسيّد، وإنْ لم تكن عيوننا الروحية شاخصة إليه".

-٩-

لم يكتفِ الأب يوحنا بالحديث عن رسم الصليب، بل أشار إلى أمور شريفة أخرى:

"الرمز والتصوير يشكلان حاجة طبيعية إنسانية، لأنّهما يفسّران، بحيوية، نواحيَ مختلفةً في هذا من العالم الروحي. لذلك علّم السيد مراراً كثيرةً بواسطة الأمثال. لذلك نرسم أيقونات السيد والسيدة، الصليب، الملائكة والقديسين. لذلك نستخدم أيضاً المبخرة، الشموع والقناديل. لأجل ذلك تتم الخدم داخل بيت الله".

تكرَّم الأيقونات في الكنيسة الأرثوذكسية بشكل خاص. لفترة من الزمن اضطُهد مكرِّمو الأيقونات وكثيرون منهم لقوا حتف الشهادة. والمجمع المسكوني السابع ثبّت نصرَ الأرثوذكسية في مجال تكريم الأيقونة. من بين مكرِّمي الأيقونات نعثر على الكثيرين من القديسين ومعلّمي الكنيسة، وكثيرون هم المثقفون الأرثوذكسيّون في يومنا الحاضر الذين يدافعون عن معناها.

ونعثر في كتابات الأب يوحنا على أفكار له حول موضوع الأيقونات:

"الأيقونة تُظهر بالخطوط والألوان ما يعبِّر عنه الإيمان. تعلَّموا أن تصلّوا أمام أيقونة السيّد كما لو أنكم ماثلون أمامه هو. افطنوا إلى أنَّ عينَيه عينان إلهيتان وأذنَيه أذنان إلهيتان، وأنَّ هذه كلّها أعضاء الله الحاضر في كل مكان والعارف كل شيء".

"لنسجُدَنَّ لأيقونات القديسين كأنها تصوير للفضائل المسيحية. ومن خلال القديسين، فلنكرمَنَّ الله نفسه الذي سكن فيهم والذي يفعل من خلالهم مستخدماً إياهم كأعضاء عنايته للبشر".

-١٠-

وأيضاً بتقوى كلية يتحدث الأب يوحنا عن أشياء أخرى نستخدمها في عباداتنا، ويذكر منها المبخرة:

"المبخرة مع الفحم والبخور تُؤلف سلاحاً روحياً قوياً في يدنا. هي رمز نعمة الله التي منحني إياها. إنها رمز القوة والصلاة لأجل البشر في العالم كله، خاصة لأجل أعضاء جسد الكنيسة الأرثوذكسية الواحدة، المقدسة، الجامعة، الرسولية.

إنها رمز اللهيب الزكي للروح القدس الذي يحيي جميع المؤمنين... إنها، أخيراً، رمز والدة الإله التي حملت في أحشائها نار الألوهة".

-١١-

على أنّ الأب يوحنا، رغم التقوى الكبيرة والشعور الحي الذي تناول به كل ما أتينا على ذكره آنفاً، لا ينسى أنها رموز وتصاوير. لا ينسى على الإطلاق أن الحياة المسيحية الحقيقية تنمو في قلب الإنسان. لذلك يلفت النظر إلى خطر أن يغيب الجوهر وتبقى الرموز:

"نحن نتظاهر بأنّ المسيح فينا. أما على أرض الواقع فهو في الأيقونة وفي لفظ اسمه، في الأقوال وليس في الأفعال، على الشفاه وليس في القلب. هذه هي حالتنا... يجب أن نجعل المسيح في قلبنا. أتوجد حياة من دونه؟ حياة واهية... علينا أن نطلب المسيح مهما كلّفنا ذلك من تضحيات. أن نجده ونبقى معه دوماً. أصعبٌ ذلك؟ الرب نفسه ينتظرنا. بمن يسهل عليك أكثر أن تلتقي إن لم يكن بالله الحاضر في كل مكان؟".

الفصل السادس عشر

العلاقة بالله والقريب

-١-

إنّه لأمر مستحيل أن أرجو اقتناء موهبة المحبة الكاملة في غياب علاقة صحيحة وسليمة بالآخرين، كما أنّ رجاء كهذا يستحيل تحققّه في غياب حياة الصلاة والمشاركة في الأسرار والتوبة ودراسة الكلمة الإلهية. والعلاقة الصحيحة والسليمة بالآخرين تعني أنّي لا أسعى إلى إدانتهم أو الحكم عليهم، أو الإنتقام منهم، بل أصبر عليهم وأسامحهم:

"لا تخلطْ بين الإنسان، وهو صورة الله، والشر الذي فيه. لأنّ الشر هو مأساة عارضة، مرض، حلم شيطاني، بينما جوهر الإنسان، أي صورة الله، هو دوماً فيه".

هذا هو المبدأ الذي يضعه الأب يوحنا لعلاقة الإنسان مع الآخرين. ونورد، في ما يلي، النتائج المترتّبة على ذلك:

"كُنْ على قدر المستطاع وديعاً، متواضعاً وبسيطاً في علاقتك بالآخرين. تصوّر الجميع أفضل منك دون أدنى رياء. فمن الأنانية يأتي التكبر، الإدعاء والتصنّع في العلاقات مع الآخرين الذين نعتقدهم أدنى منّا، أو نتوقع منهم فائدة ما.... تلمُسُ أنانيتك متى شعرت بالغليان إذا تعرضتَ لدينونة أحدهم. فما عليك في هذه الحالة سوى أن تُذلَّ نفسك. لا تحقد على من يدينك ولا تضمر له سوءاً. بل كُنْ محباً له كما لو كان طبيبك الخاص، وصلِّ له. احرص على أن تكون دوافعك الداخلية طيبة نحوه في مختلف الظروف حتى لو سَلَبَكَ قرشَكَ الأخير. على

هـذا المنـوال تظهـر إن كنـتَ تُحـب أيقونـة اللـه فيـه أكـثر مـن محبتـك للماديّـات والفانيات. كلّ فرح لأجل خطايا القريب هو خبيث وشيطاني! المحبة تصـبر على كل شيء وتَستر كلّ شيء. المسيحي، بكل صدق، يرغب في الخير للقريب كما لنفسه. المسيحي يشتهي أن يتمجّد اسم اللـه علـى الـدوام مـن خـلال حياتـه ومـن خلال حياة الآخرين. وهو يصلّي ويدعو أن يصير الجميع هياكل لله غـير مصنوعـة من يد".

-٢-

لا يكفينـا أن نتحاشـى الشـر، بـل علينـا أن نجـاهد في سـبيل الحصـول علـى السلام الداخلي. ويشدد القديس سيرافيم ساروف على ذلك إذ يقول:

"احصل على السلام في قلبك والآلاف حولك سيفعلون كذلك!".

والأب يوحنا ينصحنا:

"من دون السلام والتوافق مـع الآخريـن، لـن تشـعر أبـداً بسـلام وتوافـق في نفسك".

إنّه، بقوله هذا، لا يُخفي عنه تعبير القِديس يوحنا الذهبي الفم:

" إلا أنّه يوجد تجانس وتفاهم مضرّ. أعني به ذاك الذي يجمع بين فَعَلة الشر".

-٣-

في المقطع التالي نورد إشارات أخـرى إلى اقتنـاء السـلام والمحبـة والمحافظـة عليهما:

"لا تخرجْ عن طورك حين تشعر بالغضب يعتمر في داخلك، و يتهيَّأ ليخـرج بترجمة كلاميّة. احتكمْ إلى الصمت والهدوء. أما إذا أعطيت الغضب فرصة للتعبـير فهو سينفجر بقوة ويحطّم كلّ مقاومة تبدر منك. لا تُظهِرْ خطايـاك للآخرين، ولا تُعْدِهم بها، بل اعترفْ بها إلى أبيك الروحي حتى يشيرَ عليك ويقودك ويسـاعدك في الحفاظ على انضباطك وصيانته. احرصْ دوماً على عدم التفـوّه بعبـارات التعيـير

والتجريح. بل عبّر دوماً عن محبتك وعن نيّتك الحسنة. ساعتها تكون نفسك في سلام وسكينة... وعندما تسعى إلى إصلاح الآخرين، لا تفعل ذلك بوسائلك الخاصة، بل اطلبْ المعونة من الله. تضرّع إليه أن يُنيرَ عقل أخيك وقلبه. وعندما يرى الله أن صلاتك تُؤجّجها المحبة، فما من شك ساعتها أنه سيحقق لك رغبة نفسك".

وفي مكان آخر يضيف الأب يوحنا:

" اقْتنِ عادةَ مواجهة كل إنسان كخليقة جديدة من خلائق الله، والنظرِ إليه كونه عجيبة كبيرة لحكمة الله وصلاحه. بهذه الطريقة ستوقّر الجميع، ستحبهم وتسعى إلى خدمتهم".

-٤-

من النادر أن نعثر على أشخاص كرّسوا حياتهم للأعمال الخيرية بشكل كلّي كما هي حال الأب يوحنا. وهو تناول هذه الناحية كثيراً، خصوصاً صنع الرحمة وعمل الإحسان:

"ليس هناك من فضيلة أحب إلى الله من صنع الرحمة. لأنه بهذه الوسيلة أكثر من سواها يتشبّه المخلوق بخالقه... صنع الرحمة يعود بالنفع على صاحبها وصانعها. يقوّي فيه المحبة ويغذّيها. وأيضاً فإنّ عمل الإحسان يعود بالنفع على مقدِّمِه. ولكن على تلك التقدمة أن تتم كفعل وذبيحة نابعَيْن من القلب، أن تُعطى بسرور ومشاركة حقيقية مع الآخر... يلحق بك الفقراء كل يوم. هذا معناه أن رحمة الله تتبعك كل يوم، هو الذي قال: " طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون" (متى٥:٧). فمن هو ذاك الذي يرغب في الهروب من رحمة الله؟"

وسعى الأب يوحنا في سبيل تحريك النفوس نحو صنع الرحمة وعمل الإحسان، مستعيراً أقوالاً للقديس غريغوريوس اللاهوتي أو للقديس يوحنا الذهبي الفم فيقول:

"إنّ المصروف غير الضروري واقتناء الكماليات يشكّلان سرقة للفقراء، لأن

الفائض عن حاجاتنا هو ملكهم ويعود إليهم... علينا ألاّ نتوقف عن المساعدة دون أن نقيم وزناً لمنصبٍ أو عرق أو معتقدٍ. فلنتذكر دوماً أنه ليس بمقدورنا أن نكون أكثر كرماً من الله، طالما أنّ كل ما نقدّمه هو عطية منه".

-٥-

إلى إرشادات الأب يوحنا هذه، نضيف أخرى يتحدث فيها عن طريقة استعمالنا لمواهبنا:

"يجدر بكل واحد منّا أن يخدم الآخر بمواهبه، بمقدرته، من الموقع الذي يحتلّه، من أملاكه، ومن معين التربية والثقافة اللتين حازهما. على العلماء والموظفين والمعلّمين والمؤلّفين أن يخدموا مجد الله وحاجات الشعب وفق مبادىء الكنيسة الأرثوذكسية. لا يجدر بهم اعتبار الحياة مجرد لعبة أو عبارة عن سلسلة من التسليات وإرضاء للأنانيّات. على رجال الإكليروس، بوجه الخصوص، ألاّ يطمروا نورهم أو بالأحرى نور المسيح، بل أن يوزعوه على نفوس البشر بغنى وفيض".

البعض يأخذ على الأرثوذكسية طابعها التأملي الخالي من الترجمة العملية. وبين الأرثوذكسيّين أنفسهم من يرى فيها سعياً وحيداً نحو كمال داخلي. أما الأب يوحنا فيوضح لنا الأمر إذ يقول:

"لا تسأل أبداً إذا ما كان يتوجب عليك أن تكتب أو تعظ أو تعمل لأجل مجد الله، فإننا موضوعون تحت ضرورة ممارسة هذه الواجبات على قدر الإمكان. علينا أن نترجم مواهبنا أفعالاً، أمّا إذا بدأنا نتساءل حول ذلك، فإن الشيطان لن يتأخر ليهمس في آذاننا أن خذوا بالاعتبار حياتكم الداخلية فقط".

-٦-

وإذ ننتهي من جولتنا في مذكرات الأب يوحنا، لا يسعنا سوى الإشارة مرة أخرى إلى أن الموضوع الرئيس هو حياة المسيحي كحياة إلهية ـ إنسانية. عنوان الكتاب نفسه، "حياتي في المسيح"، يشهد لذلك. والأمثلة التي جرى الاستشهاد بها تكشف لنا، وفق الأب يوحنا، أن لا شيء يحدث في حياة المسيحي دون سماح

من الله، وأنّه، مهما حصل له، فهو يحيا في مَعِيّته. فالذي يَهب كل صلاح يجيب كل سُؤل. يهبُ كل قاصد لملكوت السماوات خرائط ومرشدين ـ الكتاب المقدس ـ وبوصلة الضمير، وقبل كل شيء سفينة حريّاً بها أن توصله إلى الميناء الأمين وقبطاناً يعبر به إلى برِّ الأمان، أعني بهما المسيح وكنيسته.

هكذا، فبمقدور المسيحي أن يعيش زمان حياته ويجوزه متسلّحاً بالثقة إزاء الصعوبات مهما كثرت والأعداء مهما سعوا إلى تغيير همّته والحؤول بينه وبين مُراده.

-٧-

وحتى نكمل اللوحة حول حياة الإنسان المسيحي نستعرض مقاطع من كتب مختلفة للأب يوحنا، فهي تساعدنا في التعرّف على العمل القائم بين الله والبشر والذي نستشفه في حياتنا اليومية، في مختلف الظروف والحالات والمناسبات. بالطبع، حياة الأب يوحنا اليومية هي حياة راعٍ وكاهن. لكن هذا لا يشكل مانعاً لاستفادة المسيحي من مثاله وأفكاره.

في رتابة الحياة اليومية، تشكّل الصلاة تعبيراً أساسياً عن الحياة الإلهيّة ـ الإنسانية. وباستثناء أشكال الصلاة المختلفة، وقد سبق الحديث عنها، هناك وجه آخر لها نطلب ونتضرع فيه في سبيل الاستنارة الإلهيّة. وهذه الصلاة تجمع بشكل خاص الإنسان بالله. ويقول الأب يوحنا في هذا الشأن:

"إذا ما كنت مزمعاً على كتابة موضوع أو محاضرة أو عظة ووجدت أنّه لا يمكنك أن تستقي من قلبك "ماء حياة"، إرفع ألحاظك ساعتها نحو السيد ووالدته الطاهرة، وسيُظهران لك على الفور ما هو مناسب ونافع لموضوعك، وسيستنير عقلك وقلبك وستحصل على معرفة سائر جوانب الموضوع الذي أنت في صدده".

وأشار أيضاً في حالة أخرى:

"كيف علينا أن نطلب ملكوت الله؟ على الشكل التالي: إذا عزمت أن تسافر إلى مكان ما، صلِّ إلى الرب أن يهدي خطاك، أولاً طريق قلبك، ثم طريق رجليك. وهكذا إذا ما نظر الرب صدْق نواياك ومسعاك أن تسلك حسب وصاياه،

فهو سيعمل رويداً رويداً على توجيه طريق حياتك كلّها".

وفي مؤلّفات الأب يوحنا نعثر كثيراً على صلوات شكر مرفوعة إلى الله لأجل معونة سماويّة أو إلهام سماوي في ظروف ومناسبات معيّنة، إليكم واحدة منها:

"أشكرك يا رب إذ أوحيت لي موضوع العظة التي ألقيتها الساعة الثامنة مساءً قبل الاعتراف العام وتفصيلاتها، وتلك التي ألقيتها صباحاً بعد القداس السابق تقديسه. أشكرك لأنك استجبتَ لصلاتي ووهبتني كلمة مفيدة لنفوس الآلاف من المجتمعين ههنا".

-٨-

والإنسان الذي يعيش في صلاة مستمرة حيث لا ينفك يسأل الله أن ينيره، ولا ينفك الله عن استجابة طلبه، يدخل أرجاء حياة مدهشة عجيبة. فالصعوبات المختلفة، والتي قد تبدو لعديم الإيمان مستحيلة العبور أو مستعصية الحل، تصير بالنسبة للإنسان المصلّي فرصة انتظار محبوبة للعون العلوي:

"يبدو من الصعب علينا، كما يلاحظ الأب يوحنا، أن نحبّ أعداءَنا وفق وصية السيد. أما بالنسبة للقلب الذي تجدّد بالنعمة الإلهية فإنّ تحقيق الوصية يصير سهلاً. فالرب يساعد عبده في كلّ شيء".

بالإضافة إلى هذه الوصية، هناك وصايا أخرى يصير بإمكان المؤمن تحقيقها. على سبيل المثال نذكر عدم الاهتمام بالغد، وبشكل خاص أن نطرح عنّا الاهتمامات المختلفة. والأب يوحنا، إذ كان يطلب ملكوت الله قبل أي شيء آخر، كان يَهَبُ كلّ شيء. وهو يرى كلّ هاجس لادّخار المال جحداً لله:

"ترغب في أن تضمن مستقبل عائلتك وأنتَ لا تسلمها إلى الله حتى يعيلها، بل تضع كلّ إيمانك ورجائك في مَعْدَنَ عديم الحياة!؟"

- ٩ -

مهما بدا الأمر غريباً، فإن الطاعة هي التعبير الأمثل عن الحريّة الروحيّة الحقيقيّة. فوَعيُنا لتحرّرنا وتالياً للحرية ينشأ ويتعاظم من خلال تزايد ثقتنا بالله،

ويؤدي بنا إلى إطاعة مشيئة الله. ويعلّق الأب يوحنا في هذا المجال فيكتب:

"الإنسان الذي تجدّدت نفسه يجد رضاه في الطاعة، أمّا الإنسان العتيق فيرغب بالعصيان: يا رب لتكن دوماً مشيئتك، أقبلُ كلّ ما يحصل لي كتعبير عن مشيئتك، لأنّ لا شيء يحدث من دونك".

"والسؤال الأهم، يكتب في مكان آخر، هو: كيف سأربح الحياة الأبدية؟ الرب يجيبنا: "إذا أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا" (متى١٩:١٧)، في حفظ الوصايا إذاً طريق الخلاص، والوصايا تتلخّص بمحبّة الله والقريب".

وحتى لا تبقى هذه المحبة على صعيد النية فقط، بل تجد لها تعبيرها العملي المادي، يذكّرنا الأب يوحنا بما يلي:

"حياتنا كلّها عبارة عن أمور نقوم بها نحو الله والقريب، قد تكون هذه الأمور صغيرة جداً وغير ذات قيمة، ولكنّ الأعمال الكبيرة لا تبدأ إلاّ على هذا النحو".

-١٠-

رغم كل الصعوبات، يجدر بالإنسان المسيحي أن يفقه أنّه يعيش دوماً بالنعمة الإلهية. ويقول الأب يوحنا في هذا الشأن:

"ما هي النعمة؟ إنها قوة الله التي تُوهب لكلّ إنسان مسيحي. النعمة تُطهّر، النعمة تُنير وتُشدّد في إتمام كل عمل صالح وتجنب كلَّ شرّ، النعمة تعزّي في الأحزان وتقوّي في الشدائد وتمنح العون في سبيل اقتناء الخيرات الأبدية".

فقط ذاك الذي شعر أنّه يتحرك بالنعمة الإلهية ويعيش وسطها يستطيع أن يقول مع الأب يوحنا:

"كم أنت صالح يا رب، كم أنت قريب منّا لدرجة نستطيع معها التحدّث إليك، والحصول منكَ على التعزية والنور والسلام، ونزيد في معرفتك ومعرفة نفوسنا".

الفصل السابع عشر

الشؤون الوطنية والاجتماعية

-١-

عظات الأب يوحنا وأحاديثه لا تتمتع بالفرادة التي تتمتّع بها مذكّراته، ولكن يميّزها أسلوب التعبير وحيويته إلى جانب خبرة روحية شخصية.

كان يهدف من خلال عظاته إلى إيقاظ رعيته الناطقة روحياً. كان يرغب في أن يوقظ في القلوب العَطشَ إلى الله، التطلع إلى العلى والابتعاد عن كل ما يعيق الطريق المؤدية إلى السماء.

بغيرة متّقدة كان يتحدث عن معنى الكنيسة، وكان يتناول بحرارة كبيرة سرّها الرئيس، القداس الإلهي. خاض أيضاً في مواضيع أخرى، عقائدية وخُلُقيّة. في هذا المجال الأخير، تحدث مفصّلاً على الأهواء التي تميّز البشر بشكل عام، وعن تلك التي تتميّز بها كل طبقة من طبقات الشعب. كان يأخذ على المثقفين، والأغنياء على نحو خاصّ، البطالة وأنّهم يطلبون الكماليات وينحرفون وراء التسليات ولا يبالون بالفقراء. أما عامّة الشعب فكان يأخذ عليهم عادة السكر والكلام البذيء.

أقواله تذكّرنا بعظات القديس يوحنا الذهبي الفم. كانت تمتاز بالقوة والفاعلية، لأنه لم يكنْ يجابه الأهواء المختلفة بكلام العظات فقط، بل بمثاله الخاص.

-٢-

آراؤُه في الشؤون الاجتماعية والوطنية عكستها أحاديثه بشكل خاص، بينما كانت عظاته تتناول النواحي العقائدية والخُلقية والتي تناولتها مذكراته بنَفَسٍ خاص.

حديث الأب يوحنا في الغنى والملكية يسير جنباً إلى جنب مع موقف الذهبي الفم، إذ كثيراً ما كان يعظ فيهما معتبراً أنّهما هبة من الله لأجل خير القريب. وفي السياق نفسه كان يعتبر أملاك الدولة مظهراً من مظاهر خدمة القريب والكنيسة والله.

في أيامه كانت الأعياد الإسمية وأعياد ميلاد بعض أفراد العائلة المالكة، أي القيصر وزوجته ووليّ العهد، تشكل مناسبات وطنية، بل وكنسيّة أيضاً. وقد درجت العادة، في أيام الأعياد، أن تنحصر الأحاديث في مناسبة العيد. وقد انتهز الأب يوحنا مثل هذه ليُعبّر عن آرائه في الشؤون الوطنية والاجتماعية.

-٣-

الجدير ذكره في هذا المجال أننا لا نعثر في هذه الأحاديث على تَملُّق يتناول أعضاء الأسرة المالكة. هاجس الأب يوحنا الأول كان حياة مستمعيه الروحية.

نورد، في ما يلي، مقطعين مختلفين من كلمة ألقاها في العيد الإسمي للقيصر ألكسندر الثاني المحرِّر:

"إنّ الأمير ألكسندر نفسكي، الذي شَهَرَتْ الكنيسة قداسته، برهن، من خلال حياته الشريفة كلّها، عن نكران الذات والتضحية بمصلحته الشخصية وهدوئه وحتى حياته في سبيل الخير العام... أتضرع إلى الله أن يمنحنا نحن أيضاً قلوباً تملؤها المحبة ولا تهاب شيئاً، وعندما تدعونا الحاجة أن لا نتوانى عن التضحية بذاتنا لأجل الآخرين".

"تمتع القديس ألكسندر نفسكي بالفقر الروحي المغبوط، أعني به التواضع. وأيضاً فإنّ قيصرنا يسوس شعبه بروح القديس الذي يحمل اسمه، بروح الوداعة والتواضع والصلاح والحكمة والصبر. وأمّا نحن فلنعتبر أنفسنا أعضاء العناية الإلهية ولنقدِّم المصلحة العامة على كل اعتبار خاص وشخصي، ولنخدمْ بوفاء الخير والمصلحة المشتركة".

وعند اغتيال القيصر، لم يتورع الأب يوحنا أن يقول كلمته في الموت المؤلم، بينما كان الشعب يعيش الأمر بحزن وخوف:

"القيصر، بوفاته، صار متشبّهاً بالمسيح... ولكن لنفهم أن وفاته هي صوت الآب السماوي المزمجر والمتّهم إيانا. فنحن لسنا أهلاً لمثل هذا القيصر. فلنصطلحْ ولنقوّم مسيرتنا. لقد أخطأنا كثيراً ومَرْمَرْنا الله إلى درجة لا تطاق. كفانا! نحتاج إلى تطهُّر وتوبة. فلنخلعْ عنّا وثنيّتنا ولنلبسِ المسيح!".

-٤-

وإذا كان تاريخ الشعوب يُظهر كلَّ أمر صالح أو سيّئ في حياتهم الاجتماعية، فإن صداه يدوّي بشكل خاص في عظات الأب يوحنا. وغالباً ما ارتبطت هذه العظات بتنبؤات وتحدّيات تناولت عصره وممارساته:

"إذا كنّا نتوانى عن أن نتسلّح إزاء أهوائنا، فإن التراخي والإنحلال العام سيثيران غضب الله علينا فيسمح أن تَشنَّ علينا الحروب فيحلّ بنا الهلاك ويقضي علينا الموت. ليكن معلوماً في كل الأمم، عند كل الشعوب وأمام كل الملوك، أنّه لم تكنْ مملكة قائمة إلى الأبد ولن تكون. فكلّما ساد عدم الإيمان وانعدمت الأخلاق بين الناس، كلّما صارت الأمم والممالك، لا محالة، إلى زوال وانحلال".

وإذا كان الأب يوحنا يتحدث عن النتائج الممكن ترتُّبها على السلوك في طريق الخطيئة والهلاك فإنّه، في المقطع التالي، يتوقع بالحقيقة ما هو آتٍ:

"إلى متى سيدوم هذا العالم الملحد على وجه الأرض الذي صار مرتَعاً للخطيئة وارتوى من دماء الضحايا البريئة؟ فهل اقترب يا ترى زمن التنقية بالحديد والنار؟ نعم، قد اقترب. وإذا كان الرسل الأطهار قد تحدثوا عن اقتراب هذا الزمن فنحن، لا شك، قد بلغناه وصرنا على عتبته".

-٥-

ارتفع الأب يوحنا بقراءته الروحية هذه للتاريخ فوق الحساسيات السياسية والتشنجات التي كانت تتجاذب المجتمع الروسي، فكان حكيماً متبصّراً حتى في أشد الأوقات احتداماً.

هكذا أثناء الحرب الروسية ـ التركية، وقف الأب يوحنا إزاء النوايا التوسعية للسلاف في وجه الشعوب الأخرى، وعبّر عن ذلك في عظة له فقال:

"إنّ روسيا المسالمة لم تنظّم مرة حملات عسكرية لأجل وحدة الشعوب ذات طابع عسكري. ما نسعى إليه هو أن تَمتُن أواصر الصداقة والتفاهم بين الشعوب، أن نشترك أكثر في ما يحققه الاكتشاف العلمي والتقني. علينا أن نمضي في السعي لتحقيق دعاء الرب مخلصنا الذي رغب في أن تصير الأمم كلها، الأعراق كلّها، رعية واحدة، كنيسة حقة".

وفي مكان آخر يضيف:

"في رغبتنا بوحدة الأمم التي تُشاركنا النسب العِرقي، ليس علينا أن ننفر من الشعوب الأخرى، وخاصة من أولئك الذين يعيشون في بلادنا. مثل هذا الشعور يتنافى وروح الإنجيل. يجدر بنا ألاّ ننفصل عن الآخرين لأننا كلّنا إخوة".

-٦-

وروسيّا المثالية كان ينظر إليها، ببساطة، على النحو التالي:

"ستكون بلادنا قوية داخلياً وخارجياً فقط عندما يسود العدل والتوافق والتعاضد بين مختلف الطبقات الاجتماعية، والتضحية والوفاء للكنيسة والأمّة والقيصر".

نظرته للشؤون الوطنية عكست مبادئه ومعتقداته الإيمانية. وظهر هذا في الربط الذي يقيمه بين حديثه عن روسيا المثالية والجماعة المسيحية الأولى:

"روح الجماعة المسيحية الأولى يشكل، بالنسبة لنا نحن المسيحيين، مثالاً يُحتذى وقدوة يجدر بنا التشبه بها".

أمّا القيصر والوطن الأرضي فكانا يشكّلان بالنسبة للأب يوحنا صورة للملك السماوي وصورةً للوطن الحقيقي:

"أحببْ بلادك ففيها ترعرعْتَ، ومن أرضها أكلْتَ، وفي مدارسها تعلّمْتَ وعلى ترابها تعيش، ولكن ليكن حبُّك للوطن السماوي أشد وأقوى، فهو الوطن

المقدس والحقيقي والأبدي. ولأجل أن تصير مواطناً في المساكن العلوية سَفكَ ابن الله دمه. لذلك، كما تحترم القوانين والأنظمة في وطنك الأرضي، يجدر بك أن تحب وتعيش وفق ناموس الوطن السماوي... خدمتُك للقيصر وللأمة هي صورة لخدمة الملك السماوي ومملكته... خدمتك ههنا تحريبية تهيّئُ للخدمة السماوية".

وينهي قوله هذا بعودته إلى الآية الإنجيلية:

"كنتَ أميناً في القليل، فأقيمك على الكثير" (متى٢٥:٢١).

-٧-

القلق الذي خبره الأب يوحنا على روميا أثناء الحرب الروسية ـ التركية، وخصوصاً في المحاولات المتكررة التي تناولت حياة القيصر والتي أدّت إلى اغتياله، هذا القلق عاشه أيضاً أثناء الحرب اليابانية ـ الروسية.

ففي هاتين الحربين، وبشكل أكثر حدة في اغتيال القيصر، كان الأب يوحنا يرى حكم الله وقضاءه، وهو قال في إحدى عظاته:

"الحرب ما زالت في بدايتها، والله وحده يعلم متى ستضع أوزارها. فليتحرَّك على الفور كلّ الشعب الروسي إلى التوبة. فلنُحسِّن أخلاقنا ولننفضْ عنّا غبار عدم الإيمان والتواني. فلنتحلَّ بالتواضع والتقوى ولنسعَ في تطبيق وصايا الله ولنُظهِرْ محبتنا ورحمتنا للفقير والمسكين".

وفي عظة أخرى قال:

"إنّ الحرب اليابانية الراهنة هي نتيجة خطايا روميا العظيمة".

وسنة ١٩٠٥ أخذت نبرة صوته منحى أكثر قساوة وشدة فقال:

"هذه الحرب الدموية هي حكم الله العادل على خطايانا. أتسمع أيها المثقف الملحد؟ ها وقت الصحو! هذه كلمات الروح القدس التي قيلت فيكم: "ها أنا آتي سريعاً وأُجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله" (رؤيا ٢٢:١٢).

عندما بدأت روسيا تدخل حالة عدم الاستقرار، وفي وقت لاحق عندما صارت تظهر، هنا وثَمّة، تحركات ثورية، لم يكفّ الأب يوحنا عن التعرض لمنحى حياة الطبقة الأرستقراطية الوثني الطابع والمادي السلوك. وكان في الوقت عينه يشير إلى الخطر الآتي من طبقة من المثقفين المعادين للكنيسة وللتديّن. إليكم مقطعاً من إحدى عظاته يتحدث فيه بالقوة نفسها عن هذين الموضوعين:

"لخلاص النفوس لا يكفي اعتراف بالإيمان المستقيم أو تكريم للأيقونات أو الاشتراك في الخدم الكنسية. الحاجة موضوعة علينا حتى نعيش حياة مسيحية حقيقية، ونحفظ الوصايا باستقامة ونسعى في سبيل بساطة الروح وطهارتها... فلماذا إذاً اليوم كثيرون من المثقفين ارتدُّوا عن محبة روسيا وضمروا لها الشر ويفرحون بمصائبها؟ هذا لأنهم رفضوا تعليم الكنيسة".

وفي مناسبة أخرى، في عيد بشارة العذراء، ألقى كلمة تجلّت فيها نبرته الحازمة القاطعة إذ قال:

"فقط ملكوت الله على الأرض يحمل السلام الدائم وذلك إلى منتهى الدهر. وبينما يعيش العالم في الخطيئة، يبتعد تدريجياً عن شريعة الله، يفقد سلامه ويتخبط بأهوائه القاتلة من خلال الحروب والثورات والتحزّبات والنعرات المختلفة. فالشجرة تُعرَفُ من ثمارها".

"ألقوا نظرة إلى ثمار الحضارة المعاصرة. على من أَتَت بالنفع والمسرّة؟ لماذا تعاني روسيّا من هذه الأوضاع؟ لماذا فقد الشباب المتعلّم خوف الله ويهمل ناموسه؟ لماذا يسعى المثقفون المتبجحون بأنفسهم وراء استلام زمام قيادة الشعب وذلك دون أن يكون لديهم فَهم حقيقي لحاجاته أو يُكنّوا له المحبة؟ هذا يحدث لأنّ الإيمان بالله كما الرجاء بحقائقه الأبدية باتا ضعيفَيْن للغاية، ولأنّ الابتعاد عن كنيسة الله أفقدهم المرشد الوحيد لحياة مسيحية مقدسة والحافظ الوحيد لحقوق الجميع والمراقب الساهر في سبيل أن يتمِّم كل واحد ما يتوجب عليه".

كما دوستويفسكي، كذلك كان الأب يوحنا يرى، في ما كانت ترتكبه الجماعات الثورية الملحدة، تعبيراً واضحاً عن العبثية. وهو سبق له أن أفصح في إحدى عظاته أيام القيصر ألكسندر الثاني:

"إنّ بعض هؤلاء الأشقياء الذين يركضون وراء العدم بلغوا درجة من الانعدام صاروا معها يطلبون خلع عرش القياصرة وتحويل العالم إلى جهنم، إلى مكان نوح وبكاء".

والتياران اللذان تناولهما الأب يوحنا بالإنتقاد الجارح، الأول الذي تمثّل بسلوك حياتي وثني مادي، والثاني الذي تمثّل بالإلحاد، اجتمعا معاً في تعييره تولستوي وانتقاده إيّاه. فهذا الأخير كان كثير التعرض لتهجّمات الأب يوحنا، الذي كان يعتبره ليس فقط رجلاً ملحداً جاحداً، بل ممثلاً للأرستقراطية، سيّئ الذهن. ولم يكتف الأب يوحنا بانتقاده في عظاته بل عمد أيضاً إلى نشر كرّاس خاص بذلك.

-٨-

أما جماعة المثقفين الثورية، التي جمعت إلى نشاطها السياسي رَفضَها المسيحية وخصوصاً الأرثوذكسية، فلم تبقَ مكتوفة الأيدي. فشنّت صحافة الجناح اليساري هجوماً مركّزاً بكل ما أوتيَت من القوة في مناهضتها الأب يوحنا. وعمدت أيضاً إلى نشر بعض الكاريكاتور وعرض مسرحيات في هذا الصدد (الغراب الأسود،...).

وقد تناولته هذه الصحافة بانتقاد جارح لغيابه عن كرونشتادت سنة ١٩٠٦ حين اندلاع اضطرابات عنيفة هناك اشترك فيها قسم من البحرية. وبعد وفاة الأب يوحنا عمد أحدهم إلى الدفاع عن غيابه أثناء تلك الاضطرابات. وفي رأيه أنّه كان واجباً على الأب يوحنا أن يغيب عن المدينة أثناءها لسبب احتمال تعرضه للموت وإن برصاصة طائشة، وحصول مثل هذه الحادثة كان سيدفع الشعب إلى الانتقام من طبقة المثقفين ورجال اليسار. فاضطرّ ساعتها إلى التغيب عن المدينة لبعض الوقت حتى يوفّر عليها دماء أخرى وسلسلة اضطرابات أعنف.

وما تعرض له الأب يوحنا لم يمنعه من تناول الحركات الثورية في أحاديثه، بل إنّ أحاديثه زادت حدةً وقَسَتْ لهجةً، على ما نتبيّن في إحدى كلماته سنة ١٩٠٧:

"الدولة على وشك الإنهيار. الكارثة باتت وشيكة... فإذا استمرت الأوضاع على هذا المنوال، وإذا بقي الملحدون والفوضويّون خارج سلطة القانون، وإذا كانت الدولة لا تتخلص من كل أنواع السوس التي تنخرها، فإن الكارثة ستحل لا محالة كما حصل للممالك منذ العصور القديمة. مدن عظيمة وإمبراطوريات ضخمة انتهت إلى الزوال واختفت عن وجه الأرض، وفقاً لحكم الله العادل لسبب إلحادها وعصيانها".

ولم يوفّر في أحاديثه أيضاً فتور السلطة السياسية، فقال:

"المسؤولية تقع أيضاً على الإدارة العليا التي لا تدين الاضطرابات. هي عرضة للملامة. غياب العقاب في روسيّا بات عادة وصار بالنسبة للبعض مصدراً للتفاخر. لهذا تكررت الاضطرابات في البحرية، وبلغت حتى السفن الإمبراطورية. الخيانة في كل مكان. تهديد الحياة والتعدي على أملاك الدولة لم يوفّر مكاناً. وستستمر الأمور على هذه الوتيرة طالما بقيت الدولة تتّبع سياسة مطاطية. إلى أية هوّةٍ بلغت بلادنا الأم؟ متى ستدركين السعادة؟ ستأتي تلك الساعة فقط عندما تعانقين من كل قلبك الله والكنيسة، والخُلق الحسن".

-٩-

في مذكرته التي كتبها في سنواته الأخيرة والتي طبعت بعد وفاته تحت عنوان "القمحة الحية في المرج الروحي" نعثر على بعض المدوّنات التي، بينما تتعرض بالانتقاد لليسار، لا تغفل عن الكثير من الجوانب السلبية للحياة الروسية الراهنة. وهو كان يُدرك، من خبرته الشخصية، الأوضاع المدقعة التي كان يعيشها عدد من الأرياف الروسية:

"لقد تجولتُ في الأرياف وعاينتُ الحياة القروية الزراعية. ما هذا الفقر! ما هذه الثياب البالية! ما هذه الوجوه الشاحبة من قلة الغذاء! ما هذه النظرات الحزينة!... هل هم أبناء قراصنة أم أبناء الله؟... والأغنياء أشاحوا نظرهم عنهم ولا يُريدون حتى أن يبادروهم بإلتفاتة صغيرة. أهكذا هي نفوس الأرستقراطيين؟! كم هي بعيدة عن رأفة الله ومحبته للبشر!".

انتقد الأب يوحنا الثورة كما انتقد روح التحرر الذي ساد عصر القيصر نقولا الثاني لسبب ارتكازها على أساس غير مسيحي:

"يجب أن تعرفوا أن الثورة في أيامنا هذه هي، قبل كل شيء، نتيجة الابتعاد عن الإيمان وعن الأرثوذكسية التي تحوي بالنسبة لكل مؤمن المقدرة على ترتيب كل الأمور، أكانت متعلقة بعالمنا الداخلي أو الخارجي، وتوفير الحلول للحياة عائليّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً".

-١٠-

قد يُعتبَر الأب يوحنا "يمينيّاً" من جهة معتقداته السياسية. لكنه، بالأكثر، أحد أبناء البلد البسطاء، وكان يرى في سلطة الدولة القوةَ التي بَنت روسيّا. لذلك عمد في عظاته إلى انتقاد الاضطرابات والفوضى وكل ما من شأنه أن يعكّر سير الإدارة الحسن، وذلك دون أن تكون لديه أيّة خلفية لمنفعة شخصية.

بالتأكيد لم يكن رجلاً سياسياً، ولا حتى دبلوماسياً. لكنه كان يعاني لأجل خير الكنيسة وخلاص البشر، وبشكل خاص روسيّا وشعبها. عانى من أجل بلاده لذلك لم يتوان عن الانتقاد. في إحدى صلواته الأخيرة، سكبَ قلبه ومعاناته أمام الله قائلاً:

"يا رب! خلّص الشعب الروسي والكنيسة الأرثوذكسية، هما في خطر. الفوضى تسود كلّ مكان وتعُمُّ الاضطرابات ويرتفع الإلحاد! يا رب، كل شيء هو في يديك. أنت هو الضابط الكل. خلّصنا".

الفصل الثامن عشر

من حياة الأب يوحنا اليوميّة

-١-

في معظم الكتب التي تناولت حياة الأب يوحنا نقعُ دوماً على فصل بعنوان "الحياة اليومية للأب يوحنا". وهذا يرد بشكل عام عند كل مَنْ كَتبَ سير الرجال القديسين، حيث كانت تُفرد فصول للتحدث عن بعض وجوه حياتهم، مثل الصوم، الصلاة،...

وتخصيص مثل هذا الفصل هنا له ما يبرّره، ذلك أنّ حياة الأب يوحنا اليوميّة بدت ممهورة بطابع نسكي جهادي. في الواقع، كل إنسان تقريباً يخصّص الجزء الأكبر من وقته للعمل و الانشغالات المختلفة والتي تأخذ في بعض الأحيان منحى بطولياً. ولكن كثيراً ما يحدث هذا في سبيل إرضاء اهتمامات شخصية تبعاً لإرادة كلّ واحد. والأب يوحنا، في معيشته اليومية، لم يكن يتسنى له وقت للراحة، وهو خصّص ساعات عمله كلها في سبيل خدمة القريب.

ولكن هذا الواقع لم يجعلْه يشعر أنه عبدٌ للواجب. بل على العكس، كان يشعر نفسه حراً أكثر من أي شخص آخر، لأنّه وجد في هذا الأمر دعوته. كان يتمِّم ما قد دعاه الله إليه. لم يكن يخدم إرادته الخاصة، بل مشيئة العليّ. وهو لم يكن مقيّداً بانشغالات المعيشة اليومية واهتماماتها على نحو: "ماذا سنأكل؟ ماذا سنشرب؟ ماذا سنلبس؟".

فأين يتجلى إذاً وجه حياته النسكي؟ لا ننوي في سعينا للإجابة على هذا السؤال، أن نَعرض الأمر كعرض قوة، أو كَمَنْ يسعى لتسجيل رقم قياسي. فهذا

المجال يناسب الرياضة، وليس في نيّتنا أن ننظر إلى حياة الأب يوحنا من منظار من يعذّب نفسه. فهذا منحى غير إنساني ومتطرّف في آن واحد. فالنسك الحقيقي للإنسان المسيحي هو استعداده غير المنقطع لتقبّل المحبة واستقبال نفخة الروح القدس.

النسك لا يعني رفضاً للسعادة ولكنّه محاولة اقتناء الحياة الحقّة. والإنسان في سعيه هذا يعثر على نور المحبة وغبطتها في حضرة الله التي لا يعروها مساء.

-٢-

سنحاول أن نَصِفَ لكم يوماً من أيام الأب يوحنا في الفترة التي ذاعت فيها شهرته. وبرنامجه اليومي لم يأخذ هذا المنحى على الفور. فهو، قبل سنة ١٨٨٩، كان يُعطي دروساً في الصفوف الإعدادية في مدرسة كرونشتادت وخصّص قسماً من وقته لـ "بيت العمّال". أما بعد سنة ١٨٩٠ فقد تغيّر برنامجه اليومي وصار على الشكل الذي سنعرض له:

كان يستيقظ الساعة الخامسة صباحاً ويخصص نصف ساعة للصلاة أو للاستعداد للقداس الإلهي. وهناك شهادات عديدة تُحدّثنا عن صلاته في حديقة منزله حتى لو كان الطقس جليدياً. لكنّه، في وقت لاحق، ما عاد بإمكانه القيام بصلاته في حديقة منزله، لا صباحاً ولا مساءً، لسبب انتظار الناس له حتى يتسنّى لهم مقابلته.

في البدء كان يستقبل البعض قبل ذهابه إلى الكنيسة. ولكن ما لبث أن صار الجمع غفيراً وبات متعذراً عليه أن يستمرّ على هذا النحو. وهو أيضاً، في سنواته الأولى، كان يخرج من منزله ويوزّع الإحسان على الفقراء المنتظرين أمام منزله، إلاّ أنّه، في وقت لاحق، أوكَل إلى البعض أن يقوم عنه بهذا العمل، وتحوّلت الجموع عن الانتظار أمام المنزل وصارت تنتظر أمام الكنيسة.

وأيضاً، بينما كان في السنوات الأولى من حياته الكهنوتيّة يذهب سيراً على القدمين إلى الكنيسة لإقامة الخدمة الصباحية فيها تُحيط به جموع لها مطالب متنوعة، صار، بعد ذيوع شهرته في أرجاء روسيّا كلّها، مضطراً إلى استعمال عربة تُقِلّهُ لسبب احتشاد الجموع الغفيرة. ولكن هذا الأمر لم يمنع البعض من التمسك

بالعربة التي كانت تُقَلّهُ والتعلّق بها. وحتى يستطيع بلوغ الكنيسة والدخول إليها من مدخل خاص به، كان لا بُدَّ له من مساعدة الشرطة.

ونحن قد سبق لنا أن تحدثنا عن طريقة خدمته الكهنوتية أو كيفية قيامه بتقبّل الاعترافات والمناولة. ورأينا كيف أنّ الشعب، حتى داخل الكنيسة، ما كان يتوقف عن التعبير عن طلباته أكان شفهيّاً أم عبر الرسائل أو قصاصات الورق، أو بكل بساطة انتظار صامت. وبعد انتهاء القداس الإلهي كان يهبُ نفسه لهذا الشعب إلى ساعة متأخرة من الليل.

-٣-

بصعوبة، وليس دائماً، كان الأب يوحنا يذهب بعد القداس الإلهي إلى منزله لبرهة من الزمن، لحوالى ربع ساعة أو ثلث ساعة يعود بعدها مباشرة لملاقاة الجمع الذي قَدِم خصّيصاً إلى كرونشتادت لرؤيته. فكان يذهب، لهذا الغرض، إلى "بيت العمال" وبيت الضيافة التابع له، وفي بعض الأوقات إلى بيوت بعض أبناء رعيته الذين كانوا يستضيفون البعض منهم. أمّا في أغلب الأحيان فكان يذهب إلى فنادق أو منازل خُصّصتْ لهم.

أماكن إقامتهم هذه قد كثرت في السنوات الأخيرة بشكل مطّرد. وقد بلغت العشرين سنة ١٨٩٠ حسب ما يذكر في مذكرات له طَبعها في ذلك العام. كانت هذه المنازل متنوعة، منها ما كان بسيطاً للغاية وخُصِّص للمُعدَمين، ومنها ما بلغ حجم الفنادق ذات الغرف الواسعة المنفردة، وقد خُصّصَ بعضها للمرضى. في كل بيوت الضيافة هذه، كانت توجد غرفة استقبال كبيرة زَيَّنَتْ جدرانها الأيقونات. هناك كان الأب يوحنا يجلس ويستمع إلى الناس ويصلّي من أجلهم.

ومرّات كثيرة، وحتى أثناء غيابه، كانت تُقام في هذه الحجرة خدم مثل صلاة السحر أو الغروب أو صلاة النوم أو خدم المديح للعذراء ولِقديسين مختلفين، وذلك إمّا بمشاركة بعض الكهنة الذي يصادف عبورهم في كرونشتادت، أو بغياب أي كاهن. وكانت تجري، في بعض الأحيان، قراءة إحدى كتابات الأب يوحنا أثناء إتمام الخدمة.

-٤-

ما من شك في أنّ مِنْ أصحاب هـذه الفنـادق مَـنْ استغـلّوا إعجـاب النـاس بالأب يوحنا فلم يتورّعوا عن استغلال اسمه لتحقيق غايات رخيصـة. وهـذا الأمـر كان مدعاة تعيير للأب يوحنا وتهجّم عليه من قِبَلِ المناهضين له ومن قِبَل المُعادين للدّين. أمّا الذين عرفوا قامته الروحيّـة عمـدوا إلى تَـبْيان حقيقـة أنّـه لـم يكـنْ هـو شخصيّاً مسؤولاً عن هذه التجاوزات. البعض يقول أنّه لـم يكـن على عِلْـمٍ بهـذه التجاوزات، بينما يُؤكّد البعض الآخر أنّه كان عليه تحمّلها رغماً عنـه. وقـد كتـب المتقدم في الكهنة الأب ج. شافلسكي يُعبّر عن رأيه في هذا الموضوع فقال:

"إنّ سـراج الأب يوحنـا الروحـي أفـاض بنـور على امتـداد روسـيّا كلّهـا وانسكب خارجها. أمّا في كرونشتادت نفسها فقد كانت النفوس باردة ومظلمـة. والمدينة امتلأت بشكل متواصل بالمؤمنين الورعين الذين قدموا لمقابلة الأب يوحنـا، فكثرت فيها أعمال الخير والإحسان. فعمدَ صغار النفوس إلى استغلال الوضع لجني الربح الرخيص، فكـانوا يلازمـون هـؤلاء الحجـاج يـأخذون منهـم المـال لأجـل أن يتـدبروا لهم موعداً أكيداً مع الأب يوحنا في أقرب فرصة ممكنة. أمّـا الأب يوحنـا، إذ كان مستغرقاً في الصلاة ومُحَمَّلاً أحمال الناس المتعَبة القادمة إليه، فلم يكن على علم بما كان يجري من وراء ظهره. ولمْ يكن باسـتطاعة أحـد أن يضـع حـداً لهـذه الظاهرة القبيحة".

بالإضافة إلى وجهة النظر هذه نضيف أخرى أوردها أحد كـتّاب سيرته في صحيفة "نيفا" سنة ١٨٩٢:

" كثيراً مـا تتنـاهى إلى مسـامعنا احتجاجـات واعتراضـات تـتناول مراكـز استضافة الحجاج القادمين إلى كرونشتادت. قولوا لي: كيف يمكن أن يسمح الأب يوحنا بأن يتاجر البعض بلطفه ومساعدته؟ نعم، لقد كان على علـم بذلـك وسـعى إلى مواجهة هؤلاء، ولكن من أين له القوة ليتمكن منهم طالما أنّ الحُجـاج أنفسـهم كانوا يقفون إزاء محاولاته. فكلّما تمكن من أحـد المسـتغلين كـان الحجـاج يلتفّـون حوله ويتوسلون إليه أن يسامحه، بينما كان المذنب يجثو على ركبتيه باكياً طالباً منـه المسامحة".

ترى ما كان هدف هؤلاء القادمين إلى كرونشتادت؟ غايتهم لم تكن واحدة. فالبعض شدّته رغبته في شفاء أحد الأقرباء بصلوات الأب يوحنا، البعض الآخر حملته التوبة أو السعي إلى ترتيب حياته من جديد، وقسم حملته الرغبة في إيجاد حل لظروف معيشية صعبة، وآخرون حملهم العطش إلى كلمة معزّية وإلى قول يثبتهم في الإيمان، وعدد منهم كان يود الحصول على مساعدة مادية لأجل ذاته أو لأجل آخرين. وقد وُجد مَنْ رغب في الحصول على بركة الأب يوحنا للمُضيّ في عمل ما أو أتى لشكره وللتعبير عن عرفان الجميل للمساعدة التي لقيها بشفاعة صلواته. وأيضاً بادره الكبار والصغار الذين رغبوا في أن يعطوه شخصيّاً تقدمات إمّا عينيّة أو مالية أحضروها إليه لأجل الفقراء، وإمّا أدوات مختلفة للكنيسة. وأحياناً كانوا يقدّمون له هدية شخصيّة.

وعلى الرغم من وجود مجموعة المستغلّين من صغار النفوس، كما أشرنا سابقاً، إلاّ أنّ المدينة ازدحمت بنفوس وفدت إليها أغلبها عطشى للنور. وقد عانى الأب يوحنا، وهو في هذا الوضع، من أمور كثيرة لم يكنْ يرغب بها. وحتى لو افترضنا أنّه، في بعض هذه الظروف والأوضاع، لم يكن ينتبه الشر الحاصل أو يلاحظه، فلا بُدَ لنا أن نعي أنّ الأشخاص في مثل قامته الروحيّة يتطلعون إلى الشر الذي يقوم به الآخرون بمنظار مختلف. فهم يرون، في كلّ إنسان، النور الحقيقي مهما خَفَتَ بريقه في الظلمة، ويرجون، بالصبر والثقة، سطوع هذا النور فيهم إلى أجلى بيان.

من البديهي القول أن هؤلاء الحجاج كانوا ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، وإلى أعمار مختلفة، من طلاب المدارس الذين كانوا يسألون عن الصلاة لتوفّقهم في الامتحانات، إلى الأشخاص المتقدّمين في السنّ. ومهما تعددت طلبات الناس واختلفت، فإنّه من الصعب ألاّ نوافق قول الكاتب رازانوف الوارد في "نوفو فرميا" في ٢١ كانون الثاني ١٩٠٨:

"إنّ المسيحيين، في معظم الحالات، لم يلتجئوا إلى كرونشتادت لأسباب مادية أو صحيّة. وفدوا إليها بشكل رئيس ليتعرّفوا على ذلك الشاهد الحيّ

للحقائق الإلهية، مَنْ شهادَته كانت تشكّل بالنسبة لهم تأكيداً على وجود الله كحقيقة وواقع يفيضان خيراً وصلاحاً وقداسة".

-٥-

كما ذكرنا سابقاً، كان الأب يوحنا يقوم بزيارة الحجاج في الفنادق التي نزلوا فيها، وذلك بعد انتهائه من القداس الإلهي. وإليكم شهادة عن تلك الزيارات نوردها، بشكل مختصر، كما وردت في إحدى الصحف سنة ١٨٩٢ تحت عنوان "عند الأب يوحنا كرونشتادت":

"كل شيء في فندق "مترونا ماركوفنا" لبس حلّة العيد. الأب يوحنا قادم بعد قليل. جرى ترتيب كل الغرف حتى أدق التفاصيل، كل شيء كان يبرق، حتى وجوه الحجاج المحيطين بي وقد اجتمعوا في الردهة الكبيرة. النساء عددهنّ كبير وقد فاق عدد الرجال الحاضرين، والأغلبية من الشعب البسيط وقد ارتدوا أبهى ثيابهم. الرجال السبعة كانوا على الوجه التالي: أحدهم تاجر، الآخر جنديّ، آخران من البحرية، ممثل، موظف حكومي مع ابنه وهو طالب في المدرسة. أما مركز الانتباه فكان مترونا ماركوفنا.

بدت كقائد، بل قلْ كأم لجميع الحاضرين، كقبطان السفينة. في الخارج وقفت امرأة تراقب تحركات الأب يوحنا وتنتظر وصوله لتعلن قدومه. وما هو إلاّ قليل حتى علا صوت مترونا يعلن وصول الأب يوحنا: "ها هو قد وصل". بعد قليل دَخلَت غرفتي الملاصقة للردهة الكبيرة وبادرتني بقولها: "الأب يوحنا سيأتي ويراك دون أدنى شك". ألقيتُ نظرة إلى ساعتي وإذا هي قد بلغت الساعة الثانية والنصف، وما هي إلاّ عشر دقائق حتى فُتِحَ الباب ودخل الأب يوحنا. بدا رشيقاً، يميّز محيّاه نظره الثاقب. يشعر المرء بقربه بعبير روح ملأتها الصلاة. دخل عليّ وبادرني قائلاً: "حسناً قل لي كل شيء". وهذا ما فعلت. فصلّى الأب يوحنا وصار يتحدث إليّ. ما أدهشني هو فهمه العميق لما كان يجول في قلبي ويَعتَمِرُهُ. نعم، إنّ راعي كرونشتادت، وبينما يراني لأول مرة، صار يحدثني كمَنْ يُحدّث من

عاش معه لعشر سنين. في نهاية الحديث قبّلني وقال: "أشكر لك ثقتك يا عزيزي! لأجل ثقتك أشكرك".

لا أدري كيف بدت هذه العشرون دقيقة مع الأب يوحنا بالنسبة للمنتظرين في الردهة. لا بُدَ أنّها كانت فترة طويلة بالنسبة لهم!... في نهايتها فُتِحَ الباب وارتفع الضجيج ولاحت رؤوس مختلفة. السيدة مترونا بحركة من يدها أشارت على الجمع أن يتراجع، ثم أغلقت باب الغرفة بعد أن دفعت إلى الداخل شاباً يافعاً وتوجهت بالحديث إلى الأب يوحنا:

ـ يا باتوشكا، هذا الشاب هو ابن أختي وهو إسكافيّ. لا يكفّ عن الشرب، يقول إنّه لن يكفّ عن ذلك حتى يقبل الأب يوحنا أن يأخذ له قياس رجله حتى يصنع له حذاءً.

ـ أتقول الحقيقة؟ سأل الأب يوحنا الشاب اليافع. وبدل أن يحصل على إجابة، ارتمى الشاب أمام قدميه باكياً. فما كان من الأب يوحنا إلاّ أن بادره بكل محبة: هيّا ماذا تنتظر لتأخذ القياس؟

بعد قليل دخلت سيدتان وفي يد كل واحدة صندوق: الأول حوى أشغالاً مطرزة للأواني المقدسة والثاني أشغالاً للمائدة المقدسة. فباركهما الأب يوحنا قائلاً:

ـ أُختيَّ، أشكركما. لكنّ كنيستنا ليست في حاجة إلى شيء. فهل ترغبان في أن ترسل أشغالكما إلى قرية فقيرة؟

ـ ما تراه مناسباً، أجابت السيدتان.

ـ إيفان، نادى الأب يوحنا. خذْ هذه الأشغال إلى القرية التي تحدثنا عنها البارحة.

ثم ارتفع من الجمع صوت يناديه: "باتوشكا، ألَنْ تأتي إلينا؟"

فتوجه الأب يوحنا على الفور ناحية الجمع المنتظر خارج الغرفة، فتقدم منه الموظف الحكومي وسأله أن يبارك ابنه لأجل السنة الدراسية القادمة. فبادر الأب يوحنا الولد:

ـ أهنّئك لما حصّلته في مادة الرياضيات.

ـ نعم، إنّها الحقيقة، أجاب الوالد متعجّباً. إنّه مميز في مادة الرياضيات.

ثم باركه الأب يوحنا ثلاثاً مسدياً إيّاه بعض النصائح. شعر الصبي نفسه محظوظاً، وما أن انتهى الأب يوحنا حتى اهتزت نفس الصبي وكرّت على وجهه بعض العَبَرات، كذلك أيضاً فعل والده.

تدافع الجمع فجأة، فوجد الأب يوحنا نفسه في زاوية الغرفة. ولم تنفعه كل محاولاته لحَمْل الجموع على الهدوء. من هذه الجهة امرأة تحاول أن تعطيه رسائل من الأقارب المرضى، من تلك الجهة أحدهم يحاول أن يعطيه خمسة روبلات حتى يصلّي لأجل أحد المتوفّين... لو لم تتدخل السيدة مترونا لكان الأب يوحنا في وضع صعب للغاية. وهي نجحت في النهاية في تخليصه من هذا التدافع وتوجّهت به إلى المائدة حيث جرى تحضير الشاي. وكان إيفان، في هذا الوقت، يهتم بالجمع، يسجّل الأسماء التي يريدون ذكرها، والتقدمات التي أحضروها فيسأل كلّ واحد عن سبب تقدمته.

لم يَكَدِ الأب يوحنا أن يمسك فنجان الشاي حتى بلغ الجمع المائدة وكاد يقلبها لشدة التدافع. فترك الأب يوحنا الفنجان من يديه وأَومَأَ إلى إيفان مشيراً إلى المخرج. لحق به الجمع، أمّا هو فكان عليه اجتياز المطبخ والممر ومن ثم الحديقة حتى يتسنى له الوصول إلى عربته. كان يرفع يمينه مباركاً يميناً ويساراً، مجيباً بسرعة عن بعض الأسئلة. ساعده إيفان على الصعود إلى العربة بسرعة وأشار على السائق أن ينطلق بسرعة. ولكن كل هذه العجلة لم تمنع أحد المتسوّلين من الجثو عند قدمي الأب يوحنا، وإحدى النساء، وقد غطت العبرات وجهها، من التمسّك بالعربة.

-٦-

هناك العديد من الأوصاف التي تناولت زياراته هذه وهي تبرز تنوّع أحزان الناس في كل أرجاء روسيّا وضيقاتهم. لكن كان من المستحيل على الأب يوحنا أن يوفّر العون الإلهي لكل هؤلاء لو لم يكن هو نفسه إناء للنعمة الإلهية. سنورد

باختصار، في ما يلي، بعض النماذج عن أوجاع الناس كما تجلّت في زيارة له لأحد الفنادق.

أول النزلاء كان التاجر تيخونوف. صرف مال ربّ عمله دون أن يدري، فعوقب عقاباً صارماً. فأسرعت زوجته وأنقذته من الورطة التي وقع فيها وقَدِمَت به إلى كرونشتادت وقد فقد نصف عقله.

النزيل الثاني قروّي احترقت أرزاقه ثلاث مرات، مصيبته دفعته إلى مراجعة تصرفاته. صلّى، فإذا به يرى، في حلم، الطريق المؤدّية من جنوب روسيّا، حيث يقيم، إلى مدينة كرونشتادت. وشاهد في الحلم محطات متعددة، وبعدها شاهد كنيسة القديس أندراوس ثم الأب يوحنا نفسه. ولمّا انطلق في رحلته تَيَقّن أن كل ما شهده في الحلم هو حقيقة.

النزيل الثالث كان ينتمي إلى طبقة النبلاء ويملك أراضيَ كثيرة. في البداية كان كثير القساوة لكنّه، بعد مقابلته الأب يوحنا، صار وديعاً ومحباً للبشر.

النزيل الرابع، فلاّح يدعى كوليبكا، أراد أن يهجر أباه السكّير لكنّه أجّل اتخاذ قراره مدة سنة بعد استماعه إلى نصيحة الأب يوحنا.

بعد أن انتهى الأب يوحنا من خدمة البراكليسي، توجه نحو الجمع المنتظر هناك، فاقترب من صَبيَّةٍ مختلّة عقلياً رحّبت به بالشتائم والكلام البذيء.

ـ انظري إليّ! قال الأب يوحنا.

ـ لا، لا،... لا أريد.

ـ لكنّ المسيح يريد ذلك. توقّفي عن الاضطراب وانظري إليّ.

فالتفتت الصبيّة وحدّقت بالأب يوحنا. فأشرق وجهها وقالت له:

ـ أنت إنسان جيد. لماذا شتمتك؟

فتناول الأب يوحنا رأسها بهدوء وأماله إلى صدره قائلاً:

ـ أترغبين في المناولة؟

ـ نعم، أرغب.

ـ يا أختي، حاولي أن تستعيدي صحتك. صلّي إلى الله وجاهدي إزاء الأفكار السيّئة.

بعد ذلك أتى دور الفلاّح كوليبكا.

ـ كيف تسير صعوباتك مع والدك؟

ـ كلّما مرّ الوقت كلّما خَفّت، الفضل لصلواتكم.

ـ لا تَنْسَ "أن تحملوا بعضكم أثقال بعض".

ثم اقترب من القرويّ الذي احترقت أرزاقه. أشاح به جانباً إلى زاوية الغرفة، وراح يتحدث إليه بصوت خافت، بينما الدموع تغطي وجه القرويّ.

ـ تذكّر ما قلته لك سابقاً....

فتذكّر القرويّ الحلم والكاهن والكلمات التي قالها له. وأخيراً أتى دور تيخونوف.

ـ لماذا تبكي؟ سأله الأب يوحنا.

فراح تيخونوف يقصّ قصته وكيف أنه قرّر أن يرمي نفسه من القطار في طريق العودة.

ـ كيف يمكنك أن تنسى أيوب الصدّيق ومعاناته الطويلة، أجاب الأب يوحنا. الله يمتحن إيمانك.

فتوقف تيخونوف عن جَلَبَتِه، وبقي هو وزوجته يبكيان بصمت.

ـ٧ـ

بعد افتقاده مَنْ كان بانتظاره في كرونشتادت، وذلك على قدر الإمكان، كان يذهب إلى مدينة بطرسبرج، تقريباً بشكل يومي. في الصيف بواسطة الباخرة، وفي الشتاء بواسطة العربة والقطار. من البديهي قوله أن تنقّله بالباخرة كان

يصعب مع مرور الزمن بسبب الحشود التي كانت تنتظره على رصيف المرفأ. لم يكن الوضع أفضل على متن الباخرة، فكانوا يخبئونه في حجرة منفردة أو في مقصورة القبطان. وفي وقت لاحق، وهَبَهُ أحد التجار، السيد موتيف، باخرة صغيرة تدعى "الحبيب"، فكان يستعملها في أسفاره.

كان من عادة الأب يوحنا، متى صعد إلى الباخرة، أن يلقي نظرة إلى عناوين الجرائد، وغالباً ما كان يغلبه النوم. وقال أحد كتّاب سيرته:

"ليس علينا أن نخفي أنّه كثيراً ما كان يتعب وكان يشكو في بعض الأحيان من الإرهاق ويشعر نفسه منهك القوى. لكنّه كان يعتبر هذا لحظات ضعف وقلة إيمان بالله. فكان يتوب عن ذلك مصلّياً أمام الأيقونات في الكنيسة. وصفحات كثيرة من مذكراته تعكس توبته هذه وتعبّر عنها".

كان الطريق إلى بطرسبرج يستغرق ساعة ونصف الساعة. وعلى رصيف الميناء هناك كانت تنتظره جموع غفيرة وفصيلة من الشرطة. والكثيرون من محبيه كانوا ينتظرونه بعرباتهم، وكان هؤلاء يتشاجرون في ما بينهم في مَنْ سيحظى بشرف قيادته في عربته!

كان يحمل معه في زيارته لبطرسبرج صليباً وبطرشيلاً وإنجيلاً وفي الكثير من الأحيان الأسرار الطاهرة للمناولة. جولته كانت تتمّ وفق برنامج معيّن، فكان يبدأ مع أكثر الناس مرضاً. في بعض الأحيان كان يشارك في بعض الأعياد الكبيرة، أو في افتتاح بعض المشاغل أو المصانع.

وعند دخوله أحد المنازل اعتاد أن يبادر الحضور بالكلمات الإنجيلية: "السلام لهذا البيت". وقبل أن يرتل البراكليسي، كان يجثو على ركبتيه ويصلي لبضع دقائق بصمت، ثم يقول:

"هيّا لنصلّي. الرب أكّد للرسل أنّه إن اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون في وسطهم. وهنا نحن كثر قد اجتمعنا، فإنْ كان اجتماعنا بإيمان ومحبة فإنّ الرب، على وجه التأكيد، سيكون بيننا".

وعند انتهائه من الصلاة كان يضيف صلوات خاصة عفوية، ثم يرشّ المكان بالمياه المقدسة.

كان يقبل دوماً أن يبارك مائدة الطعام متى دُعيَ إلى ذلك، لكنّه كان يأكل قليلاً جداً. أحد كتّاب سيرته يلاحظ قائلاً:

"يقولون أنّ الأب يوحنا نادراً ما كان يتناول طعام الغذاء أو العشاء في بيته على مدار السنة. فأين كان يأكل؟ في كل مكان ولا في أي مكان! في كل وقت ولا يأكل أبداً! في أَحَد البيوت يتذوّق قليلاً من الفاكهة، في البيت الآخر كوباً من الشاي، في مكان آخر قطعة الخبز".

-٨-

كلّما دخل بيتاً، كان عليه أن يزور كل الغرف، حتى أقبية الفقراء والمُعدَمين. والجموع التي كانت تنتظره في محطة القطار، في فصل الشتاء، أو على رصيف الميناء في فصل الصيف، كانت تقذف برسائلها نحو نافذة المقصورة. فكان يلتقطها ويقرأها ثم يأخذ قسطاً من النوم. في المساء عند عودته بالباخرة كان يصلّي صلاة المساء. وكان يَصل إلى بيته بعد منتصف الليل. وقبل أن تدق الساعة الخامسة من فجر اليوم التالي كان ينهض لتلاوة صلاته الصباحية.

-٩-

حتى في البيت كان العمل بانتظاره: رسائل، تحضير أحاديث وعظات، تدوين يوميات. أمّا إذا حضر إلى البيت في وقت مبكّر بعض الشيء فكان يستقبل أحد الزوار.

يخبرنا الأب إيلينسكي أنّه لمْ يستطع أن يرى الأب يوحنا أثناء زيارته أحد الفنادق، فقصده ليلاً في منزله. فرأى الجمع محتشداً أمام منزله:

"تبعتُ الأب يوحنا والجمعُ يلحقُ بنا. وعندما هَمَّ بصعود السلّم المؤدية إلى شقّتَه أحاط به عدد من طلاب المدارس سائلينه بركته. أحد الطلاب قال له:

ـ باتوشكا، باركني. عندي امتحان غداً.

ـ باركني أنا أيضاً، يا باتوشكا. أنا أيضاً أقدم امتحاناً.

ـ وأنا أيضاً، وأنا أيضاً. عَـلَـتْ الأصوات من مختلف الجهات.

وتحدث الأب يوحنا إلى الطلبة. علاقته بهم كانت ودّية للغاية. صعدنا بعدها إلى شقة الأب يوحنا وكانت في الطابق الثاني. أثاث الغرفـة متواضـع، يشبه أثـاث منزل أي كاهن ريفي. عندما خلع الأب يوحنا عنه معطفه بدا أصغر مما هـو عليـه، كان عمره سبعين عاماً. عيناه الزرقـاوان تشـعّان نـوراً، قـدّم لـي الشـاي ومشـروباً اسبانياً قائلاً: "خذْ، إشرب. إنّه جيد لصحتك!". قضيتُ عنده أربعين دقيقة. وقبـل مغادرتي دعاني لمشاركته القداس الإلهي. فأجبته أنّـي لـم أحضـر صـلاة الغـروب، فـرَدّ عليّ: "لا يهم ذلك".

الفصل التاسع عشر

أسفار الأب يوحنا

-١-

إنّ صياغة تقرير شامل عن رحلات الأب يوحنا تتطلّب تَقَصّياً وتحريات خاصة، لكننا سنكتفي بعرض أشهرها بطريقة عامة. كان يقوم ببعض الرحلات بشكل متواتر. ففي السنين الأخيرة من حياته كان يزور موسكو شهرياً، وبعد سنة ١٨٨٨ كان يقوم، سنويّاً، بزيارة مسقط رأسه، سورا. كان يقوم برحلات خاصة إلى فورونيج، خاركوف، كييف، كورسك، أوديسا، فرصوفيا وبرلين، بالإضافة إلى أسفاره الكثيرة على نهر الفولغا، وزيارته للقرم حين إصابة القيصر ألكسندر الثالث بمرضه المميت.

حُفِظَ الكثير من التفاصيل عن رحلته إلى خاركوف سنة ١٨٩٠ وهي تشكل نموذجاً لأسفاره الأخرى. البيان الشامل للرحلة يُظهِر اتساع شهرته في أرجاء روسيّا كلها، والحِمْل المترتّب على ذلك. فبعد رحلته هذه، صار الناس يتكلمون عليه ويدعونه راعي روسيّا كلها.

-٢-

وبينما كان القطار يقترب من وجهته، خاركوف، كان الناس قد احتشدوا في كل مكان من المحطة. وإذ تعذّر نزول الأب يوحنا في مثل هذا الوضع، حُوّلت مقطورته إلى خط حديدي فرعي.

عرج الأب يوحنا قبل زيارته المدينة، على أملاك قريبة لأحدهم يدعى رزوف. لكنّ هذا لم ينقذْهُ من الجمع المحتشد. ففي ثلاثة أيام، كان الجمع قد قضى على كل ما حَوَتْهُ هذه الأراضي من أزهار وخضار لشدة تدافعها. هناك زاره حوالى مئة ألف شخص، بمعدل سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف شخص يومياً. وقد أُضيف إلى القطارات عشر إلى اثنتي عشرة مقطورة لخدمة أولئك اللذين كانوا يرغبون بمقابلته. وكانت تَحضَرُ يومياً من مركز المدينة قوة من الشرطة للحفاظ على النظام. وقد سَرَتْ بين الحشود روايات لا تنتهي عن قوة صلاته الشفائية:

"هذا أنقذ زوجتي، يعترف أحدهم. الأطباء قطعوا كل أمل، أرسلنا له تلغرافاً إلى كرونشتادت فصلّى من أجلها فتعافت".

"هذا أنقذ والدي" يخبر آخر. "ابني" يقول ثالث. يبدو أنّ شهادات مثل هذه لا نهاية لها.

منذ حضوره إلى خاركوف، ملأت الجموع المنطقة المحيطة بمكان إقامته. حملوا إليه الأطفال والمرضى والمعاقين راجين منه أن يضع يده عليهم.

بعد دعوة من أمبروسيوس، رئيس كهنة خاركوف، أقام القداس الإلهي في كاتدرائية المدينة. وكان يخدم معه كل كهنة المدينة.

"إنها فوضى كبيرة وليست خدمة إلهية" على حسب ما علّق أحدهم. بلغ تدافع المصلّين حداً اضطر معه المرتلون أن يخلوا أماكنهم وينتقلوا إلى الهيكل للترتيل من داخله. الدورة الصغرى والدورة الكبرى حصلتا داخل الهيكل، أمام الباب الملوكي. تمكن الأب يوحنا من الخروج بصعوبة بالغة. الساحة وكل الطرق الرئيسة والجانبية امتلأت حتى لم يبقَ مكان للوقوف. ولأجل ذلك لم يكن بمقدور الأب يوحنا إقامة أي قداس إلهي في الكنائس التي دُعيَ إليها.

قَبِلَ، مرة واحدة، دعوة رئيس الكهنة إلى إقامة صلاة البراكليسي في ساحة الكاتدرائية. يستحيل على المرء أن يصف الجموع المحتشدة، وهي انتشرت حتى على سطوح الأبنية. قُدّر عددهم بحوالى ستين ألفاً. غنيٌّ عن القول أن مثل هذه المشاهد كان يتكرّر في كل المدن الأخرى التي زارها الأب يوحنا.

-٣-

سنة ١٨٩٣ قام برحلة إلى كييف. كاتب سيرته الأب المتوحّد مخائيل يورد في حديثه عن هذه الزيارة أحداثاً مشابهة للتي حدثت في خاركوف ويستشهد بقول للأستاذ سيكورسكي:

"وإذ كان الأب يوحنا يتأمل الطبيعة كان يغرق في الصلاة والتسبيح.... كانت أفكاره تذهب به إلى خلق الكون.... كان من طبيعته أن يسرح في جو شاعري في كل ما يمتُّ بصلة إلى الجمال الحقيقي، أكان في الطبيعة، أم في التاريخ، أم في الإنسان".

"بقيتُ بقربه طيلة ثلاثة أيام على التوالي وتسنّت لي فرصة أن أراقبه عن قرب في أوضاع مختلفة. أستطيع أن أؤكّد أنّ الأب يوحنا كان يعيش طيلة النهار تقريباً بحيوية روحية بلغت حداً كبيراً، وهذه تجلّت بأشكال مختلفة: صلاة ذهنية، صلاة عفوية... هذان الاندفاع والزخم الروحي، يَنْدر العثور عليهما عند عامة الناس، كانا بالنسبة له أمراً اعتيادياً".

"مهما تعددت الأوضاع الخارجية وتقلّبت، كانت دوماً تجده مُتهيئاً لها. كان يواجه كل شيء باستعداد روحي عجيب. كان يتميّز بالصدق والوداعة ومحبة للإنسان كبيرةٍ".

أثناء زيارته تلك لكييف، في إحدى المرات التي احتشدت فيها الجموع حوله والتفّت عليه، أشاح الأب يوحنا جانباً وتوجه نحو سيدة وراح يتحدث إليها معزّياً إيّاها. بالفعل كانت هذه السيدة تعيش في تلك الأثناء ظروفاً صعبة لم تكشفها لأحد على الإطلاق، وهي إلى ذلك لم تكن قد التقت سابقاً الأب يوحنا! كثيرون رأوا في هذه الحادثة تجلّياً لحَدسِه الروحي.

زيارته لأكاديميّة كييف اللاهوتيّة يصفها لنا الأب إيلينسكي. أوضاع الأكاديميّة الخُلقيّة كانت في تلك الفترة على درجة كبيرة من الانحطاط ، وهو يخبرنا عن ذلك فيقول:

"الطلاب بشكل عام كانوا متمّمين لشروط إدارة الأكاديميّة ومتطلّباتها، لكن تصرفاتهم واستعداداتهم الداخلية لم تكن مناسبة... فقد وصل بهم الأمر إلى أن يجلسوا على الأرض في الكنيسة أثناء إقامة الخدم المختلفة وأن يقرأوا الجرائد أو أن يتجاذبوا أطراف الحديث. وفي بعض الأحيان كانوا يختلقون أقاصيص تستند على حوادث من الكتاب المقدس. كانوا شديدي التحسّس بعضهم تجاه البعض الآخر، والكل يشتبه بالآخر. بشكل عام، لم يكن أحد يعترف بصدق الآخر أو بنيّته الحسنة. التناقض بين كلام المربّين وأفعالهم في عملهم التربوي مع الطلبة، جو التباهي والادعاء... كلّ هذا ولّد عند الطلاب إحساساً بالتشاؤم والانحلال. وولّدَ الوضعُ الانتهازيةَ في نفوسهم. وفي تلك الفترة كان عدم التفاهم سائداً بين الطلبة وإدارة الأكاديميّة. ورُجّحَ أنّ الأب يوحنا قد لا يرغب بزيارة مثل هذا المكان الذي تعمّه بالفوضى، أمّا هو فلم يتردّد بالقيام بها. كنّا ننتظر رجلاً محاطاً بالجلالة والأبّهة، لكننا شعرنا على الفور أنه لم يكن غريباً عنّا. وتوجّه إلى الطلاب قائلاً: "كيف حالكم يا رفاقي الطلبة؟ أشعر بالفرح لرؤيتكم". ثم تحدّث عن الأرثوذكسية، عن القيصر، عن المجمع، عن ضرورة حفظ وصايا الكنيسة. كان يتحدث بصوت مرتفع، بعجلة وحيوية، متفوّهاً بكلّ كلمة بوضوح. الإصرار وقوة الإقناع كانا بارزين في حديثه. لم يكن يمتلك موهبة الخطابة. كان يتوقف بعد كل جملة ليختار الكلمات المناسبة لحديثه. في ختام حديثه شكرنا لثقتنا وعبّر عن فرحه لرؤيتنا وشعر نفسه محظوظاً لقيامه بهذه الزيارة".

"رغم ذلك فقد تملّك التشاؤم قلوب الطلبة. فهم، إذ كانوا أثناء الحديث قد انجذبوا لمناخه الروحي، ما لبثوا أن تركوا العنان لتحاليل واستنتاجات وخيمة. فقد سادت الأفكار عن تردد الأب يوحنا على الطبقات العليا من المجتمع وعلى الأغنياء، وعن كونه قاسياً وغير ودّي على الإطلاق وذا اهتمامات دنيوية. والبعض عبّر عن امتعاضه من تقبيل الأسقف يد الأب يوحنا. بالطبع كانت هناك جماعة أخرى تركت فيها زيارته انطباعات لا تمحى، لكنّها لزمت الصمت".

بين هذه الجماعة يُصنّف الأب إيلينسكي نفسه كاتب هذه الشهادة. و هو قام في وقت لاحق بزيارة الأب يوحنا في كرونشتادت، كما أوردنا في نهاية الفصل السابق. وفي وصفه لزيارته هذه يخبرنا عن انطباعاته:

"البساطة تسود علاقته بالآخرين. و لا تستطيع أن تجد في تصرفاته أثراً للترفّع. علاقته بالآخرين كانت تشبه إلى حد كبير علاقة الأب بعائلته، أو علاقة المتقدم والمسؤول بمعاونيه الملتزمين عملاً عظيماً وعلى جانب كبير من الأهمية".

- ٤ -

سافر الأب يوحنا، مرات كثيرة، عبر نهر الفولغا في السنوات ١٨٩٣، ١٨٩٤ و١٩٠٧، وزار كل المدن والقرى الواقعة على ضفاف هذا النهر.

في مدينة سراتوف كان على رأس مستقبليه الحاكم ووجهاء المدينة، وبصعوبة بالغة تمكن من الوصول إلى مركز الأسقفية لشدة تزاحم الحشد. بارك الجمع من على الشرفة. وأثناء القداس الإلهي لم تكتظ الكنيسة فقط بالمؤمنين، بل إمتلأت بهم ساحة المدينة. بعدها زار في المدينة بيت العمال الذي جرى تنظيمه على النمط المتّبع في كرونشتادت. في تشييعه اصطفّت فرقة عسكرية على رصيف المرفأ بينما كان الحشد يهتف: "نشكرك لمجيئك! نتمنى لك العمر المديد!".

في مقاطعة سراتوف، قصد قرية ألكسييفكا حيث كثر الهراطقة وجماعة المؤمنين القدامى. ألقى حديثاً توجّه فيه بشكل خاص نحو هذه الجماعة. وعند الإنتهاء من القداس الإلهي، تحدّث داخل الكنيسة مع رئيس جماعة المؤمنين القدامى وتمكن من أن يَهديه إلى الأرثوذكسية.

قام الأب يوحنا بزيارات مشابهة لمدن أخرى. في مدينة سيمبرسك، موطن كاتب سيرته الأب مخائيل، رَست الباخرة في منتصف الليل. الحشد المنتظر على الرصيف كان غفيراً. وبعد مباركته إياه، انسحب الأب يوحنا إلى مقصورته. أمّا الحشد فقد أمضى قسم كبير منه الليل على الشاطئ هناك.

في الصباح، ألقى الأب يوحنا كلمة في الجمع. الأب مخائيل، وكان بعد علمانيّاً شبه ملحد، يصف لنا كلمته تلك والصدى الذي تركته في نفوس مستمعيه:

"كان يتحدث بصدق وبساطة. قال أنّه سعيد برؤيتنا ويدعو لنا بكل خير

وصلاح، ومحظوظ ذاك الذي يتيقّن من إيماننا بالله... تأثر الشعب كثيراً. العيون ملأتها دموع الفرح... وأنا شعرت في تلك اللحظة أني ولِدتُ من جديد... لم يكن ممكناً أن تأخذ الأمور منحى مختلفاً. نظرة الأب يوحنا، كلمته، دموع الفرح في عيون الناس،... كل هذه كانت بالنسبة لي دليلاً قاطعاً على الإيمان بالله وجلاء الحقيقة المسيحية وقوة الكنيسة".

المرة الثانية التي رآه فيها الأب مخائيل حصلت أثناء مباركته الشعب من على شرفة بيت المحافظ:

"أذهلني الغياب الكلّي لأي نوع من أنواع الترفّع والتصنّع. على محيّاه لا ترى سوى تعابير البساطة والعاطفة الأبوية. وأتذكر جيداً أنّي قلت لصديق لي بينما كنت أبتعد عن الشرفة: إنّه بسيط بالكلّية. حتى عشرات الآلاف من البشر عاجزة عن حمله على التباهي والتفاخر، هذا يعني أنّه رجل عظيم جداً!".

وسنة ١٨٩٢، قصد مدينة كورسك بعد تلقّيه دعوة من الأسقف يوستين، وكان صديقه على مقاعد الدراسة. استقبله في محطة القطار، وعندما اشترك معه في إقامة الذبيحة الإلهية في الكاتدرائية، احتشدت المدينة كلها هناك.

- ٥ -

كان يقصد مسقط رأسه، سورا، مستخدماً باخرته "القديس نيقولاوس". كان يجتاز بها الأنهار والبحيرات، وكانت تنكشف له أثناءها مناظر طبيعية خلاّبة وساحرة: صخور شاهقة، أماكن تغطيها غابات عذراء... وكان يكرر دوماً أنّه يجد راحته على متن الباخرة. ويحدّثنا أحد مرافقيه فيقول:

"لم يبقَ عاطلاً عن العمل، أحياناً كان يقرأ الإنجيل، مرات قليلة فقط كان يتمشى على سطح الباخرة متأمّلاً المناظر الطبيعية المنتشرة على طول الطريق. وإذا وقع نظره على مشهد خلاّب لم يكن يتأخر ليدعوني لرؤيته. كان يتوقف كل يوم في إحدى الأماكن التي تعبر بها الباخرة ليقيم القداس الإلهي".

كثيراً ما كانت أسفاره تأخذ منحى النصر والظفر. قرى بأكملها، من الصغير فيها إلى الكبير، كانت تخرج لملاقاته. وأكثر ما كان يُحرّك مشاعر الأب

يوحنا استقبال أبناء قريته له.

حضوره إلى سورا كان مصدر فرح للجميع وخصوصاً لأختَيْه المتقدمتين في السن وأولادهما. في الدير النسائي الذي شيّده هناك كانت تعيش مئة وعشرون راهبة. وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخاً كان يوجد إسقيط نسائي.

كنيسة القديس نيقولاوس التي شيّدها كانت تبدو من مسافة بعيدة. أبناء سورا كانوا منذهلين لهذه الكنيسة التي بناها على قبر والده. وفي المدرسة التي أسّسها، كانت الطالبات الأربعون يرتدين لباساً مماثلاً للباس المؤسّسات التعليميّة العليا. كان الأب يوحنا يهديهنّ أناجيل صغيرة، كتب صلوات وكتباً دينية أخرى.

أحاديثه في سورا كانت تأخذ طابعاً بسيطاً. الجميع كانوا يعتبرونه شخصاً بسيطاً قريباً، وجهاً مألوفاً محبباً. "ابن البيت". أينما دخل، كان أهل البيت يطلبون مشورته ومعونته في المشاكل التي يواجهونها. كانوا يكنّون له محبة كبيرة واعتادوا أن يُطلعوه أيضاً على كل مقتنياتهم الجديدة.

في إحدى المرات، في طريق عودته إلى كرونشتادت، توقّف عند قرية كانت تعاني من الجفاف القاسي. السهول المحيطة بها كانت تشتعل من شدة الحر. نزل الأب يوحنا من الباخرة وشرع يصلّي البراكليسي. وقبل أن ينتهي، التحفت السماء بالغيوم وما هي إلاّ برهة حتى هطلت الأمطار الغزيرة!

كثيراً ما كان يمر بالدير النسائي في ليوشينسكي الذي يقع قرب مدينة تشربوفتش. رئيسة الدير، الأم تايسيا، كانت ابنة روحيّة له، وقد كتبت سيرة ذاتية حَوَتْ فصولاً عديدة مخصّصة للأب يوحنا. وكثيراً ما كان الأب يوحنا يجمع راهبات الدير لدراسة الكتاب المقدس وتفسيره.

وأثناء رحلاته الشهرية إلى موسكو اعتاد إقامة الذبيحة الإلهية في كنيسة رقاد السيدة العذراء، وزيارة المرضى. كان يسافر بالقطار الليلي السريع، وهذا لم يمنعْ عدداً كبيراً من الناس من أن يجتمع في بعض المحطات الكبيرة.

من موسكو كان يذهب إلى لافرا الثالوث القدوس للقديس سرجيوس حيث كان يتفقّد أكاديميّة موسكو اللاهوتيّة. ومن مذكرات الأب تشتفريكوف ما

يصف لنا كيفية إقامة الأب يوحنا القداس الإلهي في اللافرا. وهو يصف لنا كيف التقاه للمرة الأولى:

"اجتمع في منزل آل خلوتوفيغ عدد من الأقارب والأصدقاء. بعد صلاة البراكليسي المعتادة، دُعيَ الأب يوحنا إلى المائدة لاحتساء الشاي. عندها انتهزنا الفرصة واقتربنا منه وسألناه بركته. بالنسبة لي كان الأمر يتعلق بالكهنوت، أمّا بالنسبة لرفيقي فكان الأمر يتعلّق بالرهبنة. باركنا بينما كنّا جاثين على أقدامنا وصلّى لأجلنا، ثم قدّم لنا الشاي من كوبه الخاص".

والسيدة تركوفا ـ وليامز حفظت لنا سرداً حيّاً لزيارة قام بها الأب يوحنا إلى بيت ذويها:

"كنتُ شابة منغلقة على حياتي الخاصة، وكنتُ أوافق المثقفين في نظرتهم إلى هذا الكاهن الغريب الذي جمع حوله في كرونشتادت الآلاف من أرجاء روسيّا غير الصالحين لشيء، يسودهم الهوس ويتناقلون إشاعات عن عجائب هنا وهناك...

عندما أتى إلى بيتنا وألقى إليّ نظرة من عينيه الثاقبتين الصافيتين، شعرت بدفء يغمر قلبي...

ما زلت أذكر إلى الآن نور هاتين العينين. كانتا تضيئان وتنشران نوراً يشبه نور القناديل الموضوعة أمام الأيقونات. لم تقعْ عيناي إطلاقاً على مشهد مثل ذلك. لم يكن باستطاعتي في ذلك الوقت أن أعي أنّ هذا الإشعاع الخارجي إنّما كان يعكس إشعاعاً داخلياً".

وأمّا زيارته لبرلين فيحدّثنا السيد أرسانياف عنها:

"وصل الأب يوحنا سنة ١٨٨٦ إلى برلين لزيارة خالتي الأميرة أولوف ـ دافيدوف التي كانت في مشفى للأمراض العقلية. والأب يوحنا، وإن استغرقت إقامته في برلين مدة أسبوعين، إلاّ أنّه لم يَزرْ خالتي المريضة سوى مرة واحدة. وهي عندما رأته راحت تزبد وتصرخ قائلة: "لماذا أتى إلى هنا؟" وأصرّت على المترجم أن ينقل إلى الأب يوحنا كلماتها من الألمانية إلى الروسية. أمّا الأب يوحنا فقد شعر

بالشفقة عليها وأوضح قائلاً: "إنّها تحمل صليباً كبيراً، إن نفسها مجروحة لكنّ روحها تعيش دون خطيئة، وهي تعاني عذابات جمّة".

بعض المصادر الأخرى يتحدث عن زيارات أخرى قام بها الأب يوحنا لبرلين سنة ١٨٨٥ بدعوة من السفير المريض الأمير سوفلوف

-٦-

في أكتوبر سنة ١٨٩٤ تلقى الأب يوحنا دعوة من الدوقة الكبيرة ألكسندرا يوسيفوفنا والملكة اليونانية كونستنتنوفنا للتوجه إلى القرم حيث كان القيصر ألكسندر الثالث طريح الفراش في حالة مرضيّة خطيرة.

استقبل القيصر الأب يوحنا للمرة الأولى في الحادي عشر من أكتوبر، وفي السابع عشر من الشهر نفسه تناول الأسرار الطاهرة على يد الأب يوحنا. وفي العشرين من الشهر دُعيَ الأب يوحنا مرة أخرى إلى القصر. كان القيصر، وهو على فراش الموت، قد تناول الأسرار الشريفة على يد أبيه الروحيّ المتقدم في الكهنة يانيشف. يصف لنا الأب يوحنا زيارته فيقول:

"ذهبت إلى القيصر المريض مباشرة بعد انتهائي من القداس الإلهي، وبقيتُ إلى جانبه حتى ساعة وفاته. مسحتُهُ بزيت من قنديل إحدى الأيقونات العجائبية تنفيذاً لرغبته، ثم رغب إليّ في أن أضع يدي على جبهته وقال لي:

- الشعب يحبك.

- نعم إن شعبكم يحبني أيها القيصر.

- الشعب يحبك لأنّه يعرف من أنت ومدى استحقاقك.

وإذ شعر بنوبة اختناق، وُضِعَ له الأوكسجين، فسألته بعدها:

- هل أنتم متضايقون من وضع يدي على جبهتكم؟

- لا، أجاب. أشعر أني أفضل عندما تضع يدك على رأسي.

كان القيصر يشعر بالراحة لأنّي أتيت إليه مباشرة بعد انتهائي من القداس الإلهي حيث كنت أمسك بيديّ جسد الرب الطاهر، ولأني تناولت الأسرار الطاهرة".

الفصل العشرون

راعي روسيّا كلها

-١-

إنّ رحلات الأب يوحنا غير المنقطعة إلى مختلف أنحاء روسيّا، وبشكل خاص دعوته من قبل العائلة الإمبراطورية إلى القرم، تشكّل قرائن تشهد لحقيقة كونه راعياً لروسيّا كلّها. حتى أعداؤه لا يشككون بذلك. ونستطيع القول أن شهرته تخطّت حدود روسيّا لتبلغ بلداناً غير أرثوذكسية. لوثريون، كاثوليك، مسلمون ويهود كثيراً ما قصدوه لطلب المساعدة أو لأخذ المشورة. من خلال أوصاف رحلته إلى القرم تنكشف لنا حالات مختلفة التقى فيها أشخاصاً ذوي معتقدات مختلفة. واعتاد الأب يوحنا أن يستفسر عن مصاعبهم وضيقاتهم دون أن يسألهم عن دينهم.

في القرم استقبل وفداً يهودياً قصده شاكراً إيّاه لهباته المختلفة لصالح الجالية اليهودية. وهناك قصة تحدّثنا عن رجل تَتَريّ استعاد صحته بفضل صلوات الأب يوحنا. وهناك حادثة أخرى عن امرأة تَتَريّة توسلت إليه أن يشفي زوجها، فسألها: "هل تؤمنين بالله؟" ولمّا تلقى منها جواباً إيجابياً قال: "هلمّ نصلّي معاً، أنا على طريقتي وأنتِ على طريقتك".

-٢-

هناك قرائن متعددة على اتساع شهرته، أوّلها الرسائل والتلغرافات التي بلغت حدّ الستّة آلاف يومياً، وتليها الترجمات إلى لغات متعددة لأعماله المختلفة، وفي المقام الثالث نذكر آراء الكثيرين فيه.

سبق لنا وذكرنا أنّ إدارة البريد كانت ترسل له آلاف الرسائل داخل صناديق خاصة. محتوى أغلب هذه الرسائل كان إمّا طلب صلاة لأجل شفاء المرضى، وإمّا دعوة لافتقاد بعض المرضى، وإمّا شكراً لصلاته الشافية. كان يُطلب إليه أن يبارك مشاريع وضع حجر الأساس، أو أن يجد حلاً لبعض المشاكل المعيشية الصعبة. وأخيراً كان الكثير من الرسائل يحوي حوالات مالية لأجل صرفها على أعمال خيرية وإنسانية.

في بعض مدوّناته يتحدث عن الزيادة السنوية للرسائل المرسلة من الخارج. ولدان سويسريان، على سبيل المثال، كتبا إليه يسألانه لأجل شفاء والدتهما. أسقف فرنسي أرسل حوالة بقيمة عشرين ألف فرنك فرنسي في سبيل شراء ميتم يملكه ملحدون. والأميرال "جرفيه" في البحرية الفرنسية، يشكره على هديته القيّمة ويطلب إليه أن يصلّي لأجل فرنسا.

-٣-

وإذ كان الأب يوحنا بعد على قيد الحياة، جرت ترجمة كتابه "حياتي في المسيح" إلى لغات متعددة. الترجمة الانكليزية التي وضعها غولييف، وصدرت سنة ١٨٩٧ عن دار كاسيل وشركاه في لندن، حققت انتشاراً واسعاً ليس فقط في إنكلترا بل في أميركا وأستراليا أيضاً. وفي وقت لاحق قام القس الأنغليكاني بيكرستاث بنشر مجموعة مختارة من مذكرة الأب يوحنا وهي عبارة عن ٦١٧ قولاً، صدرت سنة ١٨٩٩ عن منشورات جامعة أوكسفورد.

الراهب الدومينيكاني ستايرك نشر مختارات من هذه المذكرة اليومية باللغة الفرنسية. اعتُبر عمله يومها خطوة جريئة للغاية يقوم بها رجل كاثوليكي. وهو اضطرّ إلى تبرير خطوته هذه بتفاسير مختلفة. مهما يكن من أمر، فإنّ محبة ستايرك للأب يوحنا لا جدل فيها وهو يرى فيه شبهاً للقديس الكاثوليكي فرنسوا دو سال. عمل ستايرك عرف إصدارين مختلفين.

وفي وقت لاحق ظهرت ترجمات أخرى لأعمال الأب يوحنا، كما ظهرت دراسات حولها في اللغات السلافية المختلفة. وننوّه، بين هذه الأعمال، بتلك التي

قام بها الأب المتوحد البلغاري الأصل ميثوديوس. أمّا الترجمة اليونانية لمفكـرة الأب يوحنا "حياتي في المسيح" فقد وضعها رئيس أساقفة أميركا مخائيل.

-٤-

إنّ الآراء الإيجابية حول الأب يوحنا كانت شائعة في روسيّا كما في الخـارج أثناء حياته. ولكن غالباً ما يكون الموت فرصة ترفع الناس إلى المعنى الروحيّ الـذي يتجـلّى برحيل الإنسان عن هذه الحياة. وليس من المدهش على الإطلاق أن تكـون الكلمـات الجنائزيـة التـي تنـاولت الأب يوحنـا علـى جـانب كبـير مـن الأهميـة. الاستشهاد ببعضها سيُظهر لنا أن معاصريه قد عرفوا أهميّته التاريخية، وذلـك قبـل أن تكون أية قراءة تاريخية ممكنة، حيث إنّه لم يكن قـد مـرّ بعـد علـى وفاتـه وقـت طويل. ونورد على سبيل المثال:

"كان الأب يوحنا الرجل الأوسع شهرة في روسيّا علـى العتبـة الفاصلـة بـين القرنين التاسع عشر والعشرين. لا يمكن لأحدٍ أن يعزله عـن روسـيّا وشـعبها. لقـد تجـلّى كوسيط بين السماء والأرض وهو بـذل ذاتـه كلهـا لعملـه الـدؤوب دون أن يعرف الراحة".

الأستاذ المساعد في جامعـة خـاركوف، الأب يوحنـا فيلفسـكي كتـب هـذه الملاحظة:

"كان الأب يوحنا راعياً لروسيّا بكل ما لهذه الكلمة من معنـى، أبـاً روحيّـاً عظيماً وشعبياً. قصده الناس ليس فقط في سبيل الحصول على المساعدة لأنفسهم أو للآخرين، بل أيضاً ليُعاينوا فيه ذلك الشاهد الأمين المتوشّح بالنعمة الإلهية..."

المتقدم في الكهنة فودل يختم هذا الخط من التفكير بإشـارته إلى الأب يوحنـا كونه شاهداً لمعنى الكهنوت:

"لقد عرفت روسيّا عبر تاريخها رجال صلاة، إكليريكيين ونسّاكاً علـى حـد سواء. ولكن، فقط في الربع الأخـير مـن القـرن التاسـع عشـر، أُعطيـت أن تعـرف كاهناً ذا قوة روحيّة وتأثير في الشعب غير عاديّ على الإطلاق".

-٥-

كان الأب يوحنا يعتبر نفسه أداة في يد العناية الإلهية لأجل تذكير الشعب بالقوة الإلهيّة الخلاصية للكنيسة والتي تتجلى على نحو خاص في الأسرار المقدسة والكهنوت. وهو كان يشعر بالنعمة الإلهيّة، تلك التي فاضت من صلواته الشافية التي لا تحصى.

إنّ شهاداته الكثيرة والجريئة على هذا الصعيد لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن تُنعَت بالادعاء، ذلك أنّه، في الوقت عينه، كان يتحدث عن ضعفه وميله إلى الخطيئة ككائن بشري. وكان يعتبر كل ما استنار فيه وكل قواه الروحية أفعال النعمة الإلهيّة، ولم يغب عنه مدى حياته الاستعداد ليبكي عدم استحقاقه.

إنّ تلاقي التواضع الروحي وشجاعة حياة مثمرة شكّل دوماً في الكنيسة الأرثوذكسية الطريق المؤدية إلى القداسة والأساس الرئيس لحياة إلهية ــ إنسانية. وبالضبط فإنّ هذا الوضع الداخلي هو ما أعطى الأب يوحنا المكانة الفريدة التي احتلّها بين الأرثوذكس.

-٦-

في المقطع التالي يحدّثنا الأب يوحنا عن ضعفه البشري ووعيه كونه إنساناً خاطئاً:

"كم هي كثيرة بذور الخطيئة في داخلي: التواني، حبّ الذات، اليأس، اللذة، الأفكار السيّئة، الحسد، التكبّر، المجد الباطل، العجب، الخبث، الغضب، صغر النفس، عدم الصبر، الخ.... بهيمة أنا بكل معنى الكلمة! بشع، مقرف! نعم، إنسان شقيّ أنا!"

"أتعذب أياماً كثيرة ولا أستطيع أن ألتفت كليّاً إلى الله لأن الخطيئة قد استعبدتني وغرّبتني عن رحمة الله".

ونحن، إذ نقرأ مثل هذا الاعتراف، يَنتابنا الشعور أنه بالحقيقة خاطئ كبير. ولكن في نهاية هذه المقاطع يتبيّن لنا أنه لم يكن فقط يُجاهد إزاء الخطيئة، ولكنّه

كان يخرج دوماً منتصراً بعون الله:

"إنها الحقيقة أنـي أبكـي وأنـوح علـى خطايـاي وأتصـالح مـع اللـه... إنّهـا الحقيقة أن الخطايا تأسرني، ولكن من يدري هل يكون باستطاعتي الانتصار عليها من دون معونة الله لي؟..."

"إنّ الله، إذ يرى ضعفي وتواضعي ودموعي، يشفق علـيّ ويرحمنـي ويرسـل لي النعمة الإلهيّة".

لا يبقى عندنا أدنى شك في أنّ الأب يوحنا، حين يستعمل كلمة خطيئـة، لا يعني على الإطلاق الوقوع في الزلّة، بل تعرّضه للتجربة. بالإضافة إلى هـذا المقطـع، هناك مقاطع أخرى تُخبرنا بشكل ساطع عن انتصاراته في جهاده إزاء الشر.

كـان في بعـض عظاتـه يتحـدث عـن نفسـه مـبرزاً، بتلـك الطريقـة، صـورة المسيحيّ المجاهد. ولكنه كان يتفادى دومـاً أن يسـمّي نفسـه. كـان يتحـدث عـن نفسه بصيغة الغائب، كما لو كان يتحدث عن شخص آخر:

"كان إنسان مسيحي يعيـش مؤمنـاً باللـه ويجـاهد دون انقطـاع إزاء مختلـف الأهواء. بصلاته الحارة وتوبته كان الله يقـوّيه بنعمته الإلهيّة إزاء كل تجارب العـدو والأوهام الشيطانية والأفكار السيّئة. ودوماً، في النهاية، كان يُتـوّج بـإكليل الظفـر والنصر. كان بالحقيقة أعجوبة دائمة لرحمة الله".

وإليكم مقطعاً آخر يتحدث فيه عن نفسه بصيغة المتكلم:

"كان عليّ في مواجهتي للتجارب الداخلية أن أسهر على نفسي جيداً لأمـيّز هجمات الأعداء غير المنظوريـن، محافظـاً علـى اليقظـة الروحيـة المستمرة والصـلاة الذهنية وامتناني لله لأجل العون الذي منحني إياه في صراعاتي هـذه. لأنـي بمعونـة الله كنت أخرج منها دائماً منتصراً، رغم أنني، في بـدء خدمتـي الكهنوتيـة، كنـت أُهزَم مراراً بِحيـلِ أعدائي الروحيين وخبثهم."

في ١٢ ديسمبر من عام ١٨٩٠، في الذكرى الخامسة والثلاثين لرسامته كاهناً، قُدِّم إليه صليب ثمين. وفي الكلمة التي ألقاها في تلك المناسبة، رسم صورة شاملة عن حياته الداخلية إلى ذلك الحين، أتت كاعتراف علنيّ ودستور إيمان، كشفاً عن حياة كاهن، حياة داخلية، إلهية وإنسانية في آن. أتت تحفةً في فنّ الخطابة ومن أجمل ما ألقى في حياته، وهي تُذكّر بمواعظ آباء الكنيسة الشهيرة:

"نعم إنّي ضعيف بالكلية وأعي ضعفاتي، ولكن "قوّتي في الضعف تُكْمَل" (٢ كو١٢:٩). وقد تجلّت هذه القوة فيّ على مرّ سِني خدمتي الكهنوتية الخمس والثلاثين. أعترف بهذا حتى تكون هذه الأمور بالنسبة لنا جميعاً، أنا وأنتم، مدعاة لتمجيد الإله العظيم والمخلص يسوع المسيح. يتعذّر عليّ أن أحصي كل جِيَل رئيس هذا العالم وكل التجارب الناشئة عن الأهواء. لكن رحمة الله ونعمة يسوع المسيح وقوّته قد قضت عليها كلها وذلك بفضل الصلاة الداخلية والتوبة الحارّة، وقبل كل شيء، المشاركة المتواترة في الأسرار الطاهرة."

"أيّ ذهن ملائكي يستطيع أن يحيط بكلّ هدايا النعمة: التطهير، التقديس، الإستنارة، السلام، الحرية، الفرح بالروح القدس، الشجاعة والقوة، التي أُهِّلتُ لإقتنائها طيلة خدمتي الكهنوتية! لا أستطيع إحصاء عدد المرّات التي شُفيت فيها جسدياً وروحياً باستدعاء اسم يسوع. فقط به وباسمه أكون صالحاً، وما أنا ببعدي عنه سوى شقيٍّ. فقط معه أكون قوياً شجاعاً، و بعيداً عنه لست سوى إنسان جبان. فقط معه أكون متواضعاً ووديعاً، و بعيداً عنه لَستُ سوى متكبّر ومتعجرف".

"كيف لي أن أعلّق هذا الصليب الكريم والعُجب والتكبر ما زالا يتحكّمان بي ويظلمان نفسي؟ فهل أُعلّقه على صدري لأظهر أنَّ نار محبة المصلوب ومحبة الذين صُلِبَ هو عنهم غير مضطرمة فيَّ على الدوام؟!".

يكتب الأب يوحنا في غروب حياته، وإذ كان يُقوِّم عمله الكهنوتي، كم كان صراعه الروحي عديم الرحمة:

"طيلة فترة السبعين سنة التي عشتها، كنت أخطئ كل يوم. لكنني كنت أتوب وكان الله يسكب عليّ رحمته. كنت أتضايق كثيراً للخطايا التي اقترفتها ككاهن. والله أنعم عليّ بدموع توجّع وأهّلني باستمرار للمناولة. الأعداء غير المنظورين كانوا معي دوماً على موعد، دون شفقة، دون هوادة، خصوصاً أثناء إتمامي الأسرار المقدسة. ساعتها كنت أواجه صراع حياة أو موت، صراع الموت الروحي".

"أشكرك يا رب لأنك وهبتني حياة جديدة عندما كنتُ، بدموع التوبة وبامتنان، أقيم القداس الإلهي. أدين بوجودي للأسرار الطاهرة، ومنها تنبع طهارة حياتي وهي سبب الوقع الممدوح الذي أتركه بين عبيدك".

وإذ يتحدث الأب يوحنا عن "الوقع الممدوح" أو "مجده"، فهو يعتبره كشفاً لمجد الله وليس لمجده الخاص:

"الوَرِعُون والأبرار لا يطلبون المجد ولا يبحثون عنه. لكنهم لا يتجنّبونه عندما يتمّ بذلك مجد الله وفرح عبيده".

من هنا تنبع جرأة حديثه عن "المجد" الذي حققه. وهو في كل ما أُنجز ما كان ليفرح سوى بعظمة قوة الله ومجد اسمه.

"لقد مجّدتني يا رب في كل مكان. في بلاطات الملوك وقصور النبلاء والمقتدرين كما في قلوب البسطاء الفقيرة... اسمك حَمَلَ في كل مكان ويَحمِلُ التعزية والسلام والصحة والخلاص والنصر على الأعداء. عجيب اسمك يا رب! كم هو مدهش! نعمتك المُحيية والمقيمة فيّ، من خلال المشاركة المتواترة في الأسرار الطاهرة، جذَبَتْ إليّ كل إنسان على نحو عجيب وخارق، إليّ أنا الحقير والشقي!".

المقطع التالي يوضح لنا أكثر فأكثر كيف كان الأب يوحنا يدرك "هذا المجد" الذي عرفه، عبئاً كبيراً ومسؤولية من جهة، ومصدراً للفرح من جهة أخرى:

"أشكرك يا ربّ لعجائب أسرارك الإلهية التي كانت تتم يومياً في قلبي وفي قلوب الشعب الروسي. أنت تهدينا إليك وتقودنا بقوتك الطاهرة العجيبة التي لا تقهر. كل روسيّا الأرثوذكسية مشدودة إليك... يا كلمة الله، يا خالقنا، يا معتقنا ومخلّصنا، أنت تجذبنا إليك دون انقطاع، تجذب كل واحد منّا وكلّنا جميعاً".

إنّ حياة الأب يوحنا اليومية وجهاده وتقلّب حالات النعمة المختلفة عليه، جعلته يدرك إلى أي مقدار صار مستنيراً بالروح. وكلماته الموحاة حول الأقنوم الثالث للثالوث القدوس لا يمكن اعتبارها على الإطلاق أفكاراً لاهوتية نظرية، بل كشفاً حقيقيّاً عن خبرته الداخلية وحياته الروحيّة العميقة:

"لفترة طويلة لم أدرك كم النفس بحاجة إلى القوة التي يمنحها الروح القدس. أمّا إلهنا المحب البشر فقد منحني أن أعي ذلك. بالحقيقة نحن بحاجة إليه، في كل لحظة من لحظات حياتنا، حاجَتنا إلى التنفس تماماً... فمن دون معونة الروح القدس تميل نفسنا سريعاً وسريعاً جداً إلى الخطيئة أي، بمعنى آخر، تتجه نحو موتها الروحي. إن الروح القدس أساس الحياة الداخلية. هو يقوينا ويعيننا، يشعل فينا نار المحبة، يمنحنا الأفكار الصالحة والحسنة، يعطينا الصبر والقدرة على احتمال الشدائد والانضباط في عمل الفضيلة، يوحي إلينا بالوقار والاحترام في علاقتنا مع الآخرين، يجمع بيننا نحن المؤمنين برباط المحبة، وكأولاد للآب السماوي يعلّمنا أن نصلّي إلى المسيح يسوع: "أبانا الذي في السماوات".

"إنّ النفس التي تضع ألوهة الروح القدس موضع شك، تشك بحياتها ذاتها، لأنّ الروح القدس يُحيينا ويمنحنا غذاءَنا الروحي. هو شمسنا العقلية، هواء رِئتَينا الروحِيتَين، مأكل النفس ومشربها. عدم الإيمان بألوهته يعني رفض الحقيقة والقداسة لأنّه هو روح الحق والقداسة، كما يعني أيضاً رفض الصلاة لأنّه هو يوحي بالصلوات، يعني أيضاً رفضاً لكل تعزية روحيّة في الشدائد والأحزان لأنّه هو المعزي الوحيد مع الآب والابن، يعني أخيراً نكران الإيمان والرجاء والحكمة والقوة ومخافة الله... باختصار، مَنْ ينكر الروح القدس ويرفضه يحكم على نفسه بالفناء الروحي، أو قُلْ أنّه ينتحر روحيّاً".

الأسقف بنيامين في كتابه "السماء على الأرض"، مستشهداً بكلمات مماثلة للأب يوحنا حول الروح القدس، يكتب ملاحظاً:

"عند قراءتنا هذه الكلمات نتذكر الحوار الذي جرى بين القديس سيرافيم وموتوفيلوف، ونصل إلى استنتاج أن خبرات الأب يوحنا والقديس سيرافيم تنبع

من مصدر واحد، ألا وهوَ الروح القدس، وأن المناخ الروحي للواحد متطابق مع مناخ الآخر".

-٩-

إنّ أهم شهادات الأب يوحنا عن نفسه هي، على الأرجح، تلك التي حصلت في اجتماعين للكهنة. أتَتْ كلماته بسيطة، مُلهَمة، لا تحتاج إلى التحليل. مسيرته الروحية، بوجوهها المختلفة وطرقها المتعددة، ليست ملزمة للجميع، بل وردت على سبيل المثال. فالكنيسة، إذ تمنح الإنسان المسيحيّ وسائل الخلاص المتنوعة، تترك له حريّة تطبيقها تبعاً لظروفه المكانية والزمانية ولأوضاعه الشخصيّة. وفي هذا المجال نتذكر نصيحة للقديس سيرافيم وردت في حديثه مع موتوفيلوف:

"إذا كانت الصلوات والسهرانيات تمنحك نعمة الله بشكل أوفر، فساعتها صلِّ واسهر. وإذا كان الصوم هو ما يمنحك تلك النعمة بشكل أوفر، فصُمْ. وأمّا إذا كان الإحسان، فَقُمْ بعمل الإحسان. هكذا فكّروا دوماً بالنسبة لكل فضيلة تمارسونها لأجل المسيح".

سنة ١٩٠١ انتهز نزاريوس، أسقف نيزاغورسك، فرصة زيارة الأب يوحنا المدينة، فدعا كهنته إلى اجتماع وطلب إلى الأب يوحنا أن يتوجّه إليهم بالكلام.

ولما دخل الأب يوحنا إلى صالة الاجتماع مع الأسقف، حَنى رأسه أمام الحضور قائلاً لهم: "السلام لكم أيّها الآباء الأجلاّء والأخوة، مشاركيّ في الخدمة".

أحد الإكليريكين الحاضرين دوّن ما يلي:

"وقف أمامنا الشيخ الوقور. على محيّاه بدا الصفاء والشكر والسلام والبركة والانفتاح القلبي. عيناه مُضيئتان، تشعّان محبة وخيراً، كلمته ثابتة ومقنعة أسَرت انتباه الجميع. تحدّث إلينا وهو جالس على كرسيه وقد أحنى رأسه قليلاً".

"بعد أن ألقى الأسقف كلمة، طلب إلى الأب يوحنا أن يشارك الكهنة الحاضرين خبرته الرعائية الطويلة وكيف يمكن للراعي أن يهدي قلوب المؤمنين.

وإذ أصغى الأب يوحنا إلى كلمة الأسقف بادرنا بالحديث، فأتى تقريباً على الشكل التالي:

"أيها الآباء الأجلاء ويا إخوتي مشاركيّ في الرعاية، أرى أنكم أنتم أيضاً قد ابيضّت لحيتكم وهذا يعني أنكم اغتنيتم بخبرة الحياة. ليس عندي ما أعلّمكم إيّاه. ولكن لأنّكم أصررْتم عليّ بالسؤال فإني أرضخ لطلبكم".

"أسعى جاهداً لأن أكون راعياً صادقاً ليس فقط بالقول بل بالفعل أيضاً، في الحياة العملية. أجاهد كي لا أخسر هدوئي الروحي وعملي الداخلي. أحتفظ بمذكّرة أدوّن عليها تقصيري في حفظ وصايا الله. أراقب نفسي وأسعى في إصلاح سيرتي".

"أعمل النهار كلّه، من الصباح حتى منتصف الليل. لا أتمّم فقط عملي الرعائي في كرونشتادت، بل أُلقيَت عليّ الضرورة والحاجة للسفر إلى مناطق مختلفة من روسيّا للغرض عينه. يشغلني كل يوم آلاف المؤمنين بمطالِب ومشاكل مختلفة وأنا أسعى، رغم الصعوبات الهائلة، إلى إرضاء كل واحد منهم".

"حيثُما وُجدتُ أحاول إقامة القداس الإلهي يومياً وأن أُقدّم إلى الله الذبيحة غير الدموية، بتقوى وورع، كفّارةً عن خطاياي وخطايا جميع المسيحيين الأرثوذكسيين. والمؤمنون يرون ويشعرون بالخدمة المباركة، فتعتمر نفوسهم بمشاعر مقدسة ويطفقون يصلّون بتهليل وحرارة".

"أَعِظُ بكلمة الله في القداديس التي أقيمها أيام الآحاد. تنعكس في عظاتي حياتي الداخلية: دون وَجَل أتحدّث عن خطايا الناس وزلاّتهم وأهوائهم. أعرض أيضاً لضلال الهراطقة والمنشقّين".

"وإذ أرى ثمار العمل الرعائي الذي بذلتُ فيه نفسي، أشكر الله دون انقطاع. في كاتدرائية القديس أندراوس، يشارك في الخدمة حوالى خمسة آلاف مؤمن؛ كل هذا الجمع يصغي إليّ كأنّه إنسان واحد. لا تُسمع ضجّة ولا حسٌّ على الإطلاق. العيون كلّها شاخصة إليّ. عندما أخرج من الكنيسة يغمرني الشعب بمحبته من كل حدب وصوب. وعلى وجوههم تقرأ الفرح والنية الحسنة. ارتسمت

على كل الوجوه بركة القداس الإلهي".

"هذه هي ثمار صلاتي وعظاتي. اغفروا لي يا آبائي الأجلاّء إذا كنتُ أتحدث بهذه الطريقة عن نفسي. لم أعرض لها لأمدح ذاتي. حاشا، لينجّني الله من تلك الوقيعة. فإنّ الفضل في ذلك يعود، ليس لي، بل لنعمة الله التي استقرّت فيّ بكهنوتي".

"كثيراً ما دُعيتُ للصلاة في بيوت الأغنياء حيث قُدّمت لي هدايا مختلفة. كنت أوزّعها على الفقراء الذين زاد عددهم كثيراً في أيامنا هذه. مدخولي أبعث به إلى المؤسسات الاجتماعيّة والكنائس الفقيرة. كان من ينوب عنّي يعطي الفقراء كل يوم مالاً ليسدّوا به حاجتهم للخبز اليومي. وأضيف في هذا المجال أني لم أعطِ المال أيّاً من السكارى والمتسوّلين الذين يطلبون المال ولا يرغبون في العمل".

"كثيراً ما أُحضر إليّ مرضى بهم شيطان ويسألونني الصلاة من أجلهم؛ كنت أتصرف ببساطة الإيمان. كان هؤلاء المرضى مضطربين إلى درجة كبيرة، يزبدون ويتخبطون. لاحظت أنهم كانوا يغمضون عيونهم دوماً، فكنت آمرهم أن يفتحوها. وإذ كانوا لا يستجيبون لي، كنت أصرخ فيهم بإصرار: "افتحْ عينيك!". وكنت في الوقت عينه أحدّق بهم، وإذ كانوا يفتحونها في نهاية المطاف، كنت أتطلّع في عيونهم قائلاً: "باسم ربنا يسوع المسيح، أيها الروح النجس، آمرك أن تخرج".

ثم أبارك المريض الذي استعاد هدوءه وبدأ يصلّي. بعدها كنت أناوله الأسرار المقدسة".

"يا إخوتي، في الحقيقة قد وهبنا الله نعمة كبيرة، إذا حافظنا عليها سنغلب العدو. هكذا، أيها الآباء الأجلاء، أقوم بخدمتي الكهنوتية لأجل مجد الله، لأجل مجد كنيسة المسيح، ولنشر الإيمان الأرثوذكسي. كشفتُ لكم هذه الأمور، علانية وبصراحة، بناء على طلبكم ورغبتكم وهاجسكم الرعائي وحسن تتميمه لأجل الكنيسة المقدسة ولبلادنا".

استمرّ الحديث ساعتين. أما الكهنة فقد كان عندهم الاستعداد للبقاء طيلة الليل ليستمعوا إلى كلام الأب يوحنا المفعم بالنعمة والبركة الروحيّة. وإذ

استودعهم الأب يوحنا الله، قبّل كل واحد قائلاً: "المقدّس والمقدّسون جميعهم من واحد" (عب ٢: ١١)، فلنُقبِّل، أيُّها الآباء الأجلاّء، بعضنا بعضاً بقبلة أخويّة".

الحديث الثاني حصل في سرابول سنة ١٩٠٤. فلنُتابعه كما ورد عبر مدوّنات أحد الحاضرين:

"لقد منحنا الله نعمة كبيرة إذ كنّا موجودين خلال الحديث الذي ألقاه راعي كرونشتادت العجيب، الأب يوحنا، بالإضافة إلى كهنة آخرين في كنيسة المسيح. فلمّا دخل القاعة، وقف كل الحضور مرحباً ومرتلاً: "اليوم نعمة الروح القدس جَمَعتنا..." دخل إلى الكنيسة حيث سجد للمائدة المقدسة، ثم عاد إلى القاعة ودعا الجميع إلى الجلوس وابتدأ يقول لنا:

"إني سعيد جداً بلقائكم والحديث معكم، أشكركم لاجتماعكم ههنا. أشكر كل الكهنة المشاركين إياي في الخدمة. أشكر صلاتكم المشتركة".

"لا شيء يعطي الإنسانَ نَفَساً في أية خدمة مثل شعوره بوجود إخوة له يعضدونه في العمل. إنّه لصعب، بشكل خاص، الشعور بالوحدة أثناء إتمام عمل الرب وخدمة القريب. نحن نحظى داخل الكنيسة بمعونة القديسين. ولكن مساعدة الإخوة الروحية لن تكفّ عن أن تكون ضرورية وأساسية لنا خلال حياتنا الأرضية هذه. هوذا السبب الذي لأجله أشكركم أنتم العاملين معي في خدمة الرب لأجل اشتراككم في هذا الاجتماع".

"قد تكونون يا إخوتي متعجّبين من جرأتي الكبيرة في السفر عبر كل روسيّا وصلاتي من أجل الكثيرين ممن يطلبون مساعدتي. قد يخطر ببال أحدهم أن يعتبر ذلك وقاحة... أمّا أنا فما كنت لأقرّر أن أحمل على عاتقي مثل هذا العمل الثقيل لو لم أكنْ قد دُعيت إليه من العلى..."

"لقد بدأتُ على هذا النحو: مرض أحدهم في كرونشتادت، طُلِبَ إليّ أن أساعده من خلال صلاتي. وأنا اعتدت دوماً أن لا أردّ أي طلب. بدأت إذاً بالصلاة، رافعاً المريض إلى رحمة الله سائلاً إيّاه بحرارة أن تتمّ إرادته الإلهيّة. ساعتها أتت امرأة تقيّة طاعنة في السن وكانت طيلة حياتها بارّة. طلبت إليّ هذه المرأة ألاّ أصلّي لأجل المريض بطريقة واهية بل أن أطلب شفاءه بإصرار. أتذكّر أنني

تفاجأت: "كيف لي أن أواجه مثل هذه الجرأة؟" مهما يكن من أمر، فإنّ تلك المرأة كانت مؤمنة بقوة صلاتي وبقيت مصرّة في طلبها. ساعتها اعترفت أمام الرب بحقارتي وشقاوتي كإنسان خاطئ. شعرتُ في كل ما حدث أنها إرادة الله، فشرعتُ أرجوه وأتوسل إليه من أجل شفاء المريض. استجاب الرب صلواتي ووهب المريض الصحة. وأنا لم أتوانَ في التعبير عن امتناني لرحمة الله لي".

"تكررت أعجوبة مشابهة مرة أخرى. وفي كلتي الحالتين انكشفت إرادة الله، خدمتي الجديدة هذه التي دُعيت إليها. والآن أنا أرى، كما يعترف الآخرون، أنَّ أشفية تتم بواسطة صلواتي".

"أكثر ما كان يثير الدهش شفاء من سكنتهم الشياطين وكانوا، إلى ذلك الحين، في شقاء كبير. كثيراً ما أُحضر إليّ أحد هؤلاء وهو لا يكفُّ عن الشتائم والكلام البذيء. وإذ كنت أقرأ عليه الصلاة المعيّنة كان يهدأ ويقبل بورع الأسرار الطاهرة التي كان، في ما سبق، يحاول رفضها. والجدير ذكره أن هؤلاء الأشخاص ما كانوا يتذكرون أي شيء مما كانوا يقولونه أثناء تناوب هذه الحالات عليهم. من الواضح أنهم ما كانوا يتصرفون على هذا النحو حسب إرادتهم، بل تبعاً لإرادة أخرى معاكسة للّه.

"كثيراً ما كانت هذه الشياطين تُبقي سيطرتها على هؤلاء المصابين لفترة طويلة: "نحن متجذّرون في هذا الإنسان، لقد أحكمنا السيطرة عليه لفترة طويلة، لن نخرج من هنا". ولكن كانت دوماً قوة الله هي المنتصرة في النهاية، فهي ترعبهم ويخشونها كثيراً".

"أمّا بالنسبة لحياتي الداخلية، فكنت أُطبّق القول المأثور: "إعرفْ نفسك". وأنا إلى الآن أجاهد حتى أعرف ذاتي. أعي ضعفي على جميع أصعدة الحياة الروحيّة وهذا ما يضطرني إلى التواضع".

"كل صلاح فيّ هو من الله، هبة منه. أشعر، في كل ما أنجزته، بمعونة الله وبعضده إياي، وأنا أعتبر نفسي أحقر كهنة روسيّا وأكثرهم توانياً إذ، لو أنَّ المواهب التي منحنيها الله قد وُهبَت شخصاً آخر، لكان حتماً استخدمها على نحو أفضل".

"إنّ توغّلي المستمر في معرفة الذات جعلني أكثر حرصاً على حياتي، وأحرّ طلباً للرحمة الإلهيّة لأجل تطهيري من الأهواء. وهذا يدفعني أيضاً إلى أن أكون أكثر رحمة مع الآخرين وأن أغفر لهم وأساعدهم وأصلّي لأجلهم".

"إنّ معرفتي ضعف طبيعتي البشرية لَهيَ ثمينة جداً بالنسبة لي لأنها علّمتني كثيراً عن صفات الله. بفحصي ذاتي أدركت كم أنّ السيد رحيم، طويل الأناة، كلّيَ الاقتدار، سريع في المعونة، كثير الرحمة. هو نبع الصحَّتَيْن الجسدية والروحية على السواء، مصدر الطهارة الخُلقية والقوة الروحية".

"أمّا أنا فلست أعيش عيشة نسكية. ولا تعتقدوا يا إخوتي أني أعتبر نفسي قدوة ومثالاً يُحتذى. على العكس تماماً، كان يمكن لنشاطاتي أن تحقّق نجاحات ملحوظة لو طعّمْتُ حياتي بشيء من النسك. ظروف خدمتي قد حرمتني من إمكان أن أصير ناسكاً".

"أقرأ الجرائد، لكنّي أشعر بالأسى للوقت الضائع لأنّهم يكتبون أموراً كثيرة لا معنى لها، ولا فائدة منها. ما أقرأه دائماً هو صلاة السحر مع القانون اليومي الذي تتضمنه. كم هو غنيّ وبنّاء أن تكثر الإشارات إلى القديسين وإلى جهاداتهم ونسكهم! تعتاد النفس بدراستها وبتأملها رويداً رويداً الحياة مع الله. تتشبّع من سيرة هؤلاء الرجال الذين طوّبتهم الكنيسة. تستنير النفس وتكفّ عن الانغلاق على نفسها. تستمد منهم قوة في جهادها ضدّ الخطيئة. يكفي أحدهم أن يقرر أن يخصص وقتاً لدراسة قوانين صلاة السحر والتأمل فيها حتى يتيقّن أنه يتحصّن داخلياً وأنّه "ينتقل من قوة إلى قوة".

أُحبُ بشكل خاص أن أنهل من الكتاب المقدس، من العهدين القديم والجديد. لا أستطيع العيش من دونه. ما هذا الكنز! ما هذا المضمون الموحى به! نواميس إلهيّة للحياة الروحيّة! كم من الدلائل الثمينة يستطيع أن يقع عليها كل من يريد أن يخلع إنسانه العتيق ليلبس الجديد! كم أنّ الكتاب المقدس ضروري لكل من يريد أن يبشّر بكلمة الله! مواضيع لا تُحصى للمنفعة الروحيّة... يكفي المرءَ أن تكون له القوة ليتتلمذ عليه وتالياً أن ينقله إلى الآخرين".

"يا إخوتي هذا ما ألهمني الله أن أتوجّه به إليكم. لمْ أفتكر بشيء سلفاً، قد قدّمت لكم فقط ما وضعه الله في قلبي:

ـ باتيوشكا، قُلْ لنا كيف تملأ وقتك أثناء أسفارك، سأله أحد الحضور.

ـ أصلّي، أصلّي على الدوام. هكذا أجاب الأب يوحنا. لا أستطيع أن أفهم أنّه بالإمكان أن يمر بنا الوقت دون أن نصلّي. أؤمن من كل أعماقي أنّ الصلاة هي كالنَفَسِ للروح.

ـ باتيوشكا، أخبرنا: ما الذي يجعلك تركّز على هذا النحو أثناء إقامتك القداس الإلهي خصوصاً حينما يحدث حولك ضجيج أو أي شيء آخر يعيق الصلاة؟

ـ هذا الأمر تحقق مع العادة ومرور الوقت. إنّها مشكلة كبيرة أن يتعلّم المرء بسرعة أن يضبط نفسه في الصلاة وأن يسودها. الحاجة ماسّة ليقظة مستمرة حتى يتحقق هذا الأمر. حاجتنا ضرورية أيضاً لأن نتوب ونستحضر في أذهاننا المسيح وصليبه لينمو لدينا إحساسنا بهشاشتنا الروحية ونجاستنا.

ـ باتيوشكا، علّمنا كيفية مقاومة التهاون وقلة الصبر وفقدان الشجاعة أثناء ممارستنا عملنا الرعائي. نشعر في البداية بالإحباط الشخصي من جهة وعي كل واحد منّا نفسَهُ أنّه خاطئ. ثم تخور شجاعتنا عندما نسمع الصوت القائل في داخلنا: "يا طبيب اشف نفسك". كما نفقد، مرّاتٍ عديدة، الاستعداد الطيّب للوعظ، وسرعان ما يلتهمنا الضجر.

ـ إن هذا من عمل الشرير، أجاب الأب يوحنا. هنا لا بدّ من أن يتذكر كل واحد منّا واجباته. إنّ تذكّر الواجب لا بد أن يُترجم فعلياً في حياة الراعي وأن يقويه ويمنحه الشجاعة. فأنت قد مُنحتَ من الكنيسة السلطان والنعمة. وعليك أن تتمّم واجباتك. بهذه الطريقة يجدر بكل خادم للأسرار أن يسلك حتى يتغلب على الضجر الذي يأتي من الشيطان.

ـ ولكن باتيوشكا، نشعر بنوع آخر من الضجر يتأتّى من أفكار التجديف خصوصاً في اللحظات الأكثر قدسية في خدمتنا الكهنوتية.

ـ إن ما تتحدث عنه، أجاب الأب يوحنا، مرتبط بعدم إيماننا. محاربة هذه الأفكار تعود بالضرر على النفس. علينا أن نهمل أفكار التحديف هذه ونزدريها. وأمّا الأفكار الشيطانية التي تصل بنا إلى حد الضجر فهي تُظهر أننا لم نطرحها جانباً منذ البداية. قد تركنا لها الوقت لتسود علينا ويجوز أن يصل بنا الأمر إلى حد الرضى بها... فلنقطع دابر الشر ولا نسمحنّ له أبداً بأن يصلَ بنا إلى الضجر. فهل نحن نجهل إلى هذه الدرجة كم أنّ الله سريع إلى نجدتنا؟ اطرح بعيداً عنك، على الفور، كل تحرشّ للخطيئة وذلك بتسلّحك بالصلاة الحارّة. فالذي يؤمن بصدق وحرارة لن يسوده الضجر الروحي أبداً.

ـ باتيوشكا، نحن نوافقك الرأي. ولكننا نواجه حالة إحباط في أعماقنا عندما نرى أنّ الشر ينتصر.

ـ هذه حالة مختلفة، بالحقيقة إنّه أمر صعب أن نحتمله. وقد اضطررت كثيراً إلى الإحساس بحالات مشابهة. فلنتدرع بالصلاة وبالإيمان الثابت أنّ الرب باستطاعته، بوسائل لا ندركها، أن يُخرِجَ من الشر أمراً خيّراً.

وبعد هذا الحديث تحدث الأب يوحنا عن تزايد الصعوبات في العمل الروحي:

"إنّ جهاد الراعي يزداد صعوبة وقساوة يوماً بعد يوم. على كل إكليركي أن يكون على مستوى رسالته، أن ينكر ذاته كليّاً وكل نزعاته الأنانية. من هنا لا بد لنا من أن نعيش حياتنا بحرص، بمراجعة للذات، بموت دائم، وبحملنا صليب أنفسنا لأجل رعيتنا".

ثم دار النقاش حول الحياة المعاصرة بشكل عام. فشدد الأب يوحنا على الاهتمامات الباطلة للمجتمعات المدنيّة:

"ظهر في أيامنا هذه مرض غريب: هوى التسلية. لم يكن العالم يلهث وراء التسلية كما يلهث الآن في أيامنا. لقد كفّ الناس عن عيش حياة رصينة جديّة، وأن يجدّو في سبيل الكمال. ليس عندهم حياة روحية ويتأفّفون سريعاً ويضجرون. لقد استبدلوا الفحوى العميق للحياة الروحية بالتسليات

المختلفة! ما هذا الجنون! لقد صارت التسلية هوى يسيطر على المجتمع كلّه! على الرعاة أن يتحركوا في هذا الاتجاه وأن يُعيدوا للحياة معناها المفقود والمُسيَّب وأن يُرشدوا الناس إلى معرفة المعنى الحقيقي للحياة. ولكن، بالطبع، على الرعاة أن يُهيّئوا أنفسهم لهذه المهمة، عليهم أن يكونوا على مستوى دعوتهم".

الفصل الحادي والعشرون

المعجزات

-١-

كثيرة هي العجائب التي حصلت بصلوات الأب يوحنا. عدد هذه العجائب كبير للغاية حتى ولو استثْنينا منها تلك الحالات التي يمكن تفسيرها بشكل مختلف. وسنة ١٩١٠ نشرَ كتاب في بطرسبرج بعنوان "قوّة صلاة الأب يوحنا كرونشتادت". في صفحاته المئتين والست والخمسين وَصف لأشفية تمّت بواسطة صلواته. وقبل دراستنا لها، لا بُد من أن نتعرض لمعنى العجيبة كما كانت تحصل مع المسيح وتلاميذه، وهذا سيساعدنا في فهم النعمة التي تجلّت عند الأب يوحنا كطبيبٍ شافٍ.

-٢-

إنّ تجسّد ابن الله وحلول الروح القدس يشكّلان قمتي الإعلان الإلهي. فبالتجسد أخذ الله الكلمة الطبيعة البشرية وأظهر لنا الحياة الإلهيّة. وأظهر لنا، بطريقة قريبة من الإدراك البشري، الحياة الحقّة الكاملة وهي نور ومحبة وفرح على حسب ما نقرأ في بداية إنجيل يوحنا ورسالته الأولى الجامعة.

إنّ الحياة الإلهية تتجلّى وتنكشف في ذبيحة السيد على الصليب، في تعليمه وعجائبه، وهو، في عجائبه على نحو خاص، كشف عن القوة المحيية والغنى اللامتناهي للمحبة الإلهيّة. وكل عجيبة كانت تعبيراً ما عن هذه المحبة.

في العجيبة الأولى، أثناء عرس قانا الجليل، يمنح السيد البشرَ الفرح بتحويله الماء إلى خمر. بطرده الشياطين وشفائه المرضى وإقامته الموتى، يحرّر الإنسان من

العواقب الوخيمة للخطيئة. بتهدئته البحر وبمشيه على المياه وتكثيره الأرغفة يُظهر محبته للبشر ويُعيد إلى الإنسان القوّة التي تحلّى بها قبل السقوط ، وهي قوة السيطرة على العناصر.

ليس علينا أن ننشغل بطرح أسئلة مثل: لماذا لم يَشفِ المسيح الجميع؟ أو لماذا الذين أقامهم من الموت رقدوا بعد فترة من الزمن؟ المسيح أتى ليقيم الجميع من الموت وليهبهم الحياة الأبدية والرحمة العظمى. ولكن هذا النصر النهائي إزاء الشر سيتحقق في نهاية الحياة الحاضرة. والعجائب هي عربون، ومضات، إشراقات، رسم للظفر النهائي.

فهل نتعجّب بعدُ لمحبة الله المنكشفة في عجائب المسيح عندما ندرك جميعاً ماذا يستطيع الحب البشري أن يفعل، وهو انعكاس صغير للمحبة الإلهيّة؟ أَوَ لا نعرف جميعاً ماذا يستطيع أن يحقق حبُّ أمٍّ تجاه ابنها المريض؟

-٣-

أمّا محبة الله التي تجلت من خلال العجائب فلم تقتصر على تلك الإحسانات المادية القصيرة العمر. فالمسيح لم يطرد فقط شياطين أو يَشفِ فقط مرضى أو يُعطِ فقط حياة للموتى. لقد شفى بشكل رئيس نفوساً ميّتة في الخطيئة وأحياها. فالغلبة على الشر هي أساساً تجديد روحي. وهذه تشكّل المدخل إلى الظفر النهائي. هذه هي العجيبة الكبرى التي ليس بمقدور البشر أن يُحققوها بقواهم البشرية.

وقد حقق يسوع هذه العجيبة بمواعظه وعجائبه على حدٍّ سواء. كان يوقظ القلوب باستمرار إلى محبته والإيمان به. فهو بالضبط كان يُحيي تلك القوى التي من دونها يبقى الإنسان ميتاً روحياً.

-٤-

لم يستخدم السيد العنف والإكراه على الإطلاق ليحمل الناس على الإيمان به. فهو يحترم حرية الإنسان بشكل مطلق وقد رفض أن يجترح عجائب كان يمكن أن تطبع مُخَيّلة الناس بالخوف وتضطرهم إلى الاستعباد له. أراد أن يجذب البشر إليه

دون إكراه. لذلك كان يبحث في النفوس ولوعن ذرّة ثقة، عن حَبّة إيمان ومحبةٍ قبل أن يجترح العجيبة. بالعجيبة كانت الحبة تنمو وتكبر وتُثمر تجديداً روحيّاً.

وحيث كان المسيح يَلقى الشك وعدم الإيمان نعرف، من الإنجيل، أنّه لم يكن يصنع عجائب بالكلية.

-٥-

إنّ السيد يصوّر كل شك في القوة العجائبية للمحبة الإلهيّة، أي في قوة الروح القدس، على أنّه تجديف لا يُغفر (متى١٢: ٢٤ــ٣٣). فهو يريد أن يكون الإنسان هيكلاً للروح القدس ومُشاركاً الحياة الإلهية. وهو سعى ليشدّد قوى الإنسان التي يمكن أن تُحرّكه نحو الله.

كما المسيح كذلك كل إنسان يستطيع بقوة الروح القدس أن يجترح عجائب. فالرسل، إذ ذهبوا للكرازة، حملوا معهم وصية السيد أن يطردوا الشياطين ويشفوا المرضى، ويقيموا الموتى (لو٩:١). وسمعوا أيضاً تلك الأقوال النبوية: "من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها" (يو١٤:١٢). وفي الحقيقة فمنذ ذلك الحين يحقّق القديسون على منوال المسيح عجائب.

وإلى ذلك كثيراً ما يجترح المسيح عجائب استجابة لطلبات المؤمنين البسطاء. هذا يجعلنا ندرك مقدار الكرامة العظيمة التي منحها الله للإنسان من خلال الإيمان.

-٦-

إنّ دعوة الله للإنسان أن يعيش حياة إلهيّة ــ إنسانية تتحقق بعضويّته في الكنيسة. في الكنيسة تصُبُّ كل عظات المسيح وعجائبه وإليها تشير عجائب القديسين وتهدف.

إنّ الاشتراك في الحياة الإلهيّة ممكن من خلال الوسائل التي توفّرها الكنيسة. وهي تتم بشكل رئيس من خلال الأسرار وقبل كل شيء من خلال القداس

الإلهي، كما يردد مرات كثيرة الأب يوحنا. ونحن باستماعنا للإنجيل المقدس نُصْغي إلى عظات المسيح والرسل، وتبعاً لمقدار إيماننا، نصير شهوداً لعجائب المسيح ومشاركين فيها.

فإنّ أسرار الكنيسة، بشكل من الأشكال، يمكن اعتبارها تتمة لخط عجائب المسيح. فمن خلالها يُمنحُ كلُّ مؤمن قوة الروح القدس المحيية. وفي القداس الإلهي بشكل رئيس تُمنح مواهب محبة الله الفائقة إلتي تَبهُرُ عيون النفس. فهي تمنح الروحَ القوّةَ ليسود على الجسد وعلى المادة، وفيها قوة الشفاء من الأمراض وطرد الشياطين. تَهبُ التجديد والحياة للنفوس القابعة في ظلال الخطيئة والموت. كل هذه الهبات تؤهّلَ الإنسان لقبول موهبة الروح القدس العظمى، أي المحبة، التي تجمع كل شيء وتبني الكنيسة.

-٧-

إنّ العجائب التي صنعها المسيح كانت تهيئة للعجيبة الكبرى، ذبيحته الخلاصية وقيامته، التي نصنع ذكرها في القداس الإلهي. وبشكل مشابه، فإنّ العجائب التي تحصل في أيامنا تهيّئنا لعشاء السيد السرّي، للاشتراك في موته المحيي وقيامته.

وكما يحصل في العجائب، كذلك في الأسرار فهي تمثّل ظفراً على الشرّ وقهراً له بعد جهاد قاسٍ ورصين. فحياة المسيح الأرضية كانت عبارة عن حرب مستمرة ضدّ الشيطان، ونصره النهائي تحقق بذبيحته على الصليب.

والحرب والجهاد مستمران في أسرار الكنيسة. في سر المعمودية تأخذ هذه الحرب وجهاً وتعبيراً خارجيَّيْن أمّا في الأسرار الأخرى فإنّها حرب غير منظورة في نفوس المؤمنين. والكاهن يواجه الحرب بامتياز، فيجدر به أن يُقيم ذبيحته بقلب يعمُّه السلام، وهذا أمر لا يتحقق له من دون أن يبذل جهداً.

-٨-

إنّ الأب يوحنا كان يبرز في كل العجائب قوة سرّ القداس الإلهي التي تشفي ليس فقط الجسد بل والنفس أيضاً على نحو فائق، نعني بذلك أعجوبة قيامة روح الإنسان من الموت. إلى ذلك، كان دائم اليقين من أنّ اقتراب النعمة لا يكتمل إلاّ بعد صراع مرير ضدّ الشيطان.

في بداية نشاطه الرعائي، كما أفصح هو نفسه عن ذلك أثناء اجتماع الكهنة في سرابول، لم يكن يعتبر أنّه من الاستقامة أن يطلب أحدهم من الله شفاء شخص معيّن، وقد عبّر عن ذلك فقال:

"في أيامنا هذه، قليلة هي المعجزات التي يحققها القديسون. بالنسبة لنا تكفي العجيبة الكبرى، أي تجسد ابن الله الكلمة، آلامه، ذبيحته على الصليب وقيامته. إنّها خطيئة أن نطلب عجيبة أخرى "جيل شرير وفاسق يطلب آية" (متى ١٢:٣٩). هذه الأعجوبة الكبرى تغطي أية عجيبة أخرى. فهي منحت هذا العالم الفاسد مَعيناً لا يَنْضبُ مِن مَنِّ الحياة وعدم الفساد... لا توجد حاجة اليوم لشفاء المرضى وإقامة الموتى... لماذا نقيم الجسد ليعيش ثانية في هذا العالم الفاني، بينما وهو راقد في التراب كالبذار سيتحوّل إلى جسد لا يفنى؟".

إلاّ أنّه، في وقت لاحق، صار الأب يوحنا يصلّي لأجل شفاء المرضى وكثيراً ما كان يجترح عجائب. لقد فهم أنّ إرادة الله تقضي أن تسير الأمور على هذا النحو. كان يشعر أيضاً أن أبسط مقدار من الرحمة والرأفة يعني إمداد الإنسان الموجوع بكلّ راحة ممكنة.

-٩-

على الرغم من ذلك، فإنّ آراء الأب يوحنا بقيت هي هي، واستمر في الاعتقاد أن الأعجوبة الكبرى تتمثّل في عمل الرب الخلاصيّ وإعادة ولادة نفس الإنسان روحياً:

"إنّ الخلاص من الخطيئة المنبثّة في كل ثنايا الوجود البشري لَهُوَ أعجوبة حصلت لنا وتحقّقت بالإيمان بيسوع المسيح، بالاعتماد على اسم الثالوث القدوس، بالتوبة وتناول الأسرار الطاهرة".

وهو أعطى هذه الناحية انتباهه في حديثه عن تاريخ الكنيسة:

"اقرأوا سير القديسين، اقرأوا تاريخ الكنيسة فتعلموا العجائب الحاصلة في حياة القديسين: ذئاب صارت نعاجاً، لصوص صاروا أبراراً... سترون أنّ أناساً مُجلّلين بمجد هذا العالم وسلطانه قد لبسوا الزّيّ الرهباني".

وفي مدوّنات الأب يوحنا، تتكرر فكرته أنّ قيامة النفوس الغارقة في الخطيئة هي الأعجوبة الكبرى:

"تندر اليوم عجائب قيامة الموتى، أي القيامة من موت الجسد. ولكنّ عجائب قيامة نفوس كثيرة من موتها الروحي لا تنفك تحصل، وهذه أعظم بكثير من قيامة الجسد".

"إنّ تجديد نفوس المسيحيّين وتقديسها يمثّلان عجيبة قائمة لا تتوقف. المسيح نفسه يتمّم عجائب تجديد نفوس المؤمنين".

"إنّ المسيحيين الذين يعيشون بحرص وحكمة، واعتادوا أن يلتفتوا إلى المسيح في كل حاجاتهم، يُقرّون دون وجل بعجائب لا تحصى حصلت في عالمهم الداخلي، إنّهم يستطيعون أن ينقلوا جبالاً! لا أقصد جبالاً أرضية، بل جبال أحزان وتجارب تضغط على القلب. بالإيمان يشفون أمراضاً جسدية ونفسية، يغلبون الأهواء ويتطهّرون من أدران الخطيئة وتتشدّد قواهم الخلقية".

ويربط الأب يوحنا بين تحقيق هذه كلها ومناولة الأسرار الطاهرة:

"في سرّ القداس الإلهي، المسيح حاضر بيننا كإله وإنسان. ويتمّم عجائب باهرة في كل الذين يتناولون بوعي! ينهض النفوس، يشفي الإنسان، يقدّسه ويحييه".

وهو لا يكفّ عن دعوتنا إلى المناولة المقدسة:

"خذوا، كلوا. اشربوا من نبع عدم الفساد. عيشوا ولا تموتوا موتاً روحيّاً".

-١٠-

لا بُد من الإيمان حتى تتم عجائب إعادة ولادة الإنسان داخلياً:

"لماذا يا ترى كان السيد يشترط الإيمان كخطوة تسبق إحساناته؟ لأنّ الإيمان هو بمثابة يَدَي النفس وشفتَيْها، بها يتناول الإنسان مواهب الله".

وحتى يَقوى الإيمان وتنفتح "شفتا النفس" فتستأهلا المواهب الروحيّة السامية، حصلت العجائب. هي شهادة المحبة الإلهية، مدخل إلى فرح الملكوت، طريقة لإعلان كلمة الله:

"يا رب! كيف يمكنني أن أسبّحك وكيف يمكنني أن أمجّدك لأجل عجائب أسرارك الطاهرة؟ أشعر بقوّتها في ذاتي، وأعاينها في عبيدك الذين يتناولون بعد اعتراف صادق... يا رب، إنني، وأنا شاهد عيان لعجائبك، لم أمجّدك حتى الآن أمام كثيرين لكي يقوى إيمانهم... أنت يا رب مجِّد اسمك وأسرارك".

هنا يعترف الأب يوحنا بأنّه لم يمجّد الله كما ينبغي على عظمة أعماله لكنّه، في وقت لاحق، لن يكفّ عن الشهادة له ولمحبته الإلهية. والله كان يستجيب صلواته واتخذه أداة صالحة يُمجّد بها اسمه وأسراره.

-١١-

من بين مختلف حوادث الأشفية التي حدثت على يد الأب يوحنا سنختار، في البداية، بعضا من تلك التي يرويها بنفسه، وخاصة تلك التي ترتبط بالمناولة المقدسة:

"كان أحدهم يعاني من مرض مميت في معدته، وقد استمرت آلامه مدة تسعة أيام دون أن يستطيع الأطباء أن يهدّئوها. أحضرتُ له المناولة المقدسة؛ شُفي في عشية ذلك اليوم، نهض من الفراش مساء..."

"لقد تناول بإيمان ثابت، وأنا كنت، فيما سبق، قد صلّيت بحرارة لأجله قائلاً: يا رب أنت حياتنا، كما هو سهل عليَّ أن أتصور شفاءه فإنّه أسهل عليك أن تمنحه إيّاه. كما هو سَهل عليّ أن أُفكّر بقيامة الموتى، فإنّه أسهل عليك يا رب أن تحقّقها. إشفِ إذاً عبدك باسيليوس من مرضه الرهيب".

" والرب الكثير الرحمة والرأفة رحمه ووهبه الصحة... المجد لقدرتك يا رب".

وفي ما يلي حادثتان متشابهتان:

"أزدادُ اندهاشاً وتعجباً لقوة الأسرار الطاهرة المحيية!... امرأة عجوز على حافة الموت استعادت صحتها فور تناولها الأسرار المقدسة. وشابة على فراش الموت شرعت أحوالها تتحسّن بعد المناولة. المجد لأسرارك المُحيية يا رب".

ويبين الأب يوحنا بدعوته التالية قوّة الأسرار الطاهرة:

"أدعُ أباك الروحي إلى بيتك واطلب إليه أن يحضر الأسرار الطاهرة، جسد الرب ودمه، مؤمناً بأنّ رجاءك لن يخيب. عديدة هي الحالات المَرضية التي واجهتها في خدمتي الرعائيّة وشُفيَت بالاعتراف والمناولة ".

-١٢-

وهناك شهادات أخرى للأب يوحنا لأشفية حدثت معه خارج الأسرار المقدسة، لكنه كان يربط الأمر بكونه هو نفسه يتناول يومياً ومن الأسرار المقدّسة كانت صلاته تستقي قوّتها:

"إن الولدين بولس وأولغا استعادا صحتيهما بواسطة صلاتي أنا الحقير. لقد صلّيت تسع مرات بإيمان ثابت برحمة الله. وكنت أفكر بأنّه، إذا كان القاضي الظالم حسب الرواية الإنجيلية قد أنصف أخيراً المرأة التي طلبت إليه بإلحاح أن ينصفها، فإنّ قاضي الجميع سيستجيب لصلاتي الحقيرة لأجل طفلَيْن بريئَيْن... وفي الحقيقة صنع الله معجزته... في المرة العاشرة التي قصدت فيها الولدين وجدتهما صحيحَيْن معافَيَيْن!".

يقول الأب يوحنا، بالإضافة إلى ما أورده سابقاً في أحاديثه مع الكهنة:

"لقد دعاني السيد إلى خدمة البشر من خلال الصلاة. وإني شاهد لحوادث أشفية متعددة من أمراض مختلفة. في فترة زمنية قصيرة جداً، أو حتى في اللحظة نفسها، كنت أُعاين معجزات شفاء عميان، طرش، خرس ومرضى آخرين".

-١٣-

المعجزات شهادة محبة الله. بها يتقوّى مَن إيمانه غير ثابت ويتشدّد. أمّا الذي يؤمن بثبات فهو لا يشك في أنّ محبة الله قادرة على صنع المعجزات:

"الله كائن كلّيّ الصلاح والحكمة والقدرة... يمنح مواهبه بغزارةٍ كونه كلّيّ الصلاح، بحكمةٍ كونه كلّيّ الحكمة، وفي كل وقت وفي أي مكان كونه كلّيّ القدرة".

ونعثر في الأدب المسيحي على اعتراف يتكرر دائماً وهو أنّ أعظم معجزة في العهد الجديد هي يسوع المسيح نفسه الإله ـ الإنسان. وبالتالي فإنّ القديسين الذين تشبّهوا، أكثر من غيرهم، بالمسيح يمثّلون هم أيضاً معجزة، أكانوا يصنعون عجائب أم لا.

هذا كان الاعتقاد الراسخ عند الكثيرين بشأن الأب يوحنا. وصرّح رئيس كهنة خرسون وأوديسا، نيانور، بما يلي:

"في الحقيقة إنّ الأب يوحنا صانع معجزات لأنّه أحيا الإيمان بقدرة الله وقوته، تلك القوة التي تُمنح للوجود البشري حتى في أيامنا الحاضرة التي يسودها الشقاء وقلّة الإيمان".

الفصل الثاني والعشرون

قوة صلاة الأب يوحنا

-١-

إنَّ كثرة انشغال الأب يوحنا، من جهة، وتواضعه اللامتناهي، من جهة أخرى، لم يُفسحا له المجال في تدوين العَّديد من معجزات صلاته. لذلك، ومهما كانت شهادته الشخصية مهمة، نجدنا مضطرين للإلتفات إلى مصادر أخرى. من خلال اعترافات العديد من الشهود لا ينكشف لنا فقط عدد المعجزات الهائل، بل بشكل رئيس قوّة وشفاعة صلاة الأب يوحنا التي تصحبها موهبة رؤية المستقبل والتي لا يأتي هو نفسه على ذكرها إطلاقاً.

ونقرأ في تقرير أعده الأب أ.أ. سولوغوب في نيويورك في يناير عام ١٩٥٧:

"إنّ المعجزات التي تمّت على يد الأب يوحنا عديدة إلى درجة أنّه بين أربع عائلات أرثوذكسيّة مؤمنة ثلاث منها تروي قصة تحدّثنا عن مساعدته العجائبية أو عن موهبته في رؤية المستقبل".

وواضع هذا الكتاب تأكد، وبشكل مستمر، من كل هذه الأمور طيلة فترة إعداد الكتاب. فمنذ انتشر موضوع الكتاب، انهالت المعلومات من كل حدب وصوب تُبيّن نتائج صلاة الأب يوحنا العجائبية. إلاّ أنّه، بسبب ضغط الوقت، لم يورد الكاتب سوى القليل منها هنا. في العمق هذه المعلومات ما كانت إلاّ لتزيد عدد الأحداث التي باتت معروفة عند الجميع. إلى ذلك، فإنّ تشابهها يُقنعنا بمصداقيّة هذه الروايات أيّاً كان مصدرها.

-٢-

كما نعرف فإنّ الأب يوحنا شرع في الصلاة من أجل شفاء المرضى مدفوعاً من سيدة عجوز تقيّة. وهذه السيدة كانت أمّاً روحيّة تدعى براسكيفي كوبريينا، وقد نَذَرَت نفسها لله منذ صغرها. وقد عُرفت فيما بعد بحدسها الروحي ومواهبها.

أحد تلاميذ الأب سيرافيم ساروف، الأب المتوحّد إيلاريون، أرسل هذه السيدة التقية إلى كرونشتادت لتعاون الأب يوحنا في عمله، إذ رأى فيه ذاك الذي سيصير كوكباً روحياً في الكنيسة. ومنذ اللقاء الأول به، عرفت هذه السيدة مواهبه الروحية وسَعت منذ البداية، وكان بعدُ غير معروف، إلى إطلاق شهرته عبر أحاديثها المختلفة.

ولما تعددت خدماتها، وقد اتّسمت كلّها بالمحبة والتضحية، عمد الأب يوحنا إلى تكريمها في يوم دفنها إذ قال موجّهاً كلماته إليها:

"بالقول وبالمثال أرشدتِ الكثيرين إلى الكنيسة وإلى حياة التقوى والإيمان. لقد علّمتِهم أن يعترفوا باستمرار وأن يشتركوا في مناولة الأسرار الطاهرة".

أمّا شهرته الواسعة في روسيّا كرجل صلاة وطبيبٍ شافٍ فقد انتشرت منذ عام ١٨٨٣ من خلال مقالة شكر موقعة من عشرات الأشخاص نُشرت في جريدة "النيو تايم" الروسيّة في عددها الصادر في العشرين من ديسمبر. وهؤلاء عبّروا عن شكرهم الأب يوحنا وامتنانهم له لأجل شفائه أمراضاً مختلفة عجز العلم عن تقديم علاج لها على الرغم من قضاء أصحابها سنين طويلة طريحي الفراش في المستشفيات.

وانتهت المقالة بهذا التصريح:

" سوف نتذكر دوماً المساعدة الحاسمة للطبيب الشافي، راعي كرونشتادت، وكذلك نصائحه وإرشاداته الخلاصية لأجل حياة مسيحية واشتراك متواتر في الأسرار الطاهرة".

-٣-

عديدة هي المعجزات التي حصلت معه عن " بُعْد"، في استجابته للعديد من الطلبات التي وردته عبر رسائل أو تلغرافات. وبين هذه الحالات نميّز أشفية أشخاص كدّرتهم الشياطين، بالإضافة إلى عميان وسكارى.

وقدرته الشفائية كانت تنكشف بشكل رئيس أثناء تقدمته القرابين المقدسة. بصلاته كان يقوّي إيمان المتناولين من الأسرار الطاهرة حيث كانوا يتناولونها بالحقيقة "لشفاء النفس والجسد".

وإليكم ما يخبرنا إيّاه الأب شوستين في كتاب له "ملاحظات حول الأب يوحنا كرونشتادت وآباء أوبتينو" (الكنيسة البيضاء ١٩٢٩):

"إذ كنتُ بعد شاباً ثقُل المرض فجأة على والدي، شخّص الطبيب سمنوفسكي المرض بالتهاب حاد في الحلق، وقد أدّى به الأمر إلى فقدان الصوت. وقد قدّر الطبيب أنّ المريض لن يبقى على قيد الحياة أكثر من عشرة أيام".

"في تلك الأثناء عاد الأب يوحنا إلى كرونشتادت، فأرسلنا له تلغرافاً وطلبنا إليه المجيء إلينا. ففعل بعد خمسة أيام، وعند حضوره بادرنا بالقول: "لماذا لم تخبروني أنّ حالته خطيرة إلى هذه الدرجة؟ إذاً لكنت أحضرت معي الأسرار الطاهرة". فنظر إليه والدي متوسّلاً".

"رجع الأب يوحنا إلى ذاته واستغرق على هذا النحو لبعض الوقت، وبعد حين سأل والدي: "هل تؤمن أنني بقوة الله أستطيع مساعدتك؟". فأومأ والدي برأسه إيجاباً. فأمره حينئذ الأب يوحنا أن يفتح فمه ونفخ فيه ثلاث مرات على شكل صليب. ثم ضرب بيده الطاولة الصغيرة حيث وُضعت الأدوية التي كان يتناولها، فوقعت كلها على الأرض، فقال: "ارموا هذه كلّها على الفور، لن تنفعك بشيء على الإطلاق، تعال إلى كرونشتادت كي أناولك الأسرار الطاهرة...".

"في المساء حضر الطبيب سمنوفسكي وأحضر معه الطبيب أوكونف وهو أخصّائي بهذه الأمراض. أطلعناهما على قرارنا الذهاب في اليوم التالي إلى كرونشتادت. فأجاب سمنوفسكي أنّ المريض سيلقى حتفه على الطريق. أما

والدي فقد آمن بما قاله الأب يوحنا. التقاه أخيراً وتناول على يده، ثم بقي يومين في كرونشتادت. وحين عاد إلى البيت كان بانتظاره الطبيب سمنوفسكي وكانت المفاجأة: زال منه الالتهاب كلياً، أمّا صوته فقد بقي ضعيفاً. فعبّر الطبيب عن دهشته أمام الجميع قائلاً: "لم يُرَ مثل هذا الأمر سابقاً! إنّها أعجوبة بكل معنى الكلمة!". وقد عاش والدي بعدها مدة خمسة وعشرين عاماً".

هذه لم تكن الحادثة الوحيدة التي طلب فيها الأب يوحنا إلى المريض أن يأتي إلى كرونشتادت ليناوله.

وفي حادثة شفاء أخرى جرت إثر تناول امرأة مسنّة الأسرار الطاهرة، يكتب الأب يوحنا قائلاً: "تناولي يا سيدتي فإنّ الرب سيشفيكِ". فأردفت المريضة المسنّة أنّها كبيرة في العمر وليس باستطاعتها الشفاء. فأجابها الأب يوحنا: "ليس من شأننا أن نعرف الأزمنة والأوقات التي حددها الله". وإذ قال له أقرباؤها أنها قد تناولت في ما مضى، قال لهم: "المسيحيون الأوّلون كانوا يتناولون يومياً بينما هي ترفض أن تتناول الآن وهي طريحة الفراش وفي حاجة ماسة". في نهاية الأمر، تناولت المريضة الأسرار الطاهرة وتماثلت إلى الشفاء في وقت وجيز.

وأيضاً كان ينصح المرضى مراراً كثيرة أن يلتجئوا إلى سر المسحة المقدسة.

وفي ما يلي حادثة شفاء الأميرة يوسوبوفا كما قصّتها هي نفسها على الأب فيكتور إيلينكو:

"سنة ١٨٨٤ تعرضت الأميرة لتلوّث في الدم ناتج عن ولادة مبكرة. وقد قام بمعاينتها الطبيب بوتكين. في إحدى الليالي التي كانت تقضيها في أرق، ما كانت صورة الأب يوحنا تَبْرحُ ذهنها. وفي صباح اليوم التالي عبّرت عن رغبتها في رؤيته، فقال لها والدها: "وأنا أيضاً كنت أرى في النوم صورة الأب يوحنا وأرغب في أن أدعوه إلى هنا حتى يصلّي..."

"عندما وضع الأب يوحنا يده على رأس الأميرة شعرت على الفور براحة مفاجئة. ساعتها جَثا الأب يوحنا أمام أيقونة وشرع يصلّي... وعند مغادرته قال: "لن تموت"، رغم أنّ الأطباء كلّهم قد أجمعوا على العكس تماماً. عند المخرج التقى الأب يوحنا الطبيبَ الذي بادره: "ساعدنا"، الأمر الذي جعل الجميع يندهشون

ويتعجّبون. خلّفت هذه الزيارة الأولى الراحة للمريضة ولكنها لم تؤثّر على سير المرض. أمّا في الزيارة الثانية فقد حاول أن يقنع المريضة بأن تتناول. وحسب تعبير الأميرة نفسها: "أتى أبونا وجلس على فراشي وقال لي أنَّ حياتي أو موتي هما بيَدِ الله وحده، ولكن علينا نحن أن نتهيّأ لحياة جديدة بتناولنا الأسرار الطاهرة. فأجبته أني أتهيّأ للمناولة قبل الفصح. ساعتها بدا أكثر إصراراً في محاولته إقناعي بأنّه ينبغي ألاّ أؤجّل، حتى ولو أنَّ الفصح ليس بعيداً، وأبدى استعداده للذهاب على الفور ليُحضر القرابين المقدسة".

"والمريضة، إذ تناولت بفرح، غرقت في النوم لمدة ستة أيام، وعندما استيقظت كانت صحيحة بالكلية!".

أمّا الطبيب المعاين فإذ عاين بدهش التغيّر الحاصل بقي صامتاً ساعات... وانهمرت على وجنتيه دمعتان، ثم قال متنهداً: "لم يكن بمقدورنا نحن البشر أن نعالج هذا المرض".

"وبعد أسبوع نهضت الأميرة من الفراش وراحت تمشي دون مساعدة أحد. لقد مرّ على تلك الحادثة نصف قرن، ولكن ذكرى تلك التجربة بقيت في ذاكرتها لا تُمحى. لقد طبعت نفسها بشكل عميق".

-٤-

لم يكن باستطاعة الأب يوحنا أن يناول المرضى دائماً، فكثيراً ما كان يضطرُّ للإكتفاء بالصلاة. عادة كان يبدأ الصلاة بخدمة تقديس الماء، وتتبعها طلبة لأجل غفران خطايا المريض ثم يرفع صلاته لأجل شفائه. كانت هذه الصلاة عفوية وكانت تدهش الحضور بحرارتها وبساطتها وشفاعتها. في بعض المرات كان يرفق صلاته بأمر المريض بالنهوض أو بوضع يده عليه، ولكنه كان دوماً ينضحه بالماء المقدس.

هكذا شفيت الأميرة إيريني برياتنسكي. والحادثة مثيرة للاهتمام وهي وردت، للمرة الأولى، سنة ١٨٩٢ في صحيفة المواطن ووردت، مرة أخرى في وقت لاحق، سنة ١٩٣٨ في رسالة شقيقة الأميرة التي كانت شاهدة لحادثة الشفاء.

"إن ابنة الثلاثة عشر عاماً التي كان محكوماً عليها أن تبقى مشلولة الرجلَيْن جالسة على الكرسي مدى حياتها قد قامت ومشت إثر صلاة الأب يوحنا لأجل شفائها. أما الفتاة فقد كانت تحت إشراف أفضل الأطباء: روشفوس، ربالكين ومرزفسكي".

هناك حادثة أخرى مميّزة بصدقها وتبرز لنا محبة الأب يوحنا للأولاد وهي قصة القبطان أندراوس نيكيتن. يخبرنا هذا الأخير كيف وقع طريح مرض تيفوئيد في الأمعاء عندما كان في الكلية البحرية:

"كنت في حالة خطيرة، انخفض نبضي إلى أدنى درجة. في هذه الأثناء نجح والدي في العثور على الأب يوحنا. وفي وقت متأخر من الليل دخل عليّ واقترب من سريري وقال لي: "أندراوس!" رغم أني كنت في الأيام الأخيرة غير واعٍ إلاّ أنّي تعرّفت على وجه أبينا وابتسمت له. فجثا الأب يوحنا بالقرب من السرير قائلاً: "هلمّ نصلّي". وكل الذين كانوا بالقرب منه جَثوا على ركبهم. صلّى الأب يوحنا بحرارة وأنا كنت أردّد الصلاة من بعده. وعندما أتمّ صلاته باركني وقال لوالدتي: "سيتعافى". ومنذ ذلك الحين بدأت أشعر بالتحسن إلى أن تعافيت كلّياً".

-٥-

من بين حوادث الشفاء التي تمّت بوضع الأب يوحنا يَدَه، يورد لنا نَسْطور، أسقف بتروبافلوسك وكامشتكا، أثناء اجتماع عام في بلغراد عام ١٩٣٣، حادثة شفاء تتعلق بوالدته:

"... أتى الأب يوحنا إلى البيت ورتّل البراكليسي ثم اقترب من السرير ووضع يده على رأس المريضة. "ستتعافين" هذا ما قاله لها. بعد ذلك شُفيت تماماً من دائها وعاشت سنوات عديدة".

وهذا الأسقف كان شاهداً أيضاً لحادثة شفاء طفل صغير لم يكن باستطاعته أن يمشي. بعد خدمة البراكليسي التقط الأب يوحنا يده قائلاً: "هيّا، لنذهب" فنهض الطفل على القور وتبعه! ثم قبّل الصليب والإنجيل.

وبطريقة مشابهة شُفي ثيودوروس باسكوفسكي وهو بعد طالب في إكليريكية كييف، وقد صار فيما بعد المطران ثيوفلس في أميركا: "صدمت رجله سنة ١٨٩٢ أثناء اشتراكه في أحد الألعاب. بقي طريح الفراش مدة خمسة أشهر في عيادة الطبيب سكورسكي. عاد إلى الإكليريكية ولم تكن صحته قد تحسنت بعد. وهناك بدفع من الطبيب ومدير الإكليريكية، اللذَيْن اعتقدا أن مرضه لا شفاء منه، تقدّم بطلب إعفاء".

"في تلك الأثناء عينها تناهى إلى الآذان أن الأب يوحنا وصل إلى كييف. بسرعة البرق خطرت في ذهن الصبي فكرة المعجزة. وبمساعدة المدير تمكّن من الوصول إلى الأب يوحنا في قاعة الانتظار في محطة القطار، وذلك قبل مغادرته إياها بقليل. هناك أُخبر الأب يوحنا عن حالة الصبي. وأضاف الطبيب سكورسكي، وقد كان حاضراً هناك، أنَّ مرضه لا شفاء منه".

"آخ، هذا لا ينفع شيئاً! أجاب الأب يوحنا. أنت طالب في المدرسة الإكليريكية، يجدر بك أن تصلّي! تعلّموا أن تُصلّوا بحرارة! اجثوا على رُكبكم!".

"وضع يده على رأسه، ثم باركه ناصحاً إياه: "صلِّ وادرس". عاد الصبي إلى الإكليريكية، وهناك بهدوء الليل صار يُصلّي أمام أيقونة المخلص. وراح يتابع الدروس وتقدّم من الامتحانات ونجح فيها. لقد تعافى من مرضه الذي لا شفاء منه".

هناك الكثير من المعلومات التي تتناول الأب يوحنا نعثر عليها في كتاب وضعه سوركي. وقد عثرنا فيه على حادثة شفاء مستشار ومفتش ضرائب في مقاطعة أولونير، يُدعى شولتز، وهو لوثري العقيدة. كان يُعاني من داء السكّري، وقد أهمل نفسه إلى درجة جعلت الأطباء يعتقدون أنّه لن يبقى على قيد الحياة أكثر من شهر واحد.

وعلى حسب ما تُخبر زوجة شولتز، السيدة هيلانة كشنكو، فإنّ الأب يوحنا، في محاولته تفادي الجمع في أحد الأيام، التجأ إلى بيتهما على سبيل المصادفة. وإذ كان صاعداً السلم المؤدية إلى المنزل حيث كانا يعيشان، مرّ بالسيّد شولتز وكان جالساً على كرسي أمام الباب. اقترب منه الأب يوحنا ووضع يده عليه وقال بصوت عالٍ وبوضوح: "فلتكن معافىً". وبعدها غادر المكان وتوجّه إلى

عربته. في تلك الليلة، نام السيد شولتز ملء جفنَيْه دون أن يتعرض لأيّة نوبة. في الزيارة التالية لطبيبه، تيقّن هذا الأخير أن دمه كان خالياً خلواً تاماً من داء السكّري.

وهناك قصة أخرى، لا تخلو من الفكاهة، عن خيّاط حُلَل كهنوتية يدعى ب. ثيودوروفتش كان يعتمره الرجاء أن يشفيه الأب يوحنا من مشكلة عنده في النطق، وبالفعل فقد تحقق رجاؤه:

"في صيف ١٨٩٣ انتظر الخياط الأب يوحنا في موسكو وسط جمع كثيف، وسعى جهده في الاقتراب منه. كان يتصور أن اللقاء به سيدمغ حياته كلها. فشرع إذاً بإطلاق صيحات قائلاً: "باتوشكا صلِّ لأجلي". فربّت الأب يوحنا بيده اليمنى على وجنة الخياط اليسرى قائلاً: "تكلّم بوضوح... تكلّم بوضوح". وحدثت المعجزة! هكذا انتهت مشكلة الخياط وما عادت تزعجه".

في بعض حالات الشفاء، كان الأب يوحنا يطلب إلى المريض النهوض، كما حصل في الحادثة التالية، حيث كانت زوجة أحد الأطباء تعاني من تيفوئيد في الأمعاء. فلما قام الأب يوحنا بزيارتها، سألها أن تنهض أثناء إقامته الصلاة. ولّما انتهى، بادرته المريضة تسأله إذا كان يرغب ببعض الطعام. فأجابها الأب يوحنا: "عندما أشعر نفسي متعباً بعض الشيء، أرغب باحتساء قليل من النبيذ الأبيض ولكن، حسب العادة الروسية، على صاحبة البيت أن تسعى بيدها في تقديم النبيّذ لضيفها". فنهضت السيدة المريضة ومشت بخطوات ثابتة وأحضرت له النبيذ وقدّمته له. وما هي سوى أيام حتى تماثلت إلى الشفاء كلّيّاً.

-٦-

عديدة هي الأشفية التي تمّت بصلاة الأب يوحنا بينما كان هو نفسه على مسافة بعيدة. ونسمع من المتقدم في الكهنة الأب الأستاذ زنكوفسكي عن حادثة وقعت سنة ١٨٩٢ عندما كان أخوه فلاديمير، وهو ابن ثلاث سنوات، طريح مرض المينانجيت. فأرسلت أم الطفل تلغرافاً إلى الأب يوحنا ترجوه فيه أن يصلّي لأجل ابنها. وبعد وقت قليل تلقّت الإجابة: "أنا أصلّي، أمّا أنتم فأقيموا صلاة

البراكليسي في كنيستكم". ومباشرة بعد استلام الوالدة هذا التلغراف، بدأت حالة الصبي تتحسن وتماثل إلى الشفاء.

ونورد في ما يلي أربع حوادث مشابهة:

ـ الحادثة الأولى، وهي شهادة فيكتور أسقف بكين والصين: "عندما كنت ابن ثمانية عشر شهراً، أُلِمَّ بيَ مرض الاريسبلاس ورفع الأطباء أيديهم لجهة شفائي منه. ساعتها أرسل والدي برقية إلى الأب يوحنا، فأتى ردُّ هذا الأخير على هذا النحو: "لقد صلّيتُ لأجله، قريباً سيتعافى...".

ـ الحادثة الثانية، وهي شهادة الأب سرجيوس أورلوف المتقدّم في الكهنة في جنيف:

"عندما كنت كاهناً في ريازان سنة ١٨٧٤، أتى لرؤيتي أحد أعضاء الرعية، السيد ن. يورفيتش، وأخبرني أنّ زوجته تعاني من مشكلة في أذنها اليسرى. طلب إليّ أن أصلّي لأجلها، ثم توجّه إلى مركز الاتصالات ليوجّه برقية إلى الأب يوحنا. في اليوم التالي عاد وقد انفَرَجَت أسارير وجهه وأخبرني أنّه، بينما كانت زوجته تعاني من آلام مبرّحة، فجأة توقف كل شيء وغابت في سبات عميق. لقد حدث ذلك بالضبط في الوقت الذي استلم فيه الأب يوحنا البرقية. أمّا الطبيب الذي أتى لمعاينتها في صباح اليوم التالي فقد عبّر عن تعجّبه قائلاً: "ما هذه المعجزة، لقد اختفى المرض!".

ـ الحادثة الثالثة، وهي شهادة أحد موظفي القطاع العام، السيد سمبلسكي:

"أُصبت بمرض الدفتيريا وأنا في الرابعة من عمري، التجأ ذويّ إلى صلوات الأب يوحنا، فأبرق إليهم هذا الأخير قائلاً لهم أنّه سيصلّي لأجلي في وقت معيّن. وفي الوقت المعيّن بدأت حالتي تتحسن. أمّا والداي فما برحا منذ ذلك الحين يذكّراني بوجوب عدم نسيان الحادثة وأن أشعر بالامتنان تجاه الأب يوحنا".

ـ الحادثة الرابعة، وهي شهادة الجنرال مخائيل خورتشيف:

"أشعر أنّه من واجبي أن أخبر عن تفاصيل شفائي الذي حدث بفضل صلوات خادم الرب، الأب يوحنا كرونشتادت. كنت حينها طالباً في الكلية

الحربية، وكنت أتعرض للبرد كثيراً. التهبت رئتي اليسرى ثم تفاقمت الأمور بشكل سيِّئ. فأعلم طبيب الجيش ذَويَّ بالوضع. فعمدت والدتي، وكانت تؤمن كثيراً بشفاعة صلاة الأب يوحنا، إلى إرسال برقية إليه. فأجابها ذاك: "إنّي أصلّي لأجل شفاء مخائيل". وبعد بلوغ هذا الخبر إلينا، نمتُ نوماً هنيئاً. بعدها استيقظت وقد عادت حرارتي إلى طبيعتها".

هناك حالات شفاء أخرى حصلت في الخارج، منها نذكر شفاء ملك بلغاريا، بوريس، عندما كان في الثامنة من عمره. فقد بدأ الصبي باستعادة صحته على إثر برقية أرسلها والده، الملك فرديناند، إلى الأب يوحنا يطلب فيها صلاته لأجل ابنه، وكان الملك فرديناند قد التقى الأب يوحنا أثناء حفل تتويج القيصر نيقولا الثاني.

كثيرة أيضاً الحالات التي يظهر فيها الأب يوحنا في الحلم لبعض المرضى أو لبعض المقرّبين منهم، من الذين كانوا يرجون شفاء المريض. هكذا شفي الصبي أ. سفرينوف من مرضه بعد أن رأى في الحلم الأب يوحنا يُقدم له المناولة المقدسة. وتندرج في هذا السياق حادثة شفاء السيد روغوني من مرض الصرع حيث رأت والدته الأب يوحنا في الحلم مقبلاً من الباب الملوكيّ في الكنيسة حاملاً الكأس المقدسة، وذلك قبل أن ترسل إليه برقية لتطلب صلاته.

وهناك عدد لا يُحصى من شهادات مماثلة لتلك.

الفصل الثالث والعشرون

إيمان الشعب بصلاة الأب يوحنا

-١-

كما أشرنا سابقاً فإنّ شفاء العميان والسكارى والممسوسين بالشياطين قد تميّز بطابع خاص، ولا سيّما شفاء هؤلاء الذين تمرمروا من الشياطين إذ كان أمرهم يتطلّب من الأب يوحنا سيطرة على الذات وقوة صلاة. فهؤلاء كانوا يقعون في اضطراب كبير أمام كل غرض مقدس، وهم لا يكفّون عن التفوّه بالشتائم والكلام البذيء والتجاديف، يُزبدون في بعض الأحيان كما ويكشفون عن قوة بدنية خارقة أحياناً أخرى، وهم لا يتورّعون عن التصادم مع كل من يقترب إليهم حاملاً غرضاً مقدساً.

كثيراً ما يتفوّهون بأقوال شيطانية لكنّهم، في أوقات الهدوء، يشعرون أنّهم كانوا تحت تأثير الشيطان ويتعذبون من هذه الحالة إلى حدٍّ كبير. وجوههم تعبّر، بشكل رئيس في ساعات "النوبة"، عن شقائهم الكبير وحالتهم الرهيبة.

علم النفس المعاصر لا يتطرق، في مجال بحثه ودراسته، إلى الأسباب الماورائية لمثل هذه الأمراض، ولكنه، أكثر فأكثر، يُصرُّ على واقع أنّ معظم الأمراض النفسية والعصبية مرتبط بوضع الإنسان الخُلُقيّ. وهي تشهد بشكل خاص لواقع أنَّ الأسباب الأساسية للاضطرابات العقلية تكمن في التكبر والأنانية. هذه الملاحظات والخلاصات تُقرّب العلم الحديث من التفسير المسيحي لهذه الأمراض وتدفع بعض العلماء إلى الإقرار بأنّ التفسير المسيحي لا يتعارض مع التفسير العلمي.

-٢-

بالطبع، كان الأب يوحنا يدرك جيداً هذه الظواهر، وكان يواجهها على ضوء التعليم الإنجيلي ويتصرّف بهذا الاتجاه.

وقد حُفظ لنا العديد من الأحداث التي جرى فيها طرد شياطين من أشخاص بفعل صلاة الأب يوحنا. وهذه الروايات تحمل ملامح مشتركة. ونحن سنعرض لبعض الأمثلة فقط في هذا المجال.

يروي لنا الأب أ.أورناتسي حادثةَ شفاء إحدى هذه الحالات في ١٤ مارس ١٩٠٢ في إحدى كنائس في مدينة بطرسبرج:

"حالما سمعت الصبية القروية صوت قرع الأجراس، سقطت أرضاً، وراحت تتخبط وتُزبد. كانت تدعى ثيوذوسيّا وتعيش في قرية زلزنوفا. سعت بكل قواها إلى عدم قبول أي اقتراح بالذهاب لحضور أية خدمة في الكنيسة. وإذا صادف أن تكون حاضرة في الكنيسة، فإن العوارض الشيطانية كانت تعاودها في اللحظات الأكثر قدسية في الخدمة".

"وقرر ذَووها أن يطلبوا إلى الأب يوحنا مساعدته. في أحد القداديس قرّبوها من الكأس المقدسة. فأغمضت عينيها وراحت تطلق أصواتاً مرعبة، وعلى وجهها ارتسمت تعابير الخوف. عمد ثلاثة رجال إلى ضبطها دون حراك. توقف ساعتها الأب يوحنا عن إعطائها المناولة ووضع يده عليها وحوّل نظره إليها وحدّق فيها صارخاً: "باسم ربنا يسوع المسيح آمرك أيها الشيطان أن تخرج".

"كرّر الأب يوحنا هذه الكلمات مرّات عدة... أما داخل الكنيسة فقد أسدل الصمت ستاره. كانت تسمع فقط أصداء كلماته: "اخرجْ الآن، فوراً"، "اخرجْ بسرعة". أما الشيطان فكان يُجيب بلسان المريضة: "سأَخرج، سأَخرج حالاً".

"استمرّت هذه الحالة ثلاث دقائق، بعدها توقفت الأصوات. كانت الصبية تتنفّس بعمق وعيناها مغلقتان، ساعتها تركها الرجال حرّة. فقال لها الأب يوحنا ثلاث مرات: "افتحي عينيكِ". بصعوبة وجهد فتحتهما، فأشار عليها أن ترسم

إشارة الصليب. في المرة الأولى رسمت إشارة الصليب بعناء، أما فيما بعد فكانت ترسمها بسهولة أكبر. "ما اسمك؟" سألها الأب يوحنا. "ثيوذوسيّا"، أجابت الصبية ورسمت الصليب بسهولة كلّية".

"بعدها دعاها للمناولة فاقتربت، دون أدنى مساعدة وبهدوء، وتناولت الأسرار الطاهرة بتقوى وورع. "لقد شُفيَت كلياً"، أردف الأب يوحنا يقول لكلّ الذين كانوا يسألونه عمّا إذا كانت الشياطين ستزعجها في المستقبل".

أحدهم، ويدعى ب. بوبوف، يخبرنا كيف رافق مرة الأب يوحنا سنة ١٨٩٠ في رحلة له من أرخنجلسك إلى موسكو. وفي إحدى المحطات أحضر رجلان قويّا البنية امرأة وقد أمسكوها جيداً من يدَيْها. كانت منحية القامة ومظهرها موحش للغاية. على وجهها إمارات الرعب. وحالما اقترب منها الأب يوحنا صارت تطلق صيحات تشبه نباح الكلاب. وضع يده اليسرى على رأسها وبيمينه رسم إشارة الصليب قائلاً هذه الآية: "ليقم الله وليتبدد جميع أعدائه". فاشتدّت الصيحات قوة.

"اعترانا الخوف والدهش. أما وجه الأب يوحنا فكان يعبّر عن إرادة قوية وتصميم، كان العرق يغطّيه وكان دلالة على رحى معركة روحية قاسية".

"ثم بدأت الصيحات تضعف شيئاً فشيئاً. تنفّست المرأة الصعداء، لانَ جسدها تَعِبَ، واستنار وجهها فجأة وسقطت على الأرض أمام الأب يوحنا، والدموع تغطّي وجهها، شاكرةً الرب مخلصها وطبيبها. ولقد قيل أنّها تعذبت في حالتها على مدى سبع سنين".

أما مرافق الأب يوحنا فسأله لاحقاً مستفسراً: "لماذا تُلاحَظ سلطة الشياطين بشكل رئيس عند الطبقات الشعبية من الناس؟".

فأجابه الأب يوحنا: "يحصل هكذا بسماح من الله، أما السبب فهو أنّ الشيطان يريد تجربة إيمان الشعب وتقواه. الشيطان يكره بشكل خاص المؤمنين البسطاء ويعاديهم. فهو لا ينشغل بالملحدين وعديمي الإيمان المثقفين، الذين لا يعترفون بوجوده، إذ قد سبق له أن بسط سلطانه عليهم".

-٣-

أمّا العميان فقد تميّزت حالات شفائهم باستخدام شبه دائم للمياه المقدسة. ويخبرنا الأسقف سيرافيم بوغاشورسكي عن أعمى اقتيد إلى محطة غولوت ساعة توقف القطار الذي كان يُقلُّ الأب يوحنا. فأمره هذا الأخير أن ينزع المنديل الذي وضعه على عينَيه. ثم أقام خدمة تقديس الماء وغسل المنديل بالمياه التي جرى تقديسها ومسح به عينيّ الأعمى ثلاث مرات. وفجأة صاح الأعمى: "إنني أُبصر، لقد استعدت نظري". سقط عندئذ عند قدمي الأب يوحنا وراح يُقبلهما، وصنع ذووه الأمر نفسه لشدة الفرح الذي اعتمر نفوسهم. فاضطّر شرطي في نهاية الأمر إلى إبعادهم عن الأب يوحنا.

والكولونيل أ. شنور، وهو عمل سابقاً في إدارة القوات المسلّحة، يسرد لنا كيف أنّه سنة ١٨٧٠، وهو بعد في السنة السادسة من عمره، أطلّ برأسه من نافذة القطار. وما هي إلاّ برهة حتى دخلت عينه قطعة من الفحم المشتعل. فَقَدَ البصر في العين المصابة وبدأ رويداً رويداً يفقد البصر في العين الأخرى. حاول ثلاثة أطباء، بليرمنوف وتيشومروف ومور، إنقاذ العين اليسرى بإجراء عملية جراحيّة. عشية إجراء الجراحة، وأثناء قيام الصبي مع والده بنزهة في حديقة شونالوف، شاهدا جمعاً من الناس يلحقون بأحد الكهنة. تقدّم هذا الكاهن منهما وسأل عن حال الصبي ومما يعاني. ولما سمع ما حدث للصبي نزع الرباط عن عينيه قائلاً: "ليست هناك حاجة لإجراء أي شيء، إن الولد معافى". وحسب أقوال الصبي نفسها: "ساعتها رأيت رجلاً إكليريكياً يبتعد مع الجمع، وبالرغم من أنّه لم يكن باستطاعتي رؤية أي شيء قبل ذلك، فإنني أرى الآن كل شيء بوضوح، واستعدت نظري بالكلّية".

وبعد قليل، تناهى لهما أن هذا الكاهن هو الأب يوحنا، فصارت عائلة الصبي، وهي لوثرية، تكِنُ له منذ ذلك الحين الاحترام الكبير.

وأيضاً نعرض في ما يلي لحادثة أوردها الموسيقار الشهير أغرنيف سلافينسكي وتتعلق بشفاء أحد أعضاء جوقته ويدعى إيفان. وكانت الجوقة قد أُحْيَت عرضاً في كرونشتادت بعد أخذها بركة الأب يوحنا، وكان رَيعُ تلك الحفلة مخصّصاً لأجل أهالي ضحايا السفينة الحربية الغارقة "روسالكا". فانتهز الأب

يوحنا فرصة وجودهم وعبر عن رغبته إليهم في أن يرتلوا أيضاً في القداس الإلهي. فأتى ترتيلهم رائعاً إلى درجة أنّه دعاهم ثانية. وهكذا، في المرة الثانية، حدثت معجزة شفاء الأعمى إيفان.

"بعد انتهاء القداس، يقول أغرنيف، سألت الأب يوحنا أن يبارك عائلتي وأعضاء الجوقة. وإذ انتهى من خدمة تقديس الماء، تقدّم كل واحد منّا بدوره ليقبّل الصليب الذي كان الأب يوحنا يحمله في يده. أما أنا فقد كنت أقود إيفان الأعمى، فسأله الأب يوحنا: "هل أنت أعمى منذ زمن طويل؟" فأجاب إيفان: "منذ صباي، فقد أصبت بمرض الصُفيراء وبعدها فقدت بصري". فأردف الأب يوحنا مبتسماً: "إذاً ليس الأمر على درجة كبيرة من الأهمية. وأنا أيضاً عانيت من المرض نفسه فأنا لا أسمع جيداً، ولكن هلمّ نصلّي للرب". وإذ قال هذا صبّ بعض الماء المقدس على يده وراح يمسح به عينيّ إيفان ثلاث مرات على التوالي. ثم باركه وقبّله قائلاً له: "سيرحمك الرب! اذهب الآن، الرب معك".

"في مساء اليوم عينه أحيَيْنا عرضاً آخر. وقبل أن نباشر الحفلة، دخل إلى غرفة تبديل الملابس الصبيّ الذي يساعد إيفان وقال لنا: "إيفان استعاد بصره!". "كيف ذلك؟ أحضِره إلى هنا!" فأحضره. ولما دخل إيفان قال: "في الحقيقة إنّي أبصر! أرى الأشياء وكأنّها في ضباب!". كانت أساريره تعبّر عن سعادته وفرحه. ومنذ ذلك الحين تحسّنت أحواله إلى أن استعاد بصره بالكلية وصار يتنقّل لوحده. وإذ كان حزيناً فيما مضى، منحني الرأس، مغمض العينين، صار بعد شفائه إنساناً فرحاً، وانعكس تغيُّر أحواله في اتصاله بالناس وغنائه أغنيات فرحة".

-٤-

وننتقل الآن إلى الحديث عن موهبة الأب يوحنا رؤية المستقبل. فكثيراً ما كان يدعو أشخاصاً بأسمائهم وهو لم يكن قد تعرّف عليهم بعد. وأنبأ كثيرين أحداثاً مستقبلية ستقع في حياتهم...

من يدرس سير القديسين وآباء الكنيسة لن يتفاجأ أبداً بموهبة الأب يوحنا هذه. فإنّ أحداثاً مشابهة لهذه تملأ حياة الستارتس (الآباء الروحيين) الروس، كما

وحياة العديد من القديسين. وقد تركت موهبة الأب يوحنا هذه آثاراً إيجابية وبنّاءة عند الذين اختبروها، على عكس ما يحصل عادة مع الأنبياء الكذبة والمُدّعين الذين يسترعون الانتباه فقط دون أن يحملوا معهم أية فائدة روحية. هكذا يظهر الفرق: على سبيل المثال، عندما أنبأ الأب يوحنا أحدهم بدنوّ أَجَلِهِ، أرفقَ الأمر بسعيه إلى مناولة هذا الشخص في أقرب وقت. وهناك العديد من الحوادث حيث كان الأب يوحنا "يعرف" من هم بحاجة إلى المال، فكان يقدّم لهم ما يحتاجون إليه. وهكذا أنقذ العديدين من الفاقة واليأس، فكان ينقذ فيهم، وقد وصلوا إلى حافة الشك والتشاؤم، الإيمان الحقيقي ويثبّته.

وموهبة الأب يوحنا هذه، كسائر المواهب التي تحلّى بها، ليست سوى تجلٍّ للمحبة الإلهيّة وشهادة لها. وإذا أردنا أن نلقي بعض الضوء على هذه الموهبة، فلنأخذ المحبة البشرية مثالاً. المحبة البشرية انعكاس للمحبة الإلهيّة. وما يحصل هو على صورة الإنسان الذي يحبّ شخصاً ويصير باستطاعته أن يدرك، من دون كلام أو إشارة، الرغبات الخفية التي للشخص المحبوب. وفي ما يلي سنعرض لبعض هذه الحوادث:

أثناء اجتماع في بلغراد، أخبر أسقف بيشيرا، ويدعى يوحنا، كيف أن الأستاذ أ. ألكسندروف وصل متأخراً إلى أحد المنازل في مدينة قازان حيث كان الأب يوحنا يُقيم خدمة البراكليسي. ولمّا لم يرد أن يدرك أحد تأخره، بقي في الغرفة المجاورة. وبينما كان الموجودون يقبّلون الصليب، التفت الأب يوحنا إلى ناحية الباب المؤدّي إلى الغرفة المجاورة وقد وقف خلفه السيد ألكسندروف، وقال: "لماذا لم يدخل الأستاذ إلى هنا؟".

فلمّا دخل، سأله: "أتخشى الصليب؟ لماذا؟ فإنك ستعطيه أنت للآخرين، وسريعاً جداً ، ليُقبّلوه!".

وبعد فترة قصيرة طلّق زوجته التي كانت قد تركته قبل فترة من الزمن وصار راهباً. وفي وقت لاحق صار عميداً لكلية قازان اللاهوتية وأسقفاً. فصار يؤمن بقوة الأب يوحنا الروحية. وإذ حدث له مرة، وهو أسقف، أن وقع طريح مرض ثقيل، كتب إلى الأب يوحنا يطلب صلواته. وحالما تلقّى إجابته، مالت صحته إلى التحسن.

ويخبرنا أيضا المتقدم في الكهنة ثيودوروس سينغافيتش بحادثة مماثلة: دُعيَ مرة الأب يوحنا إلى الصلاة في أحد البيوت. ولما دخل المنزل، ولم يكن معروفاً منه سابقاً، توجّه مباشرة إلى إحدى الغرف دون أن يلقي السلام على أي من الحاضرين. في تلك الغرفة بالذات كانت قد انزَوَت إحدى السيدات، وهي غير مؤمنة ولا ترغب في حضور الصلاة. فتحاور معها الأب يوحنا، ولم يبدأ الصلاة إلاّ لمّا أفلح في إقناعها بحضورها.

ويكشف لنا أحدهم من خبرته الشخصية في هذا المجال فيقول: "عندما كنتُ طالباً وصلتُ، مرة، إلى منزل أحد معارفي، فإذا بي أتفاجأ بأنّ الأب يوحنا قادم بعد قليل. ولـمّا كنت خجلاً من حضور الصلاة التي سيُقيمها، عمدت إلى الالتجاء إلى إحدى الغرف بعيداً عن الجميع، دون أن يعلم أحد بذلك. لم يتأخّر الأب يوحنا عن الوصول لكنّه، قبل أن يبدأ الصلاة، دخل عليّ ودعاني إلى الخدمة!".

إنّ موهبة الأب يوحنا هذه، وقد تجلّت في مثل هذه الحوادث وفي كثير غيرها، قد تبدو مرتبطة بأحداث غير مهمة. لكنّها بالحقيقة تشهد لأهمية الوحدة والإجماع داخل الكنيسة كشرط للصلاة المشتركة. فالأب يوحنا كان حريصاً جداً على هذه الوحدة وقد سعى، بموهبته هذه، إلى أن يلتفّ على كل محاولة تكسر هذه الوحدة أو تجعلها هشّة.

-٥-

وفي الرسالة التي وردت فيها الشهادة الأخيرة نقع على انتقاد الأب يوحنا. فقد جاء فيها: "اعتاد الأب يوحنا أن يصلّي بطريقة وكأنّه يهمس همساً، فكان من الصعب علينا أن نفهم ما يقوله. بالطبع كنّا نرى أنّه يصلّي طيلة الوقت ولكننا كنا نحن أثناءها متروكين لذواتنا".

فإذا قارنّا هذه الانطباعات مع العديد غيرها من التي تتذمر من الأمر المعاكس تماماً، أي من أنّ الأب يوحنا يرفع صوته عالياً أثناء إقامته الصلوات، لا يبقى أمامنا سوى استخلاص النتيجتَيْن التاليتَيْن:

أولاً: لم يكن بمقدور كل الناس الأتقياء أن يرتفعوا فوق الأنماط والأشكال وأن يدخلوا مباشرة إلى المعنى الروحي لما يجري. وثانياً: أنه من الخطر التمثّل بطريقة الأب يوحنا في إقامة الخدم. من الحكمة أن تلتزم أغلبية الكهنة بالطريقة التقليدية للقراءة والترتيل، بحيث يأتي واضحاً، هادئاً وبإيقاع طبيعيّ.

والحق يقال أن الأشفية لم تكن تلي حكماً كل صلوات وابتهالات الأب يوحنا في سبيل شفاء المرضى. وفي هذا السياق نستشهد بما كتبه أحدهم ورغب بعدم الافصاح عن هويته، وقد ورد ذلك في سياق كتاب نشره سنة ١٨٩٣ تحت عنوان "حياة الأب يوحنا كرونشتادت وأعماله":

"من الجنون أن يخطر على بال أحدهم أنّ كل مريض قصد الأب يوحنا قد شُفي. فلو كان الأمر على هذا النحو، لكان الأب يوحنا أشبه بمركز لشفاء الأمراض يقصده كل مَنْ كانت حالته الصحيّة طارئة ومستعجلة، كما يفعل الكثيرون الآن عندما يذهبون إلى العرّافين والسَّحرَة. فإذا كنّا على علم بمئات حوادث الشفاء التي جرت بمساعدة صلاة الأب يوحنا، فإننا نعلم أيضاً بآلاف الحالات لأشخاص طلبوا مساعدة الأب يوحنا إمّا بواسطة الرسائل أو بالحضور شخصياً ولم يُشفَ أيٌّ منهم. كان الأب يوحنا يردّد دائماً: "الله سيساعدك على مقدار إيمانك"، وعلى هذا الأساس كان يصلّي. ومن الواضح أنّ كل من أتى إليه وفي ذهنه فكر يقول "ربما سأتحسّن" لم يجد مطلبه، على منوال الغريق الذي لن ينجو إذا ما تمسّك بقشة. أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يأملوا بإيجاد مساعدة عند الأب يوحنا. فكل الذين نالوا صحّتَي النفس والجسد بصلاة الأب يوحنا كانوا أشخاصاً أتقياء، أو على الأقل كانوا، ساعة تأديته الصلاة، ذوي إيمان راسخ بقدرته".

لا يمكن تفسير الطرق التي تسلكها النعمة الإلهية. لذلك، فقط بقلّة الإيمان أو بالشكّ لا يمكننا أن نفسر كل الحالات التي لم تجترح فيها صلاة الأب يوحنا معجزات. لربما في بعض المرّات كان الأمر متعلّقاً بالأب يوحنا نفسه. وبالطبع فإنّ هذه الحالات لا تنتقص بشيء من سمعته كرجل صلاة وطبيب شافٍ. نحن نعرف أنّ القدّيسين أنفسهم ليسوا منزهين عن الخطيئة وليسوا كليّي الطهارة عن كل

الزلات المعذورة. لذلك فليسوا هم، كل حين، على الدرجة نفسها من الشفافية للنعمة الإلهيّة.

وإذا عُدنا في الحديث قليلاً إلى ذلك الطالب، نذكر أنّه، بعد إتمامه الصلاة، رغب الأب يوحنا في أن يشفي ابنة أحد المعلمين، فطلب منديلاً ومسح به عينيّ الفتاة، وكانت تُعاني من مرض وراثي فيهما. إلاّ أنّ الشفاء لم يحصل فسبّب ذلك الأمر إحباطاً عند الحضور.

والحالات المشابهة، بغض النظر عن التفاسير المختلفة التي يمكن أن تحتملها، هي عديدة وكافية.

-٦-

على هامش ما جرى ذكره حتى الآن نتوقف، قليلاً، عند فئة من الناس العديمي الإيمان، وقد رغب بعضهم في أن يُجرّبوا الأب يوحنا بلجوئهم إلى الخدعة. في هذا المجال نذكر حادثة طالعتنا بها كتب كثيرة تحدّثنا عن ثلاثة شبّان. تظاهر أحدهم بأنّه مريض وقصد الآخران الأب يوحنا يرجوانه الحضور ليُنقذ صديقَهما. لم يتوانَ الأب يوحنا عن تلبية طلبهما، فلمّا انتهى من الصلاة وقع ما لم يكن في الحسبان. المتظاهر بالمرض بقي على فراشه لا يستطيع أن يأتي بحركة واحدة، لقد شُلّ تماماً! وهو لم يستعدْ حالته الأولى إلاّ بعد أن اعترف الشبّان الثلاثة بما خططوا له.

لقد وردت هذه الحادثة في الكثير من الكتب التي صدرت وكان الأب يوحنا بعدُ على قيد الحياة، وهو حتماً كان سينفي مصداقيتها لو لم تقع بالفعل.

-٧-

وننتقل الآن إلى أشفية من نوع آخر، تلك المتعلقة بالسُّكر وأهواء أخرى. وقد سبق لنا أن عرضنا لبعض هذه الحوادث في الفصول الآنفة.

كيف كان الأب يوحنا يتعاطى مع الذين يُعانون من عادة السكْر المزمنة؟ كان يحاول دائماً أن يقنعهم بتناول الأسرار الطاهرة بشكل متواتر وذلك بعد

الاستعداد لها استعداداً مناسباً. وكانت لديه صلاة خاصة بهذا الداء. وكثيراً ما أرسل بعضهم إلى "بيت العمال" أو أمَّنَ لهم وظائف جيدة. والجدير ذكره هنا أنّه لم يكن يطلب منهم الكفّ عن تعاطي الكحول فوراً. هناك العديد من حالات الشفاء والتجدد الروحي لكثيرين عانوا من هذا الداء ولجأوا إلى صلاة الأب يوحنا.

فقد أرسَل إليه مرة رجل قاسٍ ومتعجرف، يدعى بطرس إيفانوفتش، أحدهم يطلب إليه الحضور إلى منزله لأجلِ زوجته التي كانت في حالة احتضار، قائلاً لحامل الرسالة: "فليصلِّ، ومهما يكن من أمر، فإنّ زوجتي ستموت. أمّا إذا شفاها، فساعتها أؤمن أنا أيضاً". فأبلغ الأب يوحنا حامل الرسالة: "ليس عندي أيُّ عمل أقوم به في منزلكم". وإذ فقد بطرس إيفانوفتش زوجته، عاد إلى رشده وقرر بينه وبين نفسه أن يحاول الاقتراب من الأب يوحنا. لكنّ هذا الأخير لم يلمس عنده توبة صادقة، لذلك لم يقرأ له صلاة الحلّ بل اكتفى بصلاة بسيطة. على الرغم من ذلك، فقد بدأت حالة بطرس تتحسن. وطلب الإذن من الأب يوحنا أن يلتقيه بشكل مستمر، فأجابه بلطف: "إذا ما أردت فباستطاعتك أن تأتي إليّ كل يوم".

وبعد مرور فترة من الزمن سمح له بتناول الأسرار المقدّسة. لقد تغيّر بالكلية، لقد اشتعل قلبه برغبة الانصراف كليّاً لخدمة القريب. فتقدّم باستقالته من وظيفته وكرّس نفسه بغيرة لتربية أولاده ولأعمال إنسانية وكنسيّة. كان يتناول شهرياً، أمّا الذين عرفوه فقد نعتوه بالمجنون والمرائي، لكنّهم كانوا يركضون إليه لطلب المساعدة، وأدركوا أنّه لا يرفض لأحد شيئاً.

-٨-

إنّ لفظة معجزة تحمل مَعنَيين. فهي، من جهة، تُشير إلى ما هو غير طبيعي، إلى أمر يجد تفسيره بتدخل قوة تفوق الطبيعة ونواميسها، وهي، من جهة أخرى، تعني الجمال الأقصى، الإعجاز. تنكشف على هذا النحو حقيقة مذهلة وعميقة بآن. ونحن نميّز هذا المعنى المزدوج في الأحداث المدهشة لتاريخ البشارة الإنجيلية، وبشكل أعمّ لتاريخ المسيحية.

فالتحرر من الشياطين وشفاء المرضى وقيامة الأموات والتجدد الروحي والخُلُقيّ، كل هذه ليست سوى أحداث مدهشة، مذهلة، قُلْ معجزة بالمعنى المزدوج للكلمة. بهذه الأحداث انكشاف، من جهة، لفعل القوة الإلهية التي تتجاوز الطبيعة، وانتصار، من جهة أخرى، للحلاوة والجمال الإلهيَّين. النور ينتصر على الظلام، الحياة تغلب الموت، عدم الفساد يطأ ما هو فاسد، المحبة تتعالى على الحقد.

فالنفس الإلهيَّة، المشرئبّة لالتقاط النور السماوي وسط هذا العالم المظلم، ستنجذب طبيعياً وتلقائياً بالذين تأتي أعمالهم حاملة هذه القوة وهذا الإعجاز في آن. والأب يوحنا هو أحد هؤلاء وقد جذب إليه محبة نفوس المسيحيّين من الشعب الروسي. على هذا المنوال اقترب هذا الشعب من النور، وقد شكّل هذا الأمر معجزة بشكل من الأشكال. إنّه حدث مذهل!

إنّ الانجذاب إلى ما هو مدهش فيه شيء طفولي وإنساني في آن. ولم يكن باستطاعة الأب يوحنا الذي أحبّ الأطفال أن يحجب محبته عن هذا الشعب الخاطئ، الرهيب، ولكن المفعم ببساطة الطفل. وهو لأجل هذا الشعب، الذي طالما أرهقه، كان يستقي على الدوام قوى روحية جديدة.

وحيث يوجد عطش إلى المذهل، أي عطش إلى المعجز والمطلق، هناك تصير الحوادث اليومية نفسها معجزة أيضاً.

الفصل الرابع والعشرون

السنوات الأخيرة من حياة الأب يوحنا

-١-

عانى الأب يوحنا في السنوات الأخيرة من حياته من تجارب وضيقات كثيرة، ليس فقط من جراء تهجّمات سياسية عليه، بل أيضاً من تصرفات مُعجبين كذبة، "اليوحناويّين" (نسبة إلى الأب يوحنا)، وقد تخطّت كل حدود.

ما لا شكّ فيه أنّ هؤلاء "اليوحناويّين" هم شيعة من "خليستي" وهي هرطقة تؤمن بتجسدات متكررة للمسيح، للعذراء وللقديسين. يُرجّح أنّ هذه الهرطقة تعود إلى زمن عبدة الأوثان وقد تعرّضت، عبر التازيخ، إلى تأثيرات مختلفة. وما يميّز هذه الشيعة واقع انحدار خبراتها الروحية إلى انفعالات مختلفة تأخذ في بعض الأحيان طابعاً جنسياً. وقد وَجدت هذه الشيعة، "الخليستي"، أتباعها بين أبناء الطبقة الشعبية بشكل رئيس.

-٢-

ظهر "اليوحناويّون" لأول مرة سنة ١٨٨٠. وفي سبيل مواجهتهم عمد الأب يوحنا إلى زيارتهم في عقر دارهم، فكان يقصدهم في أماكن تجمّعاتهم ونشاطاتهم. وقد أتت أولى رحلاته في هذا الإطار سنة ١٨٩٢ إلى منطقة قريبة من بطرسبرج، تدعى غندوفسكي، بناء على دعوة المطران إيسيذر.

أحد الفلاحين ويدعى فلاديمير كروندياثيف كان يُعلّم أنّ الأب يوحنا هو المسيح وقد عاد ثانية إلى الأرض. ورغم محاولة الإكليروس المحلي توقيفه عن تعليمه

الكاذب، فإنّ جهوده لم تمنع تعليمه من الانتشار. في ذلك الحين أتت زيارة الأب يوحنا للقرية حيث يسكن هذا الفلاح. ويورد الأب يوحنا أنّ اليوحناويّين "وعدوه بعدم تكرار مثل هذا الكلام الفارغ عنه". ولكن يبدو أن تعليمهم عاد ونشط من جديد فكان على الأب يوحنا أن يواجههم من جديد.

حصلت زيارة الأب يوحنا الثانية سنة ١٩٠٢ في مقاطعة كوستروما، حيث كان القروي بونومارف قد بنى شبه كنيسة ملاصقة لمكان سكنه وألّف خدمة مديح "للأب يوحنا كرونشتادت، الممجّد من الثالوث القدوس".

وجّه الأب يوحنا إليه رسالة إتهاميّة، بلغة حازمة وقاطعة، ختمها بهذه الكلمات: "لقد نسيت الأهم، أنت عديم التربية، لقد فقدت رجاحة عقلك. أُدينُ بشدة تأليفكَ المديح. بلّغ كلماتي هذه لكل أتباعك". ولكن بقي الأمر دون طائل.

فعمد الأب يوحنا ساعتها، بناء على أمر المجمع المقدس، إلى التوجّه إلى القرية وتحدث إلى الشعب قائلاً: "بونومارف رجل هرطوقيّ، لا تصغوا إليه، لا تتحدثوا معه في كل الأمور التي تتناول الإيمان. تعليمه هو تعليم الشيطان".

حاول بونومارف في البداية أن يبرّر نفسه وتظاهر، فيما بعد، بأنّه تائب. وفي اليوم التالي تجمّع أتباعه قبل نهاية القداس الإلهي وطلبوا إلى الأب يوحنا أن يُناولهم: "ناولْنا، يا باتوشكا الحبيب". فلم يكتفِ الأب يوحنا برفض مناولتهم بل هدَّدهم بقطعهم من الشركة الكنسيّة إذا لم يتخلّوا نهائياً عن تعاليمهم الكافرة. وأمام هذا الخطر تراجع بونومارف وقطع عهداً بنزع الصليب الذي رفعه على سطح منزله. للأسف انطلت كذبته على الأب يوحنا وصدّق وعده. فقد تأثّر بدموعه المرائية، وزاره في منزله. إلاّ أنه، حالما انصرف الأب يوحنا من القرية، استأنف تعليمه داعماً إيّاه بالقول أن الأب يوحنا أدانه في الكنيسة فقط لأجل حفظ ماء الوجه، وللواجب، ليس إلاّ!

-٣-

أما اليوحناويّون اللاحقون فقد عُرفوا بتعصّبهم وتشكّلوا ضمن حركة منظمة، وعمدوا إلى إصدار نشرة تدعى "منارة كرونشتادت". وجعلوا من الأب

يوحنا "المسيح"، ومن سيدة تدعى ماترينا كيسلفا "والدة الإله". وهذه الأخيرة أطلقت على نفسها إلى جانب لقب "والدة الإله" لقباً آخر وهو "بورفيرا". بالإضافة إلى النشرة، أصدروا العديد من الكتب.

أقام هؤلاء خدمهم الطقسية أمام صورة للأب يوحنا، وتحدثوا عن نهاية العالم الوشيكة والدينونة العظمى. وأدانهم المجمع المقدّس سنة ١٩٠٨ بشكل رسمي، وفي السنة نفسها، قبل رقاد الأب يوحنا بقليل، أطلق عليهم صفة الهراطقة.

ولكنّ الإجراءات الكنسيّة هذه لم تنلْ منهم بشيء، ولا حتى محاولات الأب يوحنا الدائمة لكشفهم على حقيقتهم وحجبُه المناولة المقدسة عنهم. حاولوا دوماً، بإصرار وقوّة، أن يتّصلوا به وأن يلازموه مستخدمين تارة تُقويّة هستيريّة، وطوراً المراءاة. وعمدوا بعد رقاده إلى التبشير بقيامته القريبة لأجل الدينونة العظمى.

وللمطران إفلوغوس ذكريات حول هذا الموضوع نستقي بعضها من مدوّناته: "وإذ كان الأب يوحنا بَعْدُ على قيد الحياة، نجحت هرطقة اليوحناويّين في الانتشار عبر روسيّا كلّها. وأمّا في الأماكن النائية التي كنّا نعيش فيها، فقد عمد بعض الجند إلى نشر تعليمهم. وبعضهم قال للكاهن: "نحن لدينا مسيح جديد، ولسنا بحاجة إلى الكهنة". فاضطررتُ أن أرسل الكاهن إلى كرونشتادت. وعاد من هناك حاملاً رسالة خطيّة من الأب يوحنا يدينهم فيها، يفضحهم ويدحضهم بشدة".

لم يكن ظهور هرطقات مثل هرطقة اليوحناويين حكراً على روسيّا فقط. فقد ظهر في بلجيكا وفرنسا "الأنطونيون" الذين كانوا يكرّمون بحّاراً صنعَ معجزات. لقد شكّل اليوحناويّون صليباً بالنسبة للأب يوحنا، كانت تجربتهم قاسية عليه احتملها حتى رقاده.

-٤-

للناظر من الخارج، تبدو السنة الأخيرة من حياة الأب يوحنا مُرضية. وعلى الرغم من افتراء "اليوحناويين" والهجمات التي تعرض لها، فقد تمتع باحترام واسع

من مختلف شرائح المجتمع، وكثيرون أحاطوه بالمحبة والعناية.

ومع أنّه كان يوزّع كل ما يُقدّم إليه من هدايا وتقدمات، لم يكن ينقصه أي شيء. حتى الاهتمام بإصدار مؤلّفاته قد ارتاح من عبئه، وتكفّل ابن أخته، فينتالي، بمتابعة هذا الشأن. وليظهر محبة المحسنين الأتقياء وحتّى لا يصدَّ عطيَّتهم، كان يلبس ما يقدّمونه إليه من ألبسة فخمة خاصة بالإكليريكين، كالغمباز والجبة. وفي المناسبات الاستثنائية كان يتقلد بالميداليات أو الأوسمة التي مُنحت له. كان عضو شرف في العديد من المؤسسات الاجتماعية، وعيّن، سنة ١٩٠٧، عضواً في المجمع المقدس لكنّه لم يستغلَّ هذا المنصب بتاتاً ولا حتى شارك مرةً بأعمال المجمع.

الميداليات، الأوسمة، عربة القطار الخاصة، ملكيته لباخرة، استعماله عربات الأغنياء، ارتداؤه ألبسة فخمة، تناوله الطعام إلى موائد الوجهاء.... كل هذه شكلت عناصر انتقاد له واتهام. لكننا نعتقد أنّه، مما سبق عرضه في هذا الكتاب، تتّضح جليّاً للقارئ براءة الأب يوحنا. وعلى الرغم من أنّ هذه الانتقادات والاتهامات لم تتناول الأب يوحنا بشيء، إلاّ أنّها شكّلت بالنسبة له تجربة تضاف إلى سابقاتها. وأيضاً تعاطيه مع الناس واحتكاكه بالحياة العالمية كانتا تجربتَيْن أُخريَيْن. وقد شعر مرات كثيرة بصعوبة الصلاة وسط هذه الأجواء. وقد كتب يعبّر عن هذا:

"عندما نصلّي مع الآخرين، تظهر في بعض الأحيان حاجتنا إلى أن نعمل على تطرية قلوبهم الحجرية، تليين قساوتهم، وتذويب "قتام مصر"، أي قتام الأهواء العالمية التي يعيشون فيها. هوذا سبب صعوبة الصلاة في بعض الأحيان، أمّا مع البسطاء فإنّ الصلاة أسهل بكثير".

أما صِلات الأب يوحنا "بسلاطين هذا العالم"، أكانوا أغنياء أم أصحاب سلطة، فقد كانت ضرورية ليس فقط من أجل خلاصهم، بل أيضاً لأجل مساعدة الفقراء. فقد استطاع، من خلال إحسانات أولئك، أن يمدَّ يد المساعدة لهؤلاء. وكان هذا مجالاً أمامه لشكر الله وتمجيده:

"أشكرك، يا رب، لعنايتك الإلهيّة بي و بالإخوة الفقراء. أشكرك لإحساناتك الغنية، لهداياك وتقدماتك التي تهبني إيّاها حتى أستطيع أن أوزّعها في كل مكان".

-٥-

الحياة والعمل وسط عالم هذا الدهر كانا صعبَيْن وشاقَّيْن بالنسبة للأب يوحنا. ولا يعود الأمر فقط إلى كون "العالم" شريراً، ولكن أيضاً إلى موقف الأب يوحنا من ثقافة عصره، خصوصاً ما يعود منها إلى الفنون. وهذه الناحية تستحق التوقف عندها لمعالجتها عن قرب وتوضيحها.

فالأب يوحنا كان يُشجّع الفن عندما يكون على صلة بالكنيسة، لأنّ فهمه العالمَ وإدراكه إيّاه كانا رمزيَّيْن وكان يؤمن بأنّ الإنسان يميل طبيعياً إلى فهم الأمور من خلال الرموز. إلاّ أنّ موقفه من جهة الفنون العالمية كان مختلفاً.

على ما يبدو كان محبّذاً للموسيقى... ولكن فلنطّلع على حكمه إزاءها:

"إذا كانت الأنغام الموسيقية تبعث في نفسك الهدوء والطّهارة والمشاعر المقدسة، فاستمع إليها وغذِّ نفسك منها، أما إذا كانت توقظ فيك الشهوات فتوقف عن الاستماع إليها وابقَ بمنأى عن نغم تلك الموسيقى وروحها".

أما في ما يعود إلى فن النحت، فكان الأب يوحنا يرى في تجسيم الأجساد العارية عودة إلى الوثنية.

أمّا المسرح فقد تعرض له مرات كثيرة. فكان يعتقد أن المسرح لا يمكن أن يخلو من أي ضرر في أيّ حال من الأحوال:

"المسرح موت للحياة المسيحية، يدمّرها، يطعّمها بعناصر وثنية. المسرح ينتمي لأمير هذا العالم ـ الشيطان، الشيطان يتنكر في بعض الأحيان بزيّ ملاك نور ليغرّ قصيري النظر، ويعمد إلى إخراج عروض ذات مضمون خُلُقيّ في بعض الأحيان ليدفع الناس إلى الاعتقاد أن المسرح مؤسسة خُلُقيّة يجدر ارتيادها مرات عدّة، إن لم تكن تفوق ارتيادنا الكنيسة، فعلى الأقل تضاهيها. والحجة في ذلك أنّنا في الكنيسة نستمع إلى الموضوع نفسه يتكرّر، أمّا في المسرح فهناك تعدد وتنوّع. المسرح والكنيسة في تضادّ: الأوّل هيكل لهذا العالم، أما الثانية فهي هيكل لله":

-٦-

كيف نستطيع أن نفهم موقف الأب يوحنا هذا إزاء الفنون العالمية؟ وكيف يمكننا أن نعتبرها في أيامنا هذه؟

للإجابة عن هذا السؤال ومعالجته، لا بدَّ لنا من العودة إلى ما قاله الأب يوحنا عن الجمال. فهو لم يكن فقط يفرح بالجمال، بل كان يرى فيه فيضاً إلهيّاً. هذا ما شكّل حجر الأساس في نظرته للكون. جمال الخليقة هو انعكاس للكمال الإلهي ورمزٌ له، وهذا السرّ لا يمكن سوى للقلب أن يدركه بمعونة النعمة الإلهيّة. وغاية الفن أن يشير إلى تلك الحقيقة المقدسة التي تتجاوزه من خلال استعماله الصور والرموز. الفن يرمي إلى قيادتنا إلى هذا الواقع، وهو، إلى حدٍّ ما، يقوم بذلك. ولكن مهما سَمَتَ الصور والرموز لا يمكنها، بأي حال من الأحوال، أن تقوم مقام ما تشير إليه.

من هنا، أنْ لا جمال الخليقة ولا تجلّيه في الفن يمكن اعتبارهما القيمة الأسمى، مهما كان الشأن الذي بلغاه. مثال جمالي محض لا يمكن أن يسوس حياة الإنسان. وإذا حصل ذلك، فمعناه أن المثال أضحى وثناً. هناك حاجة للجمال الخارجي والأشكال الخارجية. ولكن حيث، بنعمة الله، تبدأ تباشير الجمال الروحي الحق، غير المخلوق، بالظهور، هناك تتعطّل الرموز والصور والإشارات.

لا نشك إطلاقاً في تحليق الأب يوحنا في مثل تلك المدارات الروحيّة، وبالتالي لم تكن انعكاساتها في الفن تجذبه. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن أن يتأمل المرء صورة المحبوب عندما يكون المحبوب نفسه ماثلاً أمامه؟

قد يكون هذا أحد الأسباب التي تفسّر موقفه من الفن. ولكن لا بدَّ من التنويه بأنّه بدافع من البيئة والمحيط اللذين نشأ فيهما أيّام الصّبا، فقد نما ذوقه في خطٍّ مغاير لفنون هذا العالم. فلمّا كان بحاجة إلى صور جمالية من هذا العالم، كان يبحث عنها في الطبيعة وفي الكنيسة ويجدها فيهما.

-٧-

حاولنا، في ما سبق، أن نفسّر موقف الأب يوحنا إزاء فنون هذا العالم وبشكل خاص المسرح. وفي هذا السياق، لا بدَّ من الإشارة إلى أنّ شرائح مختلفة من المجتمع الروسيّ قد أولَت المسرح شأناً واهتماماً عظيمَيْن. فما من شك في أنّ المسرح شكّل ولعاً وشغفاً كبيرَيْن لدى عدد متعاظم من الناس، وشكّل بالنسبة لهم "هيكلاً" أكثر من الكنيسة.

من الممكن أنّ الحماس للمسرح قد اتّشَح بلون عاطفي في روسيّا أكثر منه في البلدان الأوروبية. ويضاف إلى ذلك أنّ المسرح، بين سائر الفنون، يحوّل انتباه الإنسان أكثر عن اليقظة الداخلية ويدفعه إلى العيش في عالم من الوهم. فالشباب، بشكل خاص، ميّال إلى عيش حياة خيالية وإلى "تمثيل دور". والإنسان السطحي ينجح في ذلك، أمّا من يبتغي حياة جدّية فيواجه الإحباط والشعور بالدّونية لأنّه لا يجد في نفسه تلك الصفات التي يتحلّى بها بطله المفضّل. أمّا الممثل فيفقد بساطته ويمتدّ بمسرحه إلى الحياة اليوميّة. على هذا النحو لا يجد الفرح مَعْبَراً إليه!

مهما يكن من أمر فإنّ موقف الأب يوحنا لا بد من أن يدعو المرء إلى التفكير بهذه الناحية. وهو لم يكن الوحيد الذي أشار إلى الخطر الروحي الذي يتجلّى في المسرح. ونثبت، في ما يلي، ما عثرنا عليه في "مدوّنات" للأب ألكسندر إلتشانينوف:

"لماذا لا يذهب الكهنة إلى المسرح؟ ذلك لأنّ مبدأ المسرح بالأساس ترفضه الكنيسة: الألبسة، الأقنعة، التنكّر،... كلها أمور ممنوعة، لأنّها مزيّفة وتحمل على الالتباس. حتى مشاهدة العرض هي نوع من المشاركة فيه. أما بالنسبة للممثّل، فكلّما زاد حماسه كلّما زاد الضرر عليه، إذ التمثيل يُدخل المرء إلى عالم من الزيف والضياع".

والموسيقى، في هذا السياق، أقلُّ ضرراً على الحياة الروحيّة. ولَئِن كانت توقظ في المرء أهواءه، إلاّ أنّها لا تضطره إلى تمثيل دور. الخطر يكمن في إعلاء شأن المشاعر والعواطف على حساب اليقظة الروحيّة.

أما أنواع الفنون الأخرى فلا تشكّل خطراً بحدٍّ ذاتها بل ينحصر أمرها بالمضمون الذي تحمله. ويبدو أنّ خشية الأب يوحنا كانت تتلخّص في أنّ الفن، وخصوصاً المسرح، قد يدفع المرء إلى التلهي عن حياته الروحيّة والاستهتار بالخدمة الكنسيّة الإلهيّة التي هي الغذاء الأساسي الروحي للإنسان المسيحي. وهو، من هذا المنطلق، يضع الفن على مستوى واحد مع سائر التسليات فيقول:

"ماذا يعني البحث عن المتعة؟ يعني أن نلبّي رغبة عالمنا الروحي الداخلي المريض. لا يمكن أن تبقى النفس ساكنة، بل هي تبحث دوماً عن عمل تقوم به... "لأنّه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلّمين مستحكّة مسامعهم" (٢ تيمو٤:٣) أوَ ليس هذا ما يقوم به الإنسان العالميّ، وحتى بعض الإكليريكيين؟ إنّهم لا يُصغون إلى المعلم الوحيد ـ المسيح وإلى إنجيله وكنيسته، بل إلى الممثّلين ورجال الصحافة وكتّاب الروايات. وإن كانوا لا يتفوّهون بهذه الكلمات إلاّ أنّ أفعالهم تشير إليها بهذا القول: "لسنا بحاجة لا إلى الإنجيل ولا إلى الكنيسة".

-٨-

وخلاصة القول أن كل سعي الأب يوحنا في ما يخصُّ الفنون العالمية، باستثناء المسرح، هو بالأكثر إلى مواجهة الخطر الكامن فيها. بالطبع من الصعب الحديث عن موقف أرثوذكسي موحّد تجاه الفن والثقافة، والأمثلة عديدة في هذا المجال.

وإذ نعود إلى النبع الذي كان الأب يوحنا يستقي منه رؤيته، فإننا نعثر لديه على تحديد لمعنى الحياة "كتأمّل في أعمال الله وتسبيحه وتمجيده، وهذا هو إنجاز الفن الحقيقي".

"خُلِقَ الإنسان على صورة الله ومثاله، خُلِقَ حتّى يسود كل المخلوقات، حتّى يشهد لأعمال الله ويمجّده بالتسابيح، حتّى يشكره لأنّه أخرج الإنسان والخليقة كلّها من العدم إلى الوجود فيجد الفرح على الأرض ويرث في الدهر الآتي الحياة الأبدية والاتحاد بالله".

وإذ كان الأب يوحنا على قاب قوسين من الموت، كان يتحدث عن الله واصفاً إياه بالفنان. وهو يشعر بالفرح إزاء الشبه بين الإنسان وخالقه على هذا الصعيد:

"الخليقة كلها تهتف بالحياة: الأرض، البحر، الجو... الانسجام الذي يسود كل مكان. ما هذا النظام! ما هذا الجمال!... لا تشبع العين من النظر ولا العقل من التأمل والتعجّب! عرس لا ينتهي قائم في الخلائق العقلية وغير العقلية، في النباتات، الأزهار، الأشجار... وأخيراً الإنسان، خصوصاً الأطفال. علّة الحياة وخالقها ونبعها وفرح كلّ الخليقة هو الرب، الواحد في ثلاثة أقانيم. كم هو متعال ما دامت خلائقه ساميةً إلى هذا الحد! أيّة غبطة له إذ أعطى خليقته مثل هذه الغبطة! كم ينبغي أن يكون كاملاً ما دامت خليقته جميلة، ذكية ونشيطة تستطيع مزاولة مهام مختلفة، فنية وعملية! يعجز العقل عن الإحاطة بالرب الإله، الخالق والصانع، الصالح، المعطي الحياة والكلي القدرة!".

-٩-

يصعب على المرء أن يصدّق أنّ هذه الكلمات هي لرجل شارف على الثمانين من العمر. ولَئِن شاخ الجسد، إلاّ أنّ النفس تتحلّى بالشباب. في أريج هذه الكلمات يتنشّق الإنسان نَفَس حياة أبدية، نَفَسَ محبّة الله وطلبه. والأب يوحنا يواجه الموت كبوّابة للاشتراك في انتصار الجمال وللقاء الخالق:

"في كل مخلوق أُعاين حكمة الخالق الكليّ الصلاح والقدرة. أريد أن أقبّل يديه اللّتَيْن تخلقان كلَّ نبتةٍ وتُحييانها وتعطيانها شكلها، جمالها، رائحتها وناموس نموّها. أشتعل رغبة في لقاء الخالق والسجود له وشكره على كل شيء، نعم على كلِّ شيء..."

"أقبّلك أيُّها الآب والخالق. تحتضنني محبتك، أشعر بها في كلّ شيء، في كلّ ثمرة من ثمار الأرض، في كلّ عنقود عنب، في كلّ حبة حنطة، في كلّ قطعة خبز... وبينما تُنعم علينا بكلّ هذه الخيرات على الأرض، فإنّك تُهيّئ لنا حلاوة

فائقة في السماء. ما هذه الغبطة النابعة من صلاحك وجمالك الذي لا يوصف، المنسكبة على قدّيسيك وجوقات الملائكة لتملأهم فرحاً!".

-١٠-

من الواضح أنّ الأب يوحنا، حتى في الأشهر الأخيرة من حياته، استمرّ، كما كان على الدوام، في تأمل القداس الإلهي والأسرار الطاهرة المانحة الحياة، وما كان يرتوي من تسابيحها. وكان الألم يعتريه لأجل أولئك الذين يجهلون هذه الحياة ولا يُسلّمون ذواتهم لينابيعها:

"يا للقداس الإلهي! محبة لا توصف! معجزة المعجزات!... "خذوا كلوا... اشربوا منه كلكم... (متى ٢٦: ٢٦-٢٧) ... فهل نأكل جسد المسيح ونشرب دمه، "كلُّنا"، على حسب ما أراد وأوصى؟ هناك للأسف العديد من الكنائس الأرثوذكسيّة يتم فيها القداس الإلهي ولكن دون أن يتقدّم المؤمنون من المناولة المقدسة".

في الكتابات التي وضعها الأب يوحنا في السنة الأخيرة من حياته، نعثر على تعابير توبته التي درج عليها خلال سنوات حياته.

"لقد خدمتك يا رب بكل قواي، لكنني أخطأت كثيراً. لقد حاربني العدو بشدة، استُرْ يا رب بمحبتك للبشر كل خطاياي".

إلى جانب هذا الحزن المتأتي من توبته على خطاياه، يلمس المرء فرحه القويّ وهو ينتظر النهاية التي ستكون بداية حياة جديدة مغبّطة:

"كل يوم يعبر يساعدني في الإحساس أكثر برحمة الله. لقد اضمحلّت قواي الجسدية، أمّا روحي فقويّة تلهبها محبة العريس السماوي. لقد غمرني السيد برحمته هنا على الأرض وأنا أرجو ألاّ يحرمني إياها في الدهر الآتي. الموت ليس سوى ولادة في الحياة الأبدية لأجل صلاح الله ورأفته".

هكذا كانت استعداداته للموت المقبل إليه. فقد عانى لثلاث سنين التهاباً في المبوّلة ومجاريها. وعلى الرغم من آلامه لم يشأ أن يتوقف عن خدمته الكهنوتية. والآلام لم تبارحه في الأشهر الأخيرة، لا ليلاً ولا نهاراً، فكان لا يهدأ أكثر من عشرين دقيقة في الأربع والعشرين ساعة.

ولكن الطبيعة كانت "تتنازل" له فقط أثناء إقامته القداس الإلهي، فكان الألم يفارقه لساعة أو لساعتين! وهو لم يصغِ إلى نصيحة الأطباء ولم يأبه لضغوطاتهم في قطع صومه. وقد أقام قداسه الأخير في العاشر من ديسمبر ١٩٠٨، وفيه يقول شاهد عيان:

"يستحيل عليك أن تنسى الأثر الحي الذي خلّفه الباتوشكا بمظهره وصوته الضعيف. لقد شَعَرَتْ الرعية أنّها تخسر راعيها، كانتْ تُسمعُ تنهداتٌ وعبرات... كان الجو مؤثراً بالنسبة للجميع، حتى بالنسبة للأب يوحنا، فبدأ يبكي كطفل. وبعد انتهائه من القداس جلس على كرسيّ ووعظ الشعب. ولوقت طويل أوصى أبناءه أن يحفظوا وصيّته جيداً ألا وهي أن يُصلّوا ويُحبوا الله".

ومنذ ذلك اليوم، جرى على تناول القدسات يومياً في المنزل، وعلى شرب الماء المقدّس من نبع القديس سيرافيم ساروف. وكان هذا العلاج الذي اتّبعه، على حسب ما أوردته الأم أنستاسيّا ياكيماش سنة ١٩٤٨ في كتاب عنوانه "الأبدي".

ولما أتى مطران موسكو، فلاديمير، لزيارة الأب يوحنا، أسرّ إلى هذا الأخير أنّه سيكون أولى الضحايا من الأساقفة للثورة الشيوعية، وأضاف:

"أشكر الرب الذي أرسل لي هذا المرض حتى تتنقى نفسي الخاطئة. المناولة المقدسة هي ما يُحييني".

في الثامن عشر من ديسمبر سأل الأب يوحنا الأم الرئيسة أنجيلينا: "في أي يوم نحن؟" وعندما سمع الجواب قال: "المجد لله، أمامنا بعد يومان، عندنا متّسع من الوقت لنقوم بكل شيء".

في التاسع عشر كان نصف واعٍ، لكنه استعاد وعيه في المساء واشتكى من حرارة جسده. ففهم من كان موجوداً أن أجله يدنو وقد بات قريباً. وحتى يتمكّنوا، قبل فوات الأوان، من أن يناولوه الدم المقدس (طالما أنه لم يعد باستطاعته تناول أي شيء صلب، بل السوائل فقط)، أُقيم القداس الإلهي في العشرين من الشهر، الساعة الثالثة فجراً. أثناء الخدمة، بكى كثيرون، وحتى من الكهنة المشاركين فيها. ثم ذهبوا إلى الأب يوحنا فناولوه بصعوبة كبيرة، وهو لا يَكفُّ عن القول "لا أستطيع التنفس، لا أستطيع".

في الساعة السادسة صباحاً أُقيمت صلاة المُحتضرين، وفي الساعة السابعة من صباح العشرين من ديسمبر عام ١٩٠٨ رقد الأب يوحنا عن ثمانين عاماً.

-١٢-

خدمة الجناز كانت مهيبة للغاية. نُقِلَ الجثمان من كاتدرائية كرونشتادت إلى مدينة بطرسبرج حيث أقيمت خدمة الجناز. ولكن قبل أن يتم ذلك كان الشعب كلّه قد احتشد في شوارع المدينة، وكانت العربات والزحافات تشكل صفاً من أورنينبرج حتى كرونشتادت تنقل وفوداً من البشر، فكان المرء يشاهد على الجليد زحفاً أسود اللون.

طيلة الليلة من الحادي والعشرين إلى الثاني والعشرين من ديسمبر، بعد خدمة جنائزية عن راحة نفس الأب يوحنا، توافد الجميع ليُودّعوا راعيهم الوداع الأخير. في الصباح أُقيم القداس الإلهي، وفور الانتهاء من الخدمة حُمل النعش على عربة وواكبته فرقة عسكرية من موسيقى الجيش كانت تعزف تسبيحة روسيّة ذائعة الصيت: "كم هو عظيم إلهنا في صهيون". أما الذين رافقوا النعش من كرونشتادت فلم يقلَّ عددهم عن العشرين ألفاً.

وحيثما عبر الموكب كان يُرتل التريصاجيون وتُقرع الأجراس؛ حتى أجراس كنائس اللوثريين شاركت حزناً. فرق عسكرية انتشرت على طول الطريق الذي سلكه الموكب. اجتياز المسافة إلى أورنينبرج استغرق ثلاث ساعات، وقد

استُحضرت على طول الطريق خمسة مراكز إسعافات أوليّة لدرء أي طارئ، وبشكل خاص تلك الأخطار المتأتية من الطريق الذي غطّاه الجليد.

بلغ الموكب مدينة بطرسبرج في الساعة الخامسة، مستخدماً القطار. وبعد تزييح النعش في أرجاء المدينة، توجّه الموكب نحو نهر كاربوفكا. ووفق رغبة شخصية من القيصر، جاز الموكب القصر الملكي، وكانت العائلة الملكية كلّها واقفة على شرفة القصر الشتوي وتابعت منه كل مراسم الجناز على حسب ما أخبرت الراهبة أنستاسيّا. الجموع في كل مكان كانت تبكي.

رئس خدمة الجناز مطران بطرسبرج ولاغودا، أنطونيوس، وهو رئيس أساقفة الكنيسة الروسية. اشترك معه ستون أسقفاً وكاهناً وعشرون شماساً. وألقى كلمة التأبين المتقدم في الكهنة الفيلسوف الأب أورنادسكي (الذي استشهد وابنه أثناء الثورة).

وبأمر خاص، صَدَرَ باسم المطران أنطونيوس، أوعز القيصر بأن يقام سنويّاً قداس وجنّاز في كل كنائس روسيّا في ذكرى رقاد الأب يوحنا. وأوعز المجمع المقدس، بالإضافة إلى تكريمات مختلفة، بإدخال فقرات خاصة عن حياة الأب يوحنا ونشاطاته ضمن برامج كليات اللاهوت.

أما مقبرة الأب يوحنا فتقع في القسم السفلي من كنيسة دير القديس يوحنا الواقع على نهر كاربوفكا في بطرسبرج. وقد صار المكان محجّة تزيّنه الأزهار وتُضيئه شموع المصلّين، وكانت تقام هناك صلوات لأجل راحة نفسه.

وجرت العادة أيضاً أن توضع فوق القبر رسائل مختومة تحمل طلبات وصلوات مختلفة تسأل الأب يوحنا شفاعاته وصلاته، وكانت تُحرق فيما بعد. وهناك شهادات عديدة عن استجابة الأب يوحنا لعدد من هذه الرسائل. كما حصلت أشفية كثيرة عند القبر نفسه. ويؤكد العديد من الناس أنهم يصلّون للأب يوحنا وأن صلواتهم يُستجاب لها.

إنّ الإيمان بمعونة القديسين والرجال الأبرار يجد أساسه الأرثوذكسي من منظار وحدة كل أعضاء الكنيسة في المسيح. ومن تحلّى بهذا الإيمان سَهُلَ عليه أن يفسر الأبعاد التي اتخذها إيمان الشعب في شفاعة الأب يوحنا كرونشتادت، فهو

هنا على الأرض عاش مصلّياً لأجل الجميع، عاش وقد حرّكه الإيمان بوحدة الكنيسة المقدسة.

ليس الإيمان الحقيقي عبارة عن فكرة ذهنية نقبلها. من أراد أن يقتني الإيمان الحق، وَجَبَ عليه أن يتعلم كيف يعيش في داخله ما هو يُؤمن به؛ أن يتحرّك لكي يلتقي الآخرين بالروح. الإيمان الحقيقي هو بالضبط لقاء روحي. فقط إيمان مثل هذا يُعطي ثمراً.

الخاتمة

معظم الناس غير راضين عن أنفسهم وعن حياتهم. يطمحون إلى الأفضل ويسعون إليه، لذلك عندهم أبطالهم وينجذبون إلى الشخصيات التاريخية العظيمة. ووجود أناس عظماء معناه أنّ البقية تستطيع أن تصير أفضل.

أمّا الذين يتقوقعون على شعور الرضى بالذات، ولا يطمحون إلى تجدّد نفوسهم الروحي، فهم أشخاص غير طبيعيين. فالوضع الطبيعي للإنسان يتمثّل برغبته في النمو روحياً على الدوام والبلوغ إلى قامة الكمال.

ولكن من أين تنبع هذه الرغبة إلى الكمال، أو عطش النفس البشرية الذي لا يرتوي؟ الجواب عن هذا السؤال لن نجده سوى في الإيمان والحكمة المسيحيَّيْن. فهما يعلّماننا أنّ "الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله". أصلُهُ إلهي. دعوته أن تصير الصورة على حسن مثالها وأن تبلغ إلى مشاركة الحياة الإلهيّة. والمسيحية تُعلّم أن الكمال والحياة الإلهية هما بمتناول الإنسان وليسا بمجرد حلم أو وهم. أما ازدراء الحياة الإلهيّة فهو نتيجة السقوط. لأنّه بالخطيئة عطّل الإنسان قصد الله الذي يرمي إلى ارتقاء الإنسان من كمال إلى كمال.

لكن الله لم يترك جبلته، أتى إلى الأرض، تجسّد. كشف لنا الحياة الإلهيّة، لم يبقَ لنا سوى أن "نَهضِمَها"، نجعلها خاصتنا. لذلك نحن بحاجة إلى قبول تعليمه والتشبّه به. أمّا الصعوبات التي سنواجهها فيمكننا تجاوزها عندما ندرك فعلاً كم أنّ حياة المسيح مدهشة. وكل الذين اقتربوا من المسيح اقتربوا منه مدفوعين بالعطش إلى حياة أسمى، وتبعوه بإيمان باستماعهم لكلمة واحدة منه.

ولكن أيكفي أن يتشبّه الإنسان بالمسيح ليصير مستنيراً وسعيداً؟ بالطبع لا.

لقد حوى السيّد النعمة الإلهية في داخله. أمّا نحن فلا، فكيف السبيل لإقتنائها؟ من الروح القدس، روح الحق والمحبة، هذا الذي يوحّد المؤمنين في رباط المحبة، رباط الكنيسة.

غاية الحياة المسيحيّة أساساً هو اقتناء الروح القدس الذي يُلهم الكنيسة ويُرشدها. الروح القدس يُلهمنا بالحياة المقدسة المُستنيرة.

هذا الإلهام هو أساس كل عمل. الشعراء، الرسّامون، الموسيقيون، المؤلّفون، القادة، الحِرفيّون، كلّهم بحاجة إلى الإلهام والوحي. وحياة الإنسان بشكل خاص تحتاج إلى إلهام الحقيقة والمحبة. هكذا تصير الحياة حاملة الروح.

مواهب الروح القدس، كبذار الحياة المقدسة، يُعطاها كلُّ قادمٍ إلى الكنيسة بسرّ المعمودية والميرون. ويُعطاها أيضاً بعد ذلك كلُّ مؤمن عضو فيها من خلال بقية الأسرار، وعلى رأسها الاعتراف والقداس الإلهي، كما من خلال دراسة الكلمة الإلهيّة والصلاة.

بالطبع، يجدر بالمسيحيّ أن ينمّي هذه البذار مُتّبعاً طريقاً صحيحاً. ساعتها سيعيش، شيئاً فشيئاً بإلهام الروح القدس ويتقدم باستمرار.

يسوع المسيح وحده على الأرض عاش اتحاداً كاملاً بالروح القدس. هو الإله ـ الإنسان، اسمه نفسه: المسيح، هو الممسوح بالروح القدس. ولكنّ البشر، وبخاصة القديسين، يستطيعون أن يعيشوا وفق إلهام الروح القدس. وإذا كان يسوع المسيح هو صورة الله الكاملة، فإنّ هذه الصورة تشعُّ ببهاء في حياة القديسين. وعلى هذا النحو يُذكّرنا الله بأنّ الحياة الإلهية ممكنة بالنسبة لنا، ولا يكفُّ عن منحنا أمثلة جديدة عن حياة كهذه.

هناك طرق عديدة يسلكها القديسون، لكنّها تستضيء بنور الحق والمحبة. والقديسون هم معلّمو الحياة الحقيقيون. أمّا الشخصيات الأخرى فهي تحقق تقدُّماً في بعض المجالات، لكنّها كثيراً ما تفشل على صعيد الحياة الفردية؛ لذلك لا يمكن أن تُتّخذ هذه الشخصيات مثالاً وقدوة. القديسون هم أشعة حيّة للنور الإلهي.

الأرض الروسية غنيّة بالقديسين. والله يُرسل، في كل عصر بالضبط، مَن الحاجةُ إليهم ضرورية.

ففي بداية القرن التاسع عشر عرفت روسيّا أحد أكبر قديسيها، وهو سيرافيم ساروف، الذي بالقول والفعل علّم أو بالأحرى ذكّر بأنّ غاية الحياة المسيحيّة هي اقتناء الروح القدس. وهو تحدّث عن الطرق العديدة والمتنوعة التي تصل بنا إلى تحقيق هذا الهدف، وهو بحياته أعطى مثال النسك الرهباني الصارم.

ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهر الأب يوحنا كرونشتادت. فلماذا هو ثمين في أعيننا وبالنسبة لعصرنا؟

السبب الأوّل أنّه كاهن متزوّج. فإلى الآن لم يوجد قديسون متزوجون في روسيّا. مما لا شك فيه أن العوامل والظروف الخارجية، وبالطبع الحياة الزوجية، تمثّل دوراً هاماً في الحياة الروحيّة. وظهور رجل قديس وسط جماعة الإكليريكيين المتزوّجين هو بالحقيقة كشف لأهميّة الكهنوت ولأهميّة العمل الذي يقوم به الكهنة.

وقد أبرز الأب يوحنا، من خلال قوله وعمله وحياته نفسها، سموَّ الكهنوت وحقيقة أن الكاهن هو الذي يتمم سرّ القداس الإلهي. فقد دُعي الأب يوحنا ليُظهر ببهاء كلّيّ أنّ سرّ الشكر، القداس الإلهي، هو النبع الحقيقي للحياة المسيحية، وليس المقصود هنا حياة بارّة ومستقيمة فقط ، بل حياة إلهية ـ إنسانية.

وبالتأكيد لم يكن ظهوره في عصرنا صدفةً. فهو شهد لطريق تقديس المسيحيين ووحدتهم الحقيقية في المحبة. ظهر في عصر همّش معنى الحياة الأسرارية الكنسيّة. ظهر في عصر شكّل عتبة لمستقبل قريب حمل اضطهاداً للكنيسة لا مثيل له، حيث كان إتمام الأسرار أو الاشتراك فيها يؤدّي إلى الاستشهاد، إلى فقدان الحياة، أو إلى عذابات لا نهاية لها. ففي هذا السياق يمكن القول أن عمله يُعتبر نبويّاً.

فهو، بغيرة نبويّة، انتقد اللامبالاة الدينية المتفشّية عند الكثير من معاصريه وسعى، بشكل مواز، إلى دعم وتحصين أولئك الذين، من بعده وأثناء فترة الاضطهاد، سيُدافعون عن قدس أقداس الكنيسة الأرثوذكسية.

وهو أيضاً بعيشه العميق للحياة الليتورجيّة مهّد للحركة الإفخارستية في أيامنا، هذه الحركة التي تدعو إلى الاشتراك المتواتر في المناولة المقدسة وإلى موقف واعٍ تجاه إقامة القداس الإلهي.

أما تقدمته الحقيقية، والتي لا تُقدّر، فلا تنكشف من خلال الأفكار التي دوّنها أو من خلال العظات التي ألقاها، بل تنكشف، قبل كل شيء، في ضلاته الحارّة الاستثنائية وفي إقامته القداس الإلهي، وفي درجة لاحقة من خلال عرضه المذهل لخبراته التي ارتكزت على خدمته الليتورجية وقد عكستها مدوّناته في كتابه "حياتي في المسيح"، وتليها في درجة ثالثة خدمته الرعائية الفريدة والمتعددة الوجوه وقد أتت إشعاعاً لخدمته الليتورجيّة، وتلوّنت بمعجزات كثيرة شكّلت فيضاً من الأسرار المقدسة.

الأب يوحنا نفسه لم يُخفِ حقيقة المعجزات التي كانت ثمرة صلواته. وتبدو في هذا السياق فرادته بين سائر القديسين. والسبب هو رغبته في أن يُظهر هذه العجائب على أنّها نابعة من المناولة المقدسة. جُلُّ غرضه أن يبرز للجميع هذا النبع، نبع الحياة، المناولة المقدسة، ويكشف للجميع قوّتها.

جذور الأب يوحنا الروحية عميقة جداً، وهو شخصية فريدة غير اعتيادية وسط جماعة القديسين المتلألئة في الكنيسة الروسية، هو بالفعل ابن شعبه وابن عصره.

وكتابنا هذا ليس سيرة كاملة للأب يوحنا كرونشتادت ولا حتى تحليلاً علميّاً لعمله وأدائه. إنّنا نعتبره محاولة، ليس إلاّ، لتسطير مميزاته الرئيسة كما بدت في مراحل حياته المختلفة وعبر مؤلّفاته ومدوّناته العديدة.

إنّ وجود واضع هذا الكتاب في المنفى منعه من جمع المادة الضرورية لكتاب كهذا، لكنّه يأمل أن تكون صورة الأب يوحنا البهيّة قد أضحت أقرب للكثيرين، ويأمل أيضاً أنّ الشعب الأرثوذكسي سيستمدّ من صفحات الأب يوحنا القوّة

والرجاء في درب الحياة الصعب، علَّ هذه المحاولة تكون بالنسبة للمسيحيين غير الأرثوذكسيّين دافعاً لتخلّيهم عن تصوراتهم المسبقة تجاه الكنيسة الأرثوذكسية وباباً يَلِجون منه إلى الإلتقاء بثقة أكبر.

الفصل الثالث والعشرون: إيمان الشعب بصلاة الأب يوحنا ٢٥٥
الفصل الرابع والعشرون: السنوات الأخيرة ٢٦٧
الخاتمة: ٢٨١
الفهرس: ٢٨٧

الفهرس

إهداء وشكر		٥
طروبارية القديس		٧
في تعريب هذا الكتاب		١١
الفصل الأول:	من الميلاد الى الكهنوت	١٣
الفصل الثاني:	بداية الحياة الكهنوتية	٢٥
الفصل الثالث:	الأعمال الاجتماعية والخيرية	٣٣
الفصل الرابع:	المدرّس والمربي	٤٣
الفصل الخامس:	الجوانب السلبيّة للحياة الدّينية في ذلك العصر، نظرة الأب يوحنا إلى القداس الإلهي	٥٣
الفصل السادس:	سرّ الاعتراف	٦٥
الفصل السابع:	الخدم الإلهيّة في الكنيسة	٧١
الفصل الثامن:	النظرة إلى الكهنوت	٨٣
الفصل التاسع:	في معرفة الحقّ	٩٥
الفصل العاشر:	الكنيسة	١١٣
الفصل الحادي عشر:	في والدة الإله والعالم المخلوق	١٢٣
الفصل الثاني عشر:	في الجهاد الروحي	١٣٣
الفصل الثالث عشر:	في المسير نحو النور	١٤٥
الفصل الرابع عشر:	في الصلاة	١٥٧
الفصل الخامس عشر:	في التوبة والصوم والصبر	١٦٥
الفصل السادس عشر:	العلاقة بالله والقريب	١٧٥
الفصل السابع عشر:	الشؤون الوطنية والاجتماعية	١٨٣
الفصل الثامن عشر:	من حياة الأب يوحنا اليومية	١٩٣
الفصل التاسع عشر:	أسفار الأب يوحنا	٢٠٧
الفصل العشرون:	راعي روسية كلها	٢١٥
الفصل الحادي والعشرون:	المعجزات	٢٣٥
الفصل الثاني والعشرون:	قوة صلاة الأب يوحنا	٢٤٥

وحتى نكمل اللوحة حول حياة الإنسان المسيحي نستعرض مقاطع من كتب مختلفة للأب يوحنا، فهي تساعدنا في التعرّف على العمل القائم بين الله والبشر والذي نستشفه في حياتنا اليومية، في مختلف الظروف والحالات والمناسبات. بالطبع، حياة الأب يوحنا اليومية هي حياة راعٍ وكاهن. لكن هذا لا يشكل مانعاً لاستفادة المسيحي من مثاله وأفكاره.

«الأسقف الكسندر (مؤلّف الكتاب)»

"مَنْ هذا الإنسان العظيم، هذا الكاهن! تراه دائماً في حديث مع الله والله دوماً يستجيب له! في كلّ خدمة، في كلّ صلاة، يتحدّث مع الله، والله، في كلّ خدمة وكلّ صلاة، يستجيب له! الكاهن ملاك، وليس إنساناً!"

«من أقوال القديس يوحنّا»

"أنتم أولادي لأنّي ولدتكم بإنجيل المسيح يسوع. أنتم دمي الروحي، لأنّ تعليمي يجري في عروقكم. أعطيتكم، وما زلت إلى الآن أعطيكم، لتشربوا الحليب الروحي كما ترضع الأم ولدها. أنتم أولادي لأنكم على الدوام في قلبي ولأني أصلي من أجلكم. أنتم أولادي لأنّي أبوكم ككاهن، وكما أنتم أيضاً تدعونني. يا أولادي! الشرير، الذي منذ البدء يغذّي الحقد والغضب والمراءاة، يكره هذا العالم كثيراً، ولكنني بنعمة الله لن أُصغي له وسأبقى أناديكم أولادي لأنكم أنتم في الحقيقة أولادي في الإيمان، في كنيسة الله، ولأنّكم تقبلون مني التعليم والارشاد. فقط بالروح القدس، بروح الحق والمحبة يستطيع أحدهم أن ينادي أولاد الآخرين "أولادي".

«من أقوال القديس يوحنّا»